

نماذج بشرية

بقلم

الدكتور

محمد مندور

الطبعة الأولى

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٤

نماذج بشرية

بقلم

الدكتور

محمد مندور

الطبعة الأولى

القاهرة

مطبعة فنون النسيج والتحرير والنشر

١٩٤٤

اهراء

اعتدت أن أملي على زوجتي ما أكتب أو أقرأه عليها بعد الفراغ منه ، وهي أديبة تجيد النثر والشعر ، وأنا شديد الثقة بذوقها الأدبي التي أدركته فيها وهي لا تزال طالبة بكلية الآداب ، ولقد كان هذا التوق دائماً خير عون لي على الرجوع عما قد تسوقني إليه حرارة القلم عند ما يتملكني الموضوع فأندفع في أعقابه . ولقد تناولت هذه النماذج بالمراجعة قبل جمعها في الكتاب الحالي ، فإذا بي أرجع إلى ما كانت قد رآته عند الكتابة الأولى في عدد من المواضع . وإن يكن هناك إنسان قد أحس بكل ما وضعت في هذا الكتاب من تفكيرى وإحساسى ، فهو لا ريب هذه الزوجة العزيزة .

ولقد حرصت على أن تظهر القراء على ما في هذه النماذج من جهد مستور وصنعة خفية فقدمتها إليهم وتلك ولا ريب سنة قد تبدو جديدة ، ولكنها سنة خيرة .

وهأنا أهدى إليها هذا الكتاب رمزاً لما أحل لها من عبة ووفاء .

محمد مندور

فهرست الموضوعات

صفحة	
ك — ١	مقدمة بقلم السيدة ملك عبد العزيز
٦ — ١	جفروش
١١ — ٧	فيجارو
١٨ — ١٢	دون كيشوت
٢٥ — ١٩	فاوست (١)
٣١ — ٢٥	فاوست (٢)
٣٥ — ٣١	فاوست (٣)
٤٢ — ٣٦	هاملت (١)
٤٧ — ٤٢	هاملت (٢)
٥٤ — ٤٨	ألسنت
٦٢ — ٥٥	بيترس : (١) في عهد الشباب
٦٧ — ٦٢	بيترس : (٢) في الكوميديا الإلهية
٧٥ — ٦٨	جولييان سوريل
٨٠ — ٧٦	إبراهيم الكاتب
٨٦ — ٨١	فيليسيتيه
٩٢ — ٨٧	الأستاذ پتلان
١٠٢ — ٩٣	راستنيك
١٠٨ — ١٠٣	أوليس : (١) في الإلياذة
١١٤ — ١٠٨	أوليس : (٢) في الأودسا
١٢٠ — ١١٤	أوليس : (٣) في فيلوكتيت
١٢٤ — ١٢٠	أوليس : (٤) في الآداب الحديثة
١٣٣ — ١٢٥	المبيط : (١) المبيط مع ماري والأطفال
١٣٧ — ١٣٣	المبيط : (٢) المبيط في الحياة الاجتماعية
١٤١ — ١٣٧	المبيط : (٣) المبيط والإعدام
١٤٤ — ١٤١	المبيط : (٤) المبيط والنساء

مقدمة

بقلم السيدة ملك عبد العزيز

« للكاتب الإيطالي المعروف بيرندالو رواية مسرحية هي (ست شخصيات تبحث عن مؤلف يبرزها إلى الوجود) . وهذا معنى الخلق في الأدب . ولكم من شخصية ما تزال مبعثرة غامضة حائرة حتى يتاح لها مؤلف يجمع أشتاتها ويوضح معالمها ويدعم حياتها ، فإذا هي أتت على الزمن من البشر ، وإذا بها تجاوزت الأجيال مستقلة الوجود في مأمن من الفناء ، لأنها أعمق في الحياة من كل حي ، وأصدق دلالة من كل واقع » (ص ١) .

ذلك ما يبدأ به المؤلف كتابه ، وذلك ما ساستعيره لأبدأ به مقدمتي عن ذلك الكتاب . فإذا كان أولئك الكتاب الكبار خالقو تلك النماذج قد وجدوا شخصياتهم مبعثرة غامضة حائرة في الحياة ، فجمعوا أشتاتها ووضحوا معالمها ودعموا حياتها ، فكذلك قد وجد المؤلف تلك الشخصيات مبعثرة حائرة ، ولكن في كتبهم ، التي صارت أعمق في الحياة من كل حي وأصدق دلالة من كل واقع ، فجمع أشتاتها ووضح معالمها ، فكان من ذلك خلق جديد .

وها هو جيته يتحدث عن فوست قائلا : « تسألونني أي فكرة أردت أن ألبسها فوست ؟ وكيف لي أن أعرفها ؟ ثم أني لي بالعبارة عنها ؟ قد تكون جولة بين الأرض والسماء أ هي خطوات أكثر منها فكرة ، وإن يكن في فقدان إبليس لرهانه ونجاة ذلك الرجل الذي ما زال وهو في حماة الرذائل يهفو إلى الخير حتى نجت روحه من الهلاك ما نير الكثير من وقائع حياته . ولكن هذه الفكرة التي تستقر في قلب القصيدة ولا في أي جزء من أجزائها على أفراد . . . » (ص ١٩) . ولقد يكون جيته حقاً لم يقصد إلى فكرة واحدة ، فكرة بذاتها ، ولكن هذا لا يمنع أنه قد تكون هناك بالفعل فكرة في قلب القصيدة . وماله بي تلك الفكرة ، والأدب لا يصدر عن وعي كله ؛ بل ماله يحددها فيملها على قرأه ويزجهم في طريق واحد مرسوم ؟ ولكنه تركها حائرة مبعثرة ليأتي سواء يبحث عنها ويبرزها للضياء ، فيقول عن فاوست : « إنه عقل طغى على القلب فأشقى صاحبه » (ص ٣٢) . ويقول عن حياته : « إن معنى تلك الحياة والأثر الذي خلفته

خطى فاوست على صفحات الزمن هو أنه علينا أن ندأب ما استطعنا في سبيل المثل العليا ،
وسيان بعد ذلك أصبنا نجاحاً أم إخفاقاً فلجهاد نبيل في ذاته » (ص ٣٥) . وسواء أوافق
جيمته على ذلك الفهم أم لم يوافق ، فليس له — وما أراد — أن يعلى شيئاً على قرائه ،
فلكل منهم حرية الفهم كيفما يريد .

وهكذا جاء مؤلف « التماذج البشرية » فدرس جملة من عيون الأدب العربي ثم رسم لنا
أوضح شخصياتها كما رسبت بنفسه ، وحدثنا عن أسرارها كما أوحى بها إليه .
« التماذج البشرية » دراسة وخلق .

هي دراسة . فالمؤلف يحيط بتاريخ الكتاب وعلامات ما كتبوا وبالأراء المختلفة
في فهم شخصياتهم والحكم عليها . يبرز ذلك حيث لا يثقل ، وبطوبه حيث يفضل
الطبي . هي « كالتور الداخلي » يضىء دون أن يعشى . فلئن كان المؤلف يحرص على
إيراد الحقائق التاريخية حول الشخصية وخالقها ، فإنه لا يدعها تظني على الخلق الفني
فتجفف مائه . بل هو لا يوردها جملة واحدة ، بل يحتال لينثرها هنا وهناك حيث توحى
المناسبات . ففي هملت نراه ينطقه فيحدثنا عن نفسه ، مشيراً فيما يسوق من حديث إلى المصدر
الذى استقى منه شكسبير قصته . كل ذلك دون أن نحس أن المؤلف قد قصد إلى شيء
« ولو أنني بقيت على الفطرة كما خلقت لانتقمتم لوالدى في غير تردد ، ولكن بعد ذلك
ما يكون من نصر أو هلاك ، ولنادرت الحياة غير خلف أترأ إلا أن تكون إشارة مؤرخ
مثل ساكسو جراماتيوكوس يسوق اسمي بين من يسوق من ملوك الدانيمرك . ولعله يذكر
ما كان من محاولتي الانتقام لأبي » (ص ٣٦) . ويضيف هملت ، وقد أراد المؤلف أن يظهرنا
على أن قيمة تلك المسرحية الخالصة ليست في موضوعها بل في علاج هذا الموضوع : « وكم
في ثنايا التاريخ من أحداث كهذه طفا القليل منها على الزمن وهوى الكثير ، والناس بعد
لا يشغلون أنفسهم بما طفا أكثر من اشتغالهم بما هوى ، ولكن شكسبير قد خلقني خلقاً
جديداً وأودع روحي من النفاذ ما لا أزال أشقى به ... » (ص ٢٦) . وفي موضع آخر من
هملت أيضاً نرى المؤلف يشير إلى الحالة النفسية التي كتب فيها شكسبير قصته « ونحن لا بد
متساؤلون عن مبلغ ما حمله خالقه البعيرى من حرارة نفسه وقد استوت ملكاته وسط أزمة
نفسية ما تزال إلى اليوم حائرة في فهم سرها ومداهها وإن طالعتنا في أكثر من مقطوعة
من شعره الثنائى Sonnets الذى يدور حول ذلك العام ، عام ١٦٠٤ » (ص ٣٩) . وفي
ألسست نراه ينطق موليير بقوله : « وأنا الآن في أزمة نفسية تكاد تهد كيانى ، فها هي

زوحى تحتى وراء المجاملات الاجتماعية فتثير فى نفس الغيرة تكوينى بنارها كيا» (ص ٤٨) ، فيستبين بتلك الملابس التاريخية على تأييد رأيه فى أن شعور مولير كان مع بطله الأست ، إذ لم يجعله موضعاً للضحك فى بعض الأحيان إلا لىبقى غضب حياة اجتماعية تؤمن بالمجاملات وما بها من ففاق . وفى « أوليس » يصف معارك طروادة ثم يقول : « وكانت معارك تبيض لمولها النواصى إذا كانت كلها فى قسوة ملاحم السنة العاشرة التى اكتفى هوميروس بأن صور لنا جزءاً منها » (ص ١٠٣) ، ليخبرنا أن هوميروس لم يصف فى ملحمة من تلك الحرب سوى جزء من السنة الأخيرة .

ومن وسائله الجميلة فى إيراد الحقائق التاريخية أن تراه يمزج بين النموذج ومؤلفه حين يرى أن المؤلف إنما كان يصور جانباً من نفسه فى أتمودجه ، وفى هذا ما يحسم الشخصية الروائية حتى لتحسبها ولت وعاشت واضطربت فى الحياة بالفعل . استمع إليه يقول فى سبناجة تضيق على الكلام خفة وسحرأ : « نشأ دون كيشوت كما نشأ سرفانتيس بمقاطعة المانش بأسبانيا » (ص ١٤) . ويتابع المؤلف تجسيمه لنماذجه ليضيف إلى حياتها حياة فيقول : « فيجارو من رجال سنة ١٧٨٠ الذين مهدوا للثورة الفرنسية » (ص ٧) . فلو قرأ تلك العبارة من لم يسمع باسم ذلك البطل لما داخله شك فى أنه قد عاش ومهد للثورة بالفعل . وفى تلك السنة كتبت الرواية ، وفى تلك السنة خلق بومارشيه بطله فيجارو . ويمثل تلك السبناجة حدثنا عن دخول كلمة فيجارو فى اللغة الفرنسية اسماً لكل حلاق بعد أن ذاع صيت تلك الشخصية الفريدة . « وبلغ من نجاحه فى تلك المهنة أن أصبح كل حلاق الأرض يحملون اليوم ذلك الاسم » (ص ٨) . وحدثنا عن الروايات التى ظهر فيها ذلك البطل : « وبقية المؤلف بومارشيه وقد سُم مهنته ، ومن ذلك اليوم أحبه ، فصاحب خطاه فى الحياة ، وقص علينا نبأه فى مسرحيات ثلاث : حلاق أشيلية ، وزواج فيجارو ، والأم الجانية » (ص ٨) .

ورغم أن المؤلف إنما قصد إلى إحياء « النماذج البشرية » إلا أنه لم ينفل أن يسوق شيئاً من النقد لقن الكاتب أو لطبيعة العمل الفنى ، ولكنه يسوق ذلك كمادته سوقاً محكما فى السياق بحيث لا تحس له نفرة أو إقحاما . فى « إبراهيم الكاتب » يقول : « وأنا بعد لا أستطيع أن أتبع تاريخ تلك الظاهرة فى حياة رجلنا لأننى لا أعرف قصته ، وإنما أعرف منها مرحلة قصيرة تدكرنى بالدراما الكلاسيكية حيث ترتفع الستارة عن شخصيات تكونت من قبل ، وإذا بنا أمام أزمة من أزمت الحياة ، وإذا بالشخصيات تتحرك فى أزمتها وفقاً

لطبائعها . ونحن بعد لا نعرف ماضى تلك الطبائع ولا نشأتها ، وإنما ندرك خصائصها من احتكاكها بالناس والأشياء وسط أزمته العارضة . وإذن فقد كانت لإبراهيم الكاتب دراما صيغت قصة « (ص ٧٧) . ويصف أدب الكاتب بقوله : « إبراهيم الكاتب أو إبراهيم المازنى مزيج جميل من الشعر والسخرية ، وتلكا صفتان يرد لها بحق جورج ديهامل سر نبوغ الكتاب » (ص ٧٧) . وكذلك نراه يحكم على قصة يتلان بأن « أجزاءها المختلفة ليست فى نسبة واحدة من الصلة بالحياة . . . » (ص ٩٢) ، ثم يفسر ذلك ويوضحه . ولكم من مرة تقف أمام أدب الكاتب من أولئك الكتاب الكبار نمجب به وتضحى لو يظهرنا المؤلف على ما فيه من أسالة وجمال ، ولكن موضوع « التماذج » يضيئ عن ذلك ؛ فلعلى إذ أقول اليوم هذا ، أنتزع من المؤلف وعلاً بأن يمود إلى فن أولئك الكتاب يتحدث عنه .

والتماذج خلق ينفث فيها المؤلف الحياة بما يصطنع من سذاجة ، وبما يحملها على التحدث به عن نفسها كما حملت ، وبما يترجمه من أقوالها الأصلية ينطقها به بعد أن يكون قد مهد الجو وأحكم اللابسات . هو غخلص للتمازجه يتابعها جزءاً وجزئتين كفاومت ، وقصة واثنين كفيجارو ، بل ينتقل معها قروناً كأوليس : يناصر هوميروس فى القرن التاسع ق . م . ثم سوفوكلى فى الخامس ق . م . ثم تقيسون وجويس فى المصور الحديثة ، فهو عالم بها لم بأطوارها . استمع إليه يتحدث عن أوليس « ومن عجب أن يسير رجلنا من بطولة الإلياذة إلى دهاء الأودسا ثم ينتهى بمبحث فيلوكتيت وأن نجد فى كل مرحلة بذور المرحلة التالية حتى لنحسب أنه كان يمتلك كل تلك الصفات كاملة وإنما هو يحك الزمن الذى أظهرها فيه ، كما أظهرها عند الشعب اليونانى كله ، يوم سار من صلالة البداوة إلى مروة الحياة إلى فساد المدنية » (ص ١٠٤) . وفى الحق أن الرجل ما عاش إلا فى القرن الثانى عشر ق . م . فى عصر البداوة الأولى ولكن خالقيه من الكتاب هم الذين نقلوه معهم إلى أزمانهم حين صوره بالصورة الخاصة التى أرادوا . ولولا نفاذ نظر المؤلف لما استطاع أن يرى تطور صورته فى ردوس كتابه المختلفين ، ولما استطاع أن يجد فى كل مرحلة بذور المرحلة التى تليها رغم اختلاف أولئك الكتاب ، ثم أن يحكم من ذلك ، لا أعوذجا لشخص واحد فى الحياة فحسب ، بل أعوذجا للشعب اليونانى كله فى عصوره المتعاقبة ، وأعوذجا لكافة الحضارات « حين تسير من صلالة البداوة إلى مروة الحياة إلى فساد المدنية » .

والمؤلف يتسلل إلى نفوس تمازجه من خلال أنفسها ومن خلال خالقها ، ويعرض مختلف

الآراء فيها لينفذ إلى ما يراه الحق وليصورها في الصورة التي أوحى بها إليه . استمع إليه يتحدث عن دون كيشوت « فن قائل إن هو إلا مجنون يحيل إليه خبله أنه موكل بأتمام البشر يحاول لها إصلاحاً فترتب إليه ضرباته إن لم يضرب في غير مضرب . ومن قائل إن هو إلا مثالي عنيد لا يزال يصطدم بمخالفات الحياة المرة حتى يسلمه الفشل إلى الفناء . وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه على وجهه فهم الشباب ، الذين يحسون بفيض من الحياة أنه ليس من الضروري أن ننجح لنجاهد في سبيل مثل أعلى نؤمن به ونفنى دونه لأن الجهاد غاية نبيلة لذاتها . ومتى احتاج النبل إلى ما يعززه من نتائج ؟ » (س ١٣ ، ١٤) أو إلى قوله عن هملت : « هذه مأساة هملت ، ولكم كثرت من حوله الأكاويل فن قائل إنها مأساة جنون ومن قائل إن هي إلا شهوة انتقام ، ولكم اتهمه قوم بالعجز والتردد . وفي الحق إنهم لم يخطئون . ليست مأساة هملت شيئاً من كل هذا وإنما هي مأساة رجال الفكر أولئك الذين اتسمت عقولهم لكل شيء ففقدت بصائرهم إلى حقائق الحياة ، وتشعبت بهم أوجه الرأي فتعطلت بين أيديهم حياتهم التي اتخذوها موضوعاً للدرس والتحليل . ألا ترى إلى بسطاء الناس كيف لا يرون من الأشياء إلا جانباً واحداً فيسرعون إلى تنفيذ ما اعترضوا ، بينما تلح العقول الكبيرة في كل أمر ألف جانب وجانب فما تزال أحياناً حائرة مترددة حتى تقف في مكانها إلا أن يكون قضاء محتوم » (س ١٧) ولا شك في أن ذلك رأى أصيل أيده ودعمه بما بسط من وقائع الرواية وأحداثها .

ثم هي خلق بما فيها من تأمل شخصي وملاحظات إنسانية وتفكير عميق غذتها ثقافة واسعة واضطراب مباشر في مناحي الحياة . استمع إليه يقول في جفروش : « فأشد انفعالات النفس وأعقها غوراً وأصدقها رنيناً هو ما يعقد اللسان » (س ١) أو إلى قوله عن دون كيشوت « فاستحالت آلامه سخرية من آماله التي طوحت به في كل مذهب ، ولكنها سخرية لا تزال تحمل ما كان بتلك الآمال من عنوة . ومن منا لا يحس في نفسه بتلك الحقيقة الإنسانية اللادعة ، وهي أننا همما تنكرونا لأحلام شبابتنا ومهما سخرنا مما كان فيها من طيش ، لا نملك إلا أن نحنو عليها ونزفق بها كما نحنو ونزفق بيمض نفوسنا » (س ٣) من منا يقرأ ذلك ثم لا يحس بصدقه وإنسانيته ؟ ومن منا يقرأ قوله « هذا هو جفروش كما تعرفه باريس في أطفالها الذين قد لا يعرفون للأخلاق قواعد ولكنهم يصدرون عما هو أسمى من الأخلاق : عن صفاء في النفس وحرارة في القلب وإيمان في الحياة تنشر على شفاههم ابتسامة أبدية الخلود » (س ٥) من يقرأ هذا ثم لا يحس أنه قد فسر لنا حياة أولئك الصعاليك الذين نحبه

ونعجب بهم وإن كنا قد تردد في إتهاج سبلهم في الحياة - من منا لا يحس أنه قد جعل
جفروش غودجا حقاً لهم بحيث لا نملك أنفسنا حين نقرأه ، وهو الطفل البارسي ، من أن
نذكر الشاعر العربي عروة بن الورد ، عروة الصماليك الذي كان يجمعهم ويؤمهم ويعطهم
مما يستلب في غارته ، ثم لا يذكر قوله الجميل النبيل :

أنهزاً متى أن سمحت وأنت ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمي في جسم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

ثم انظر كيف صور الدور الذي تلعبه السخريّة في الحياة بقوله في فيجارو « ولكم من
مرة لا يجد المرء سبيلاً إلى الانتقام من آلام الحياة غير اقباسمة عارية أو حكم ضاحك . وهل
يضيف من نفوسنا غير الألم ؟ وهل يجد من حياتنا غير المهوم التي لانعرف كيف نسخر منها ؟ »
(ص ٧) واستمع إلى تلك الحقيقة الاجتماعية الصادقة في العبيط « فنحن في الحق أكثر استعباداً
للعرف منا للخلق وذلك لأمر بين هو أننا جميعا - إلا من عصم ربى - أشد حرصاً على حركاتنا
الظاهرة منا على حقائق نفوسنا » (ص ٢٧) ثم احكم هل عدا الحق في قوله : « ثم أي تفكير أصيل
دقيق في وصفه للمكر في « الأستاذ بتلان » : « المكر ذكاء ينفذ إلى النفوس فيعرف مواطن
الضعف فيها وإلى تلك المواضع يتسلل فيختلس الثقة . والمكر إحساس باطنى بالنسب ،
إحساس يقف بصاحبه عند طاقة النير بما لجها حتى يقودها إلى ما يريد وكأنه لا يبى ما يفعل .
والمكر أخيراً قدرة على تصريف القول وشعور دقيق بمفارقات الألفاظ . وهو صفة إذا
حرم منها إنسان فقد سلاها لا يمكن أن يبقى عنه سلاح آخر للنجاح ، وذلك لما هو واضح من
أن الحياة البشرية كلها إنما تنهض على فهمنا لنفوس النير وتذليل تلك النفوس . وإذن فالمكر
ليس شراً في ذاته وإنما يصبح شراً إذا أفلت من رقابة الضمير ، ومثله مثل الكثير من قوى
الحياة والوجود » (ص ٨٧)

ولكم من مرة تراه يلخص فلسفة بأسرها في جملة تأتي في موضعها من السياق ، دون أن
تحس فيها جفاف العلم وإن ظلت محتفظة بجلال الفكرة ، مما يجعل لتلك النماذج دسامة تقضى
القول وتفتح أمامها أبواباً من التفكير ، كما رأيناها من قبل ترهف من أحاسيس النفوس .
فها هو يجمع فلسفة الضحك عند برجسون في قوله : « إن في تصرفات ألسنت ما يبرج
وما يضحك ولكنه إسراف في قضية عادلة ، إسراف قصد منه إلى إثارة الضحك ؟ وهل نحن
نضحك إلا مما يخرج من مألوفنا ؟ وهل الضحك إلا جزء نقوم به ما يخرج في حياتنا عما يجب
أن نطرد عليه في عرف المجتمع ؟ » (ص ٩٠)

وأخيراً هي خلق لما فيها من صياغة محكمة أصيلة وأسلوب حار يضمعان لها الخلود كعمل فني . وفي الحق إننا لنستطيع أن نرى في ذلك مرحلة أخيرة من مراحل الأسلوب العربي في العصر الحديث ؛ فاقدم كان في البدء سجعاً وتكلفاً وزخرفة لفظية ثم مال — كرد فعل — إلى البسط والتبسيط بحيث تكشف لك الكتابة عن كل ما تحمل للقرأة الأولى دون أن تترك لك ما تفكر فيه وتتأمله . ولكن أسلوب هذا الكتاب قد خلا من سوءات الصنعة المتكلفة ونأى عن البسط المسرف ، فجاء أسلوباً مركزاً موحياً غنيا بما يقد تحتته من إيحاءات ، فلا تملك إلا أن تقف بين الحين والحين لدى الجملة تمضمناً وتجترها لتستخرج كل ما يمكن في قلبها من معنى . وهو إلى هذا قد خلا من ثقل المحاجة المنطقية وجفاف الأسلوب التعليمي بل نراه يلقي ما يريد في خفة تشبه خفة الإغريق الذين كانوا « يفكرون بجياهم » ويحلون مشكلات الوجود بالأساطير .

في جوليان سوريل تجده يقول بعد أن صور ما قد يلاقه بعض المتأخرين من اضطهاد في المجتمع يدفعهم إلى ارتكاب الآثام . « وهكذا تجعل الجماعة منهم كما جعلت من سوريل طيوراً جارحة » (ص ٦٩) انظر كيف اهتدى المؤلف إلى الوصف الدقيق الناقل للإحساس بقلبه في خفة عابرة فيصيب موقفه من النفس ، فهو لم يقل « وحوشاً ضواري » مثلاً لأنه يريد أن يحتفظ في نفسك بيمض العطف على أولئك الذين « جعلتهم الجماعة » بظلمها لهم يصلون إلى تلك الحال . وكذلك وصفه للتشابه بين فتاتين صغيرتين بقوله « شبه قطرات الندى بعضها لبعض » (ص ٣) فهو لم يشبههما بزهرتين مثلاً بل اختار أدق ما يحمل ما في النفس من إحساس ، إحساس بالصفاء والطهر والرقّة ؛ وهل أدق من قطرات الندى في نقل ذلك الإحساس .

ولأنك لتلح مثل هذا التوفيق في التعبير في قوله « فلئن كان ألسنت ضميراً ينطق بمكنونه صادقاً صريحاً فلسيمين أ كذوبة اجتماعية تتحرك ؛ ومن عجب أن يجها ألسنت حبا صادقاً عميقاً » (ص ٥٠) وانظر أي وصف كان يكون أكثر انطباقاً على امرأة كسليمين « في حركات وجهها وابتناسات شفقتها وجرس ألفاظها من التكلف والصنعة قدر ما في ألوان وجهها وأصباغ شعرها . » (ص ٥٠) . وأي وصف كان يكون أبلغ عن رجل كألسنت ، لا يكتفي « بالآ يقول إلا ما يؤمن به بل وأن يقول كل ما يؤمن به ولو كان في ذلك شقاؤه ، ولو أصبح به موضع سخريّة الناس أجمعين » (ص ٤٨) ثم انظر كيف ثبت الكاتب السجّب في نفوسنا من حبه لسليمين حين جمع في دقة بين « الضمير » و « الأ كذوبة »

واقراً مى تلك الجملة يفسر بها كيف أن رأس المحكوم عليه بالإعدام فى اللحظات السابقة للتنفيذ ، تحظى بحياة غنية تندافع فيها الأفكار غزيرة متتابعة « أو ما تحس أنها قد وصلت إلى غاية الجهد فلم يبق فيها إلا ما يخلف هذا الجهد من حرارة تشبه الحياة وهى بحمى اليأس أشبه » ثم خبرنى ألم يرقك هذا التفسير الإنسانى الصادق بما فيه من دقة وتركيز يدعوان إلى التأمل ؟

واستمع إلى قوله : « وهكذا تتصور النفوس الممتازة وقد قضى عليها أن تتبع السلسلة الإدارية ، وأن تكبح من طموحها حتى تبلى فى أصفر الراكرز ، وما تزال تحنى أصلابها وتنصب عرقاً حتى تستطيع — وقد لا تستطيع — بعد جهد عشرين عاماً — جهد الرقيق — أن تصل إلى ما تستحق » (س ٦٨) . ثم انظر إلى قوة الصورة ودلالاتها وأصالتها فى قوله : « تحنى أصلابها وتنصب عرقاً » . إننى لأتصور أمابى الآن رجلاً رث الثياب يخرج من فوهة منجم مظلم ، وقد حُل فوق ظهره حملاً ثقيلاً انحنى عوده تحت وقره ، وفترت عروقه وتنصب منه المرق . وانظر إلى تلك الجمل الاعتراضية التى قطعت الأسلوب ، عقبات وقف فى طريقك كلما حاولت الانطلاق بما يشمرك بالجهد ، جهد أولئك الممتازين الذين وضع المجتمع فى سبيلهم العقبات ، « حتى تستطيع — وقد لا تستطيع — بعد جهد عشرين عاماً — جهد الرقيق — أن تصل إلى ما تستحق » ، ولكن الجملة الأخيرة تطول قليلاً ، إذ فيها راحة الوصول . فأى مطابقة فى الأسلوب بين الفكرة وما يساوقها من عاطفة ، وبين الموسيقى اللفظية ! وما دننا بصدد الموسيقى فلتقرأ مى تلك الفقرة : « ولكم قعقت أسلحة رولان فى مفاوز الجبال ، ولكم نشرت قلاع برابروس الرعب على صفحات المياه ؛ فإله لا يناصر كما غاصروا ؟ وما له لا يلتبس الجهد بمجد السيف كما ألتبس من قبل أبطال ؟ » (س ١٢) . واستمع كيف « قعقت » الأسلحة فى « مفاوز » الجبال ، وكيف « نشرت » ، لا بشت ، « قلاع » برابروس « الرعب » على « صفحات » المياه ، لا سفن برابروس ، الخوف على صفحة السماء . ثم احكم أى توفيق قد صاحب الكاتب فى اختياره للألفاظ المعبرة بمنهاها وموسيقاها ، ورولان هو ذلك البطل الشهير الذى زعموا أنه حاول رد العرب عن إسبانيا ، فأوحى بأول ملحمة فى الشعر الفرنسى ، وبرابروس هو ذلك القرصان الرومانى للرعب الذى دوخ رواد البحر .

« تراه فى المنزل وما تدرى من أين دخل ، تغلق الباب فيأتيك من النافذة ، تحسبه بالداخل بينما هو فى الخارج ؛ أليس هو فيجارو مضرب الثل فى الخفة والمهارة ؟ أليس هو فيجارو ؟ ... » (س ٩) .

نعم إنه فيجارو مضرب للثل في الخفة والمهارة ، إذن فليتابع المؤلف خفته في حركة الأسلوب ، في تلك الجمل المنفصلة المتلاحقة ، وفي ذلك التساؤل التكرار الذي يتبناها .

وبعد فليس الحديث عن السيل الموسيقى في الأسلوب واللغة في اختيار الأصوات العبرة بالأمر الهين . ذلك لأنها ليست من البساطة والوضوح بحيث تمسك بها وتدرجها في رقم أو أرقام كذلك الذي كانوا يملوننا في المدارس عن أدب هذا الكاتب أو ذاك « سجع قصير الفقرات ، ومقابلة أو طباق ، وبدء بالتحديدات الخ الخ ... » . إنها ليست موسيقى رقص ، محددة مقسمة متعاقبة ، ولكنها فيض نفس ، نفس حارة غنية ، موسيقى سيالة تملو وتهبط وتتكسر وتتراخي وتتدافع حسب نبضات الإحساس أو وثبات الفكر ، فإذا أردت أن تدرك خصائصها ، فليكن أن تحف إزاء كل جملة ، وإزاء كل فقرة ، تتأمل السر في إحكام ما بها من نغم .

وإذا كان المؤلف قد استعان بتجسيم شخصياته على إيراد الحقائق التاريخية ، فإنه قد استعان بذلك أيضاً على استحضارها أمام القراء ، حتى تكون أبلغ تأثيراً في نفوسهم ، « ها نحن تحت أشجار التسطل في ظلام الليل ، وها هو فيجارو وحيداً مجهداً يقص علينا آلامه ويشكو ظلم الحياة ، بعد أن قد صبره وأصابته السهام شفاف قلبه . ها هو فيجارو يصيح غيرة على عروسه التي يجب ... » (ص ١٠) . ثم إذا به يقب بدم أن انتهى فيجارو من إلقاء مونولوجه بقوله : « وحزن الحاضرون لحزن فيجارو » . وفي الحق لم يكن ثمة حاضرين سوى النظارة في المسرح ، ولكنه أحلهم « حاضرين » معه حتى يوهنا بالواقع فيكون أفضل تأثيراً في نفوسنا .

وبعد فإذا كان المؤلف يملك تركيز الفكر ودقة اللفظ وقوة إيحائه ، ثم دلالة الصور وموسيقى الأسلوب ، وإذا كان يعرف اصطناع السذاجة وإحياء الشخصيات ، فإنه يملك هبة لا تقل خطراً عن كل هؤلاء ، يملك حرارة القلب ، يملك قوة الشعر ، ومثالية التصوف ، استمع إلى قوله « دون كيشوت رمز لأحلام الشباب ، وأى سحر أفضل في النفس من تلك الأحلام ؟ لقد تذهب أحداث الحياة بتلك الآمال العذاب التي يقوم عليها صبايانا كما كانت تقوم العذارى على النيران المقدسة بمبادي الآلهة يحسكن ضرامها عن أن يخبث ، ولقد تنقطع أوتار القيثاره فلا تمود تملأ نفوسنا بنفاتها الساحرة ، ولكن النار لا بد خلفه رماداً مقدساً ، ولا بد للألحان من رجح في النفس نحن إليه كلما عادت بها الذكرى من ثنانيا الماضي الجميل » . إنني لأشفق أن أمس تلك الفقرة الرائعة بالتعطيل فألقى ظلاً على ما بها من شعر وتصوف ،

ولكن عليك أن تميدها على ممك لتحص بكل ما فيها من جمال وجلال .

ثم هو إذا كان يملك الشعرفاته ليعرف السخرية . استمع إلى قوله في «المبيط» : « ولكن الرجل عبيط عبيط ما في ذلك رب ، فهو لا يعرف أين يضع نفسه ولا يقدر نفسه من مخاطبه ولا يظن إلى ما في ردود الخادم من وقاحة متصاعدة ، وهو أخيرا لا يعرف أن ما كل حق يقال ، وإذا قيل فابني أن يقال لكل إنسان وما إلى ذلك من حكمتا الثمينة . قد تقول هذا وخيرا من كل هذا ، وأما أنا فأعتقد أن عقولنا نحن هي الفاسدة وأن حياتنا الاجتماعية كانت من القسوة بحيث خلقت أرواح عبيد وأرواح سادة ، وكانت من الالتواء بحيث جعلت من حياتنا نفاقا متصلا ، واتخذت من هذا النفاق قانونا صارما يصيبنا من عدم احترامه أكبر الأذى » (س ٣٦، ٣٧) فأى سخرية أبلغ منها في قوله « عبيط عبيط ما في ذلك رب » ووصفه لتلك الحجج بأنها « حكمتا الثمينة » ثم استخفافه بها في قوله « قد تقول هذا ، وخيرا من كل هذا » . ثم إنني أرجو أن تقف عندما في هذه الفقرة من سخط على التواء حياتنا الاجتماعية ونفاقها وما بها من دعوة لتعطيل تلك القسوة التي خلقت أرواح عبيد وأرواح سادة . ولكنها دعوة لا تأتي من الخارج ، لا تأتي من أنه « يبنى » لنا أن نبحث على الفضيلة وأن نجعل الأدب منابر وعظ ، لا تأتي عن قصد وتعمل — فذلك ما يمتع الأدب ولا يحبي الأخلاق — وما يؤمن الكاتب بشيء من هذا بل إنه ليؤمن بأن الفن غاية نبيلة في ذاتها ، ولكن تلك الدعوة وأمثالها إنما تصدر لديه عن فيض نفسي ، عن شعور شخصي وإيمان عميق ، ولذلك تحتفظ بقوتها على التأثير ، قسّم لها النفوس ، بدل أن تنفر من وعظ مفتعل مرسوم .

ولكن يستجيب إلى ذلك الشعور الذي يمتلج في نفسه من حبه للمثل العليا تراه يقف في تصويره لبعض الشخصيات عند مرحلة بعينها حين يراها تفقد دلائها الأولى كمثل ممتاز « ولهدنا ثقف في تصور فيجارو عند هذا الحد لتركه في ذهن القارئ مثالا للبلوغ ما يستطيع أن يصل إليه الفرد من عزة نفس هما اتضمت به حماقت الهيئة الاجتماعية الفاسدة . » (س ١١) وفي الحق إن في التماذج غير غذاء للجيل الجديد . تراه يدعو إلى المثل وإن كان ينصح بملابسة الحياة « وهكذا نحن في الحياة لا بد لمن يريد أن يظهر منها بما يسميه جمهرة البشر بجاحا وقوة أن يستوثق من الأرض بقدم وأن يلبس الواقع عن قرب . وأما المثاليون الذين يرفضون أن تدنس الأرض أقدامهم فثقلهم لنكد الطالع كمثل أتيه وقد رفع إلى القضاء ماتلبث السيف أن تذهب برعوسهم » (س ١٢) في هذه الفقرة تراه يصور ضرورة ملابسة الواقع

فلا يهيم الشباب في وادٍ سحيق من الأحلام لا يقضى إلى شيء ، وإن كان لا زال يحتفظ بحبه للمثل في قوله « أن يظفر بما يسميه جبهة الناس نجاحاً وقوة » وفي قوله « لنكد الطالع » . وهو يدعو إلى الجهاد ، الجهاد الذي لا يعرف اليأس مهما لاق من إخفاق « وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه على وجهه فهم الشباب الذين يحسون أنه ليس من الضروري أن ننجح لنجاهد في سبيل مثل أعلى .. » ثم هو يرفع من قوى النفس الخلقية « ولكنه أبى النفس يرفض أن يميل مع الرياح لير على عنقه رجال حابتهم الأقدار على غير فضل فيهم أو رفهم حق البشر فوق ما كان يجب أن يقيم انضاع نفوسهم »

ولقد نجد تقاوفاً في الحرارة بين النماذج المختلفة ، فما نتظر أن يتحمس المحتال « بتلان » وإن كان قد يتحمس ضد أوليس بعد أن ينحدر . إنه يفهم محنة هاملت ويمطف على فيليسييتيه ويرثى لجولييان سوريل ويخشى على رستنيك ويحب جفروش ، ولكن حماسه تبلغ أقصاها حين يتصل النموذج بمعنى عام شديد الأساس بحياتنا قريب من آلامنا وآمالنا . استمع إلى قوله عن فيجارو « فيجارو أنموذج بشري خالد لأبناء الشعب الذين لا يطمئن من كبريائهم ظلم ولا يعوزهم سلاح فإن لم يكن العنف فلتكن السخرية ... فيجارو روح خالدة لأنها كقوى الطبيعة التي لا تدفع . فيجارو من روح الله لأنه رمز الشعب ، ذلك الشعب الخامل الذكّر المهنوم الحق ، ذلك الشعب الذي لا يريد أن يستجدي أحداً وإنما يطالب بحقوق لا يد أن يناهها يوماً ما ، ذلك الشعب الذي يشكو من نظام فاسد لا بد من أن يقيم على اتقاضه نظاماً أصح » . (ص ١١) وفي هذا الكلام من حرارة القلب وقوة الإيمان ما يشجذ القوى ويحيي النفوس .

وبعد ، فلمى أطلت عليك أيها القارئ الكريم ، ولعلك تتساءل وما بالها نكتب كل هذا الكلام عن صاحب الكتاب ؟ ولكنه لو لم يكن زوجي لكان لي الحق في أن أكتبه كحجة للأدب ، فكل ما طرأ هو أنه قد أفصح لي الكتاب لأقول ما أريد .

جفروش

Gavroche

للكاتب الإيطالي المعروف بيراندللو Pirandello رواية مسرحية هي « ست شخصيات تبحث عن مؤلف يبرزها إلى الوجود » ، وهذا هو معنى الخلق في الأدب . ولكم من شخصية ما تزال مبعثرة غامضة حائرة ، حتى يتاح لها مؤلف يجمع أشاتها ويوضح معالمها ويدعم حياتها ، فإذا هي أبقى على الزمن من البشر ، وإذا بها تتجاوز الأجيال مستقلة الوجود في مأمن من الفناء ، لأنها أعمق في الحياة من كل حي ، وأصدق دلالة من كل واقع .

ولقد يبدو غريباً أن تترك النماذج المشهورة كدون كيشوت وهاملت وفوست مثلاً ، لنبدأ بجفروش . وجفروش طفل في الثالثة عشرة من عمره يظهر ويختفي بعد أن تبدأ رواية « البؤساء » لهيجو وقبل أن تنتهي ؛ فلا هو بطل الرواية ولا هو مدارها ، ولكن رغم ذلك أحب هذا الطفل وأفضله على الرجال ، حتى لقد أقمدني المرض أياماً فلم أجد جليساً تستريح إليه النفس خيراً منه . ولقد سئمت منطق البشر وأصبحت أرثي لذلك الفيلسوف الجليل^(١) الذي غنى شبابي بما في الخير والحق من جمال . وما أدري أضل رجلاً عندما زعم أن النفوس لا يمكن إلا أن تعشق الخير والحق إن بصرت بهما ، أم يخادع الناس أنفسهم ويخادعون الغير عندما يتحدثون عن الخير والحق ؟ ومن يدرينا ؟ قد لا يكون هذا ولا ذاك ، وإنما هو عبث بالألفاظ وإخراج للغة عما خلقت له من حمل معاني النفوس وتفتت القلوب . ولكم من مرة حدثني النفس أن اختراع اللغة هو أقسى ما نزل بالبشر من كوارث .

فأشد أفعالات النفس وأعظمها غوراً وأصدقها رنيناً هو ما يعقد اللسان ، وأكل الرجال شهامة ألقهم حديثاً عن الخير والشر ؛ وتلك ألفاظ ما كان جفروش يعرف لها معنى ، ولو أنه علم أن للأخلاق قواعد تواضع عليها الناس لتفسدت حياته ، لأنه نشأ على السخرية من مواضعهم والعبث بقوانينهم ، وحتى وخزات الضمير ما كان يعرف لها ألماً ، وما كان قوام حياته إلا معنى عميقاً للشهامة وفطنة إلى مواضع التهلكة أ كسبته إياها تجارب عاجلته بها الحياة صغيراً . نعم لقد كانت تجاربه محدودة ، ولكنها كانت غنية لشدة ما قاسى من آلام

حتى ما كان يدهشه شيء وهو يمدُّ في الماشرة من عمره .
« وكان جثروش يرتدى بنطلونا لم يأخذه من أبيه وقيصا لم يأخذه من أمه ، وإنما كساه
بتلك الأسمال قوم محسنون ، ومع ذلك فقد كان له أب وقد كانت له أم ، ولكنه لم يكن
موضع تفكير أبيه ولا محبة أمه . لقد كان من أولئك الأطفال الذين لهم أم وأب ومع ذلك
فهم أيتام .

« وكان شموره بالسعادة أتم ما يكون عندما يجد نفسه في الشارع ، إذ أنف حجارته
كانت عليه أقل صلابة من قلب ذويه ، وقد ألقوه إلى الحياة برفسة قدم ، فطار إليها راضى
النفس . لقد كان طفلا صاخبا شاحبا خفيفا يقطعا ساخرا حتى الملاح مريضها ؛ فكنت
تراه دائما غاديا مغنيا لاعبا يحفر القنوات ، ويسرق أحيانا ولكن في مرح كما تسرق القطط
أو المصافير ، وكان يضحك لمن يسميه عفريتكا ، ويفضب ممن يسميه لصا . لقد حرم الماوى
والخبز والنار والحب ، ولكنه كان مرحا لأنه حر » .

هذا هو طفل باريس ، وهو منها بمنزلة المصفور من النابتة .
« ويباريس أطفال لا يجدون عشاء كل يوم ، ولكنهم قد يذهبون إلى المسرح كل مساء .
لا قيص على جسدكم ، ولا حذاء بأرجلهم ، ولا سقف فوق رؤوسهم ؛ فهم كذباب السماء
لا يملكون من كل ذلك شيئا . يعيشون أسرابا . يذرعون الطرقات ، ويسكنون الفضاء .
ويرتدون بنطلونا قديما يخلمه عليهم أبوم فيزل إلى ما دون أكتافهم ، وبرنيطة لأب آخر
تغطي آذانهم ، وحالة ذات فرع واحد يملقونها بأكتافهم . يمدون ويترصون ، ويضعون
وقتهم ، ويدخنون ، ويقسمون أغلظ الأيمان ، ويششون الحانات ، ويعرفون اللصوص ؛ وما
في قلوبهم من الشر أثر لأن بها لؤلؤة هي الطهر والآلى لا تذوب في الأحوال .

« وهم يصيحون ويسخرون ويصخبون ويتضاربون ، وعليهم خرق كالشحاذين ، وأسمال
كالفلاسفة . يصيدون في المجارى ، ويطاردون في القمامة ، ويستخرجون المرح من الأحوال .
يصرون بأضراسهم ، ويعضون بالأنياب . يصفرون وينثون ، يحيون ويسبون . يجدون بشير
بحث ، ويعرفون ما يجهلون . هم إسبرطيون إلى حد اللصوصية ، وجانين إلى حد العقل ،
وشعراء إلى حد الإسفاف . يرقدون فوق الأولب ، ويندسون في الروث ، ويخرجون منه
مرصعين بالنجوم » .

ولنتبع جثروش قليلا في أزقة باريس وهو يبحث عن عشاءه : ها هي حديقة تبدل منها
التفاح (ولقد أودت بآدم قاحلة فلم لا تنجي أخرى جثروش من الموت جوعا ١٩) ، ودون

التفاح سياج يembre جروش ، فإذا به على مقربة من زارع الحديقة ، وزارها شيخ فان .
يسترق جروش السمع إلى حواره مع زوجه المجوز ، فإذا بهما في ضيق شديد ، وإذا
بالمالك ينذرهما بالطرد ، وإذا بهذا الحديث يذهب بما يحس جروش من ألم الجوع فيتفقد
إلى جوار السياج مضجعا يأوى إليه .

ومن خلال ذلك السياج لمح طفلنا شبحين يتبع أحدهما الآخر : أولهما شيخ وقور
ومن خلفه شبح فتى خليع يرتبص به ، وما هي إلا أن وثب الفتى بالشيخ فسقط إلى الأرض ؛
وهم جروش ليرى ما حدث ، فإذا بالشيخ قد أرغم أنف الفتى ؛ وانتظر جروش ليرى بقية
المفامرة ، فإذا بالشيخ يُنهض الفتى آخذاً بتلابيبه كما يفعل قط بفأر ، وإذا به يعضه وعظا
طويلا يفهم منه جروش أنه لا تستقيم الحياة بشر جد وإلا انتهت بناهب السجون أو دماء
المقاصل ، ثم يدفع الشيخ محفظة تهوده إلى اللص ويخلى سبيله .

لم يرق جروش ما رأى ، وإذا به يتسلل في الظلام خلف اللص حتى يأتيه واللص
لا يشعر بوجوده ، ثم يضع يده في الجيب الذي به المحفظة ويعود بها حتى يقترب من موضع
مضيفه الشيخ خلف السياج ، فبرى بالمحفظة إلى الحديقة ويعود ملء أرجله ، وقد نسي جوعه
ونسي مخدعه ، ولكنه فرح منتبها بتلك البطولة الساذجة ، لأن مزاجه مزاج فنان ، وما
يعنيه من بعد ذلك شيء ، وما يريد أن يعرف عما ارتكب شيئا من أحكام البشر . هل ما آناه
يعتبر خيرا أم شرا ؟ هذا ما لا يعنيه ، وما أظنه قد ساءل نفسه يوما سؤالا كهذا ، لأنه
كما قلنا لا يعرف للشر أو الخير معنى ، ولا يأتي أيهما عن حساب أو تقدير ، وإنما هي طبيعته
تسوقه إلى ما يفعل وفي قلبه هذا جمال لا شك فيه .

لقد بقي في الطرقات طفلان مشردين أصفر منه سنا وأضعف قوى ، فيبسط عليهما
حمايته ، ويقودهما إلى حيث يجد لهما قليلا من الخبز ، أو يمهدهما مضجعا إلى ساق تمثال
نابليون ، مستعينا بما يسرق من أخشاب سياج حديقة النباتات ؛ حتى إذا أوبا إلى مضجعهما
خف في ظلام الليل ليساعد مجرما على الهرب من السجن ، والمجرم أبوه والطفلان أخواه ،
ولكنه لا يعلم عن ذلك شيئا ، ولو أنه علم لما تغير موقفه ، لأنه يأتي ما يأتي للجمال ما يفعل
في ذاته ، وما للخير أو الشر في نفسه أي اعتبار .

ويعود طفلنا عند الصباح ليوقظ طفليه اللذين يعتبر نفسه قواما عليهما ، ويترنم أن
يبصرهما بالحياة ، وأن يقوم على تشبهما ، فيقتادهما معه وسط الطرقات ، ولكنه يفقد
في ازدحام ليلقاء ، فيأسف أشد الأسف ، ولا يجد عزاء عما فقد إلا أغنية ساذجة يردد

مقاطعها خلال الأزقة المظلمة .

كل تلك العناصر قصيرة الباع ، لا تظهر ما بنفس هذا الطفل الخيرة من غنى ؛ وأما اليوم الذى تجلت فيه ثروته الروحية فكان يوم ثورة سنة ١٨٣٢ .

فى ذلك اليوم كان جفروش عائداً من إحدى ضواحي باريس ويده غصن مكمل بالأزهار ، وإذا بروح الثورة تهب ، وإذا به من رجالها فيلقى الطفل غصنه من يده ، ويسرع إلى مخزن أسلحة يختطف منه طبنجة واعدأ بردها ، ويعدو إلى قلب باريس ، ولكنه يلاحظ أن الطبنجة بغير زناد ؛ فليكن ، وليمد طفلنا وسط الجموع صاحباً مهللاً ، وليتغن بالرسيز مع التفتين ، وليخطب من حوله : « لا عليكم ! إن رجلى اليسرى ألمت شديداً ، ولقد قسا بى الرومازم ، ولكنى مسرور أيها المواطنون ؛ وما على الأعيان إلا أن يستوتقوا من مواضع أقدامهم . من هم أفراد الشعب ؟ كلاب ! ليكن ؛ ولكن ليحترموا تلك الكلاب . آه ! ليت هنا زناداً . قد آتيت من ظاهر المدينة حيث النار تضرم والقلوب تنفلى . آه ! لقد حان الحين لنقطف زبد الصدر » .

وفيا هو سائر لا يلقى رجلاً إلا حثه على السير إلى القتال ، وإن يكن الحزن قد تسرب إلى نفسه دقيقة عند ما نظر إلى سلاحه قائلاً : « سأنطلق إلى المركة وإن لم تنطلق منك رصاصة » .

وفيا هو كذلك إذا بمجموع الطلبة الثائرين يملون وعلى رأسهم زعيمهم « إنجولرا » Enjolras ، فينضم إليهم ، لأنه يعرف أنهم يملون إلى أين يسرون . خف فى مقدمتهم ، وسلاحه الخرب بيده ، والأفانى لا تقادر شفتيه ، حتى وصلوا إلى حانة قرروا أن يتخذوا منها مقرهم ، وأن يقيموا أمامها حواجزهم ؛ وبأخذ جفروش على نفسه إنجاز تلك الحواجز .

« ها هو يندو ويروح خفيفاً مرحاً . ها هو يصعد وينزل ، ويصيح ، ويغنى ويؤبى ، حتى لكأنه خلق ليث الشجاعة فى نفوس الجميع . عجيباً ! أى باعث كان يحفره ؟ وأى أجنحة كانت تغيره به ؟ لقد كان باعته ما عانى من بؤس ، وكانت أجنحته ما يفيض به قلبه من فرح . لقد كنت تراه بغير اقطاع ، وكنت تسمع صوته فى كل لحظة . لقد كان وجوده يملأ الفضاء حتى لكأنه فى كل مكان . كنت تراه بأعلى الحواجز يدفع التسكين ، ويحث للتكاسلين ، ويبعث النشاط فى التعيين ، ويقلق التأملين . يثير فى البعض النشوة ، وفى البعض الغضب ، وفى الآخرين الجهاد ، كما يدعو الجميع إلى النشاط . يمزج طالباً ، ويمض عاملاً . يقف ويسير ، ويستأنف السير متنقلاً بين هؤلاء وأولئك ، يتمم حيناً ، ويطن

أخرى . ثم لا يقف جهده عند ذلك الحد ، بل يحاول أن يشترك في المعركة ، فيرى بسلاحه الخرب إلى الأرض ، ويأخذ ببندقية أقل منه وزناً ، ويقدح الزناد ، فإذا بالبندقية فارغة ، وإذا بوجهه يتقلب امتعاضاً . ولعل هيجو لم يشأ أن يجمل منه سفا كاللحماء . ويرسله أحد الثوار بمخاطب إلى فتاة ، فيطيع ، وينتهزها فرصة سانحة ليحطم بالحجارة ما يليق من مصاييح ، وهو في أثناء ذلك ينفى بصوته المرتفع وسط الشوارع المظلمة ، ويمر في أثناء سيره بعربة يد يدفعها جمال ثمل ، فيأخذها منه ، ويسوقها أمامه فوق الحجارة في ضجة تسترعى انتباه رجال البوليس ، فيسرعون إليه فيدفعها في أرجلهم ، ويولى الأدبار كدخان تبدد ، ويعود إلى الحواجز ليحضر المعركة الخامسة ، فإذا بالإخوان الثوار قد نفدت ذخائرهم . يرى ذلك فيأخذ لساعته سلة يمر بها الحواجز إلى حيث تتمدد جثث الموتى من الجند يفرغ جسمهم ، وما زال ينسل من جثة إلى جثة ، والجند يصوبون إليه رصاصهم دون أن يصيبه أذى ، وهو يحاورهم ويداورهم ، مخفياً وراء جثة ، محتمياً بمصرع باب ، وكلما رقت رصاصة بجوار أذنه غايظ من أطلقها بحك إصبعه على أنفه ، والحواجز تهتز ، وصوته لا يسكت عن السناء ، حتى حم القضاء وأصابته رصاصة أقعدته والهم يسيل فوق وجهه ، فرفع ذراعيه إلى السماء ، وأدار وجهه إلى الجهة التي أتته منها الرصاصة وهو ينفى : « لقد سقطت إلى الأرض وتلك غلطة فوثير . لقد سقطت بالقناة وتلك غلطة ... » .

ولم يتم أغنيته ، إذ أنه رصاصة أخرى خر منها صريعاً وجهه على الأرض ولا حراك به . وهكذا قضت روح ذلك الطفل الكبير ، وقد اجتمعت بنفسه قوة الثورة على الظلم إلى جوار المرح والسخرية من آلام الحياة .

هذا هو جثروش كما تعرفه باريس في أطفالها الذين قد لا يعرفون للأخلاق قواعد ، ولكنهم يصدرون عما هو أسنى من الأخلاق : عن صفاء في النفس ، وحرارة في القلب ، وإيمان في الحياة ينشر على شفاههم ابتسامة أبدية الخلود .

هذا هو جثروش كما يعرفه كل الفرنسيين وكل من يتكلم الفرنسية ، حيث خللت اللغة هذه الشخصية الأصيلية الجذابة ، بأن أدخلتها بين مفرداتها كاسم ذات وكصفة ، وهم يدعون الرجل « جثروش C'est un gavroche » ، كما يصفونه بتلك الروح التي صورنا « il a l'esprit gavroche » . وليس بعد ذلك دليل على خلود هذا النموذج البشري بين ما خلق الأدب من نماذج .

ولكم يذكرني جفروش هذا بهيجو خالقه وقد ظل طفلاً حتى آخر عهده بالحياة ،
ولكم يذكرني برينان الذى قال عنه أحد النقاد فأصاب القول : « إنه كان يفكر كرجل ،
ويحس كامرأة ، ويتصرف كطفل » . وهكذا شأن كل من تميز بين البشر ، فما يجوز
أن نخضعهم لأحكامنا الوضعية المتواضعة . وحياتهم منطق لا يفهمه إلا من يضارعهم .
وأما نحن فلنخضع لما تولى علينا الجماعات التى ننتمى إليها ؛ وإن كان لنا أن نحذر أحداً
فليكن ذلك الحذر ممن يتشددون بكلمات الخير والحق ونفوسهم أصغر من أن تحتوى معانى
تلك الألفاظ الجميلة .

فيجارو

Figaro

لست أدري إلى أى حد يصح ذلك الرأى السائد عند المفكرين ، من اعتبار السخرية قفزات من الذكاء لا تمت إلى القلب بصلة ، ومنها ما يقطر دماً ؛ ولكم من مرة لا يجد المرء سبيلاً إلى الانتقام من آلام الحياة غير ابتسامة عابرة أو حكم ضاحك ! ولكم من مرة اهتزت النفس انفعالاً من حركة لـ « تشيلن » أو قهقهة منه ! ومن عجب أن يضحك المرء ويُحزن ! ومن عجب أن يفتّر القم وينقبض القلب ! وفيجارو كتشيلن من أولئك الذين تحمل ضحكاتهم فيضاً من الأسى يكاد يلهب منا القلوب .

فيجارو من رجال سنة ١٧٨٠ الذين مهدوا للثورة الفرنسية ، وقد خلقه مؤلفه في زمن كان الفلاسفة قد أيقظوا في الشعب ذلك الإحساس بالبؤس الذى حرّره من كل ظلم ، وأجذت الثورة تضطرم في قلوب الرجال ، وكان لا بد لها من متنفس . وكيف السبيل والبستيل لهم بالمرصاد ، والفرنسي رجل حتى الطبع لا يطيق صبراً على ضيم ، وهو من يقظة النفس بحيث لا يستطيع أن يملك لسانه عن الحكم على ما يرى من فساد ، ويرجو من خير ؛ وإذا فلتكن السخرية سبيله ينفث فيها مكثون نفسه ، فينال ما يريد دون أن يترصص لهلاك محقق .

سخرية فيجارو إذاً ليست دليل جفاف في نفسه ، وإنما هي انتقام مر من نظام بلغ من فساد أن كان الشعب يسعى إلى هدمه دون أن يفكر فيما يريد أن يقيم على أنقاضه من نظام ؛ وعندما يلجم الظلم السنة الرجال لا يجد ذوو الإياء منهم سبيلاً غير تلك السخرية التى لا تعرف سلاحاً أمضى منها بين أيدي الشخصيات القوية .

وفيجارو شخصية نادرة المثال في إبائها . ولنستمع له وهو الخادم يخاطب سيده :

السيد — أيها الكسول الخبول .

فيجارو — سيدى ! دعنا نحصى الفضائل التى تُطلب من خادم ولننظر بعد ذلك .

الآن يعرف سيدى أسبداً كثيرين جديرين بأن يكونوا خدماً .

هذا هو فيجارو يرتدى ملابس الخدم ونفسه أعز من نفس الأسبدا . وما ولد فيجارو خادماً ، ولقد قلبت به أحداث الحياة ، ولو أنه أراد لوصل إلى ما وصل إليه چل بلائ

« Gil Blas »^(١) من قبل ، ولكنه أبى النفس يرفض أن يميل مع الرياح ليمر على عنقه رجال حابهم الأقدار على غير فضل فيهم ، أو رفضهم حتى البشر فوق ما كان يجب أن يبقوهم اتضاع نفوسهم .

ولد فيجارو ابناً طبيعياً لطيب وخادمته ، وتخلّى عنه أباه وسط أمواج الحياة ، فزاوّل الطفل كل المن احتيالا على الحياة العشوم ، وبخاصة مهنة « الخلاقة » ؛ وبلغ من نجاحه في تلك المهنة أن أصبح كل حلاق الأرض يحملون اليوم ذلك الاسم . ولقيه المؤلف بومارشيه (Beaumarchais) ، وقد سمّ مهنته ، ومنذ ذلك اليوم أحبه فصاحب خطاه في الحياة وقص علينا نبأه في روايات مسرحية ثلاث : « حلاق أشبيلية » و « زواج فيجارو » و « الأم الجانية » . وقد مثلت الروايات الثلاث تباعاً في سنى ١٧٧٥ و ١٧٨٤ و ١٧٩٠ . ومرت السنون وفيجارو يجالّد الحياة وهو هو ذلك المرح الصاحب اللبى يلتبس في كل ألم جانبيه المضحك . وانصرفت الأيام وكل ما فيها من ألم لا يستطيع أن يخلف في نفسه غير ابتسامة هازئة . وأما الندم فما كان يعنى بأمره ، وما له من سلاح غير تلك السخرية يرسلها سهماً لمن يحسه بسوء فيبلغ ما يريد من خصمه دون أن يترك جراحاً ظاهرة .

ها هو « حلاق أشبيلية » يقفز إلى المسرح وكأنما يعلو منبراً ؛ وها نحن نراه أول ما يبدو في أحد شوارع أشبيلية ، وقد علّق في ظهره قيثارة بشرط عريض من الحرز . وها هو يثنى في مروح ويديه قلم وورقة ، وها هو يوم نفسه أنه قادر على كتابة أغنية يشيد فيها بالخير والكسل اللذين يقتسمان قلبه ؛ وها هو يعثر مصادفة بالكوث المافيقا أحد زبائنه القدماء فيقص عليه ما كان له من أحداث كسبي بصيدلية ، وكمثل مسرحى ، فيسأله الكونت : لماذا ترك مدريد ؟

فيجارو : هو طامى السعيد — يا مولاي — قادى إلى حيث ألتاك . لقد رأيت في مدريد جمهورية الأدياء ، وقد أصبح بعضهم لبعض ذئباً ضارباً فسمت الكتابة ، ومالت نفسى وضقت ذرعاً بالآخرين ، وقد ثقلت دوى وخف جيبى ، فاستقر رأيى على أن أدخل « المرمى » أجدى على من مجد باطل أصيبه بقلى . وتركّت مدريد لأجوب متألاً قشتالة والمانس والأندلس ، يرحب بى قوم وزج بى فى السجن آخرون ، ونفسى أبنا حلتّ تخلف فوق أحداث الحياة ، يلومنى قوم ويمتدحنى قوم ، أنعم بما أصيب من خير ، وأصبر على ما ينزل بى من عن ، ساخرأ من الحق مناهضاً الأشرار ، أنحك من بؤسى وأقص ذقن كل

(١) جلد رواية من تأليف Le Sage لساج وصل إلى السلطة بمرورته بل وضعه بادئاً من العدم .

من ألقى ، حتى استقر رأي على المسير إلى أشبيلية ، حيث أنا الآن على أتم أهبة لأن أخدم مولاي فيما يسره أن يأمرني به .

الكونت — ومن أين لك بتلك الفلسفة الباسمة ؟

فيجارو — من مصاحبة البؤس يا مولاي . تراني أسارع إلى الضحك من كل شيء خشية أن تساقط مني الدموع .

واستعان الكونت بمواهب فيجارو ليصل إلى ما يريد من الزواج « روزين » ؛ وكانت روزين بنتاً جميلة تنبأها شيخ فان ؛ وكان الشيخ ينار عليها كما ينار من ملابسه ؛ وفيجارو « حلاق صحن » أشبيلية ، فالسبيل أمامه مهيّدة ليحمل إلى روزين رسائل الكونت ، وفيجارو واسع الحيلة يستطيع أن يسخر من الشيخ ومن الخدم ، وأن يحضر المأذون ويقعد الزواج ؛ وقد أصبح الكل ألموبة في يده يسخر منهم ويضحك الحاضرين ما اتسمت أشداقهم لضحك ، وهو في كل ذلك كنسخت الریح بحسبها ولكن لا تستطيع لها لسا . وإنه لأهون على من يريد أن يسك بنفمة من قيثارة فيجارو من أن يسك بالرجل وما لشخصه من وجود عس أكثر مما لأغانيه التي تشيع في الفضاء ، تراه في المنزل وما تدرى من أين دخل ، تفلق الباب فيأتيك من النافذة — محسبه بالداخل بينما هو في الخارج . أليس هو فيجارو مضرب المثل في الخفة والمهارة ! أليس هو فيجارو الذي يعرف كيف يستفيد لا من أغلاطه هو فحسب بل ومن أغلاط الآخرين ؟ وهل يضيف من نفوسنا غير الألم ، وهل يجد من حيلتنا غير المهوم التي لا نعرف كيف نسخر منها ؟ !

وجازى الكونت فيجارو على ما أسدى إليه من يد ، فأخذ خادماً له . ويعود بطلنا إلى الظهور على المسرح في « زواج فيجارو » ، وقد صمم على الزواج من « سوزان » خادمة الكونت ، وكانت الواقعة في ذلك الحين قد بلغت بالأشراف مبلغاً ما كان فيجارو يستطيع معه صبراً . كانوا يدعون لأنفسهم حق قضاء أول ليلة مع عرائس أتباعهم ، ومن يريدون من خدمهم ؛ وكانت سوزان من الجمال بحيث أغرت الكونت باستعمال هذا الحق . وجن جنون فيجارو ، فلاق واقحة الكونت بواقحة ، وثار كل ما في نفسه من حرارة ، وأحس بالطننة توجه إلى صميم قلبه وقد اكتملت قواه بمرور الأيام ، فإله لا يستخدم السخريّة التي لم تخنه يوماً ما ؟ وحركت بنفس زوجة الكونت تلك القوة الهائلة ، قوة الفيرة التي تكسب النساء جرأة ما لها من دافع ؛ واتفقت الزوجة مع خادمتها على أن تنسكرا ، كل في زى الأخرى ، وأن تذهب الزوجة في زى سوزان للقاء الكونت في المكان والزمن المتفق عليهما ؛ وفيجارو في أثناء ذلك لا يبي عن السخريّة والضحك وتدير الخطط ، حتى يوقظ شكوك الكونت .

الكونت - لماذا يلوح على كل ما تفعل شيء من اللتواء ؟
فيجارو - لأن من يلتمس عيوباً عند الغير يستطيع دائماً أن يجد ما يريد .
الكونت - وصمتك التي لا تساوى شيئاً ؟
فيجارو - ولكني أساوى أكثر من سمعتي ؟ وهل يعرف مولاي كثيرين من
الأشراف ممن يستطيعون أن يدعوا ما أدعى الآن ؟
الكونت - كثيراً ما رأيتك تسير نحو النجاح في الحياة ، ولكنك لا تسير أبداً في
طريق مستقيم !
فيجارو - وما ذنبي ، والطرق دائماً مكتظة ؟ ! هذا يعدو ، وذلك يدفع ، يسقط من
يسقط ويصل من يصل ، إنني لفي غنى عن هذا الزحام .
الكونت - بشيء من الذكاء والخلق تستطيع أن « تترقى في اللواوين » .
فيجارو - شيء من الذكاء لأترقى ؟ لا شك يا مولاي أنك تسخر بكلامك هذا من
ذكائي . إنما الترقى بالعبادة والزحف .
وهكذا يظل فيجارو يحاور الكونت ويداوره ، كما يحاور ويداور كل من يلقي حتى يكون
يوم زواجه ، ويخيل إليه وقتاً ما أن عروسه قد ذهبت للقاء الكونت ، فتحتفي الابتسامة
من شفتيه ويتقطب جبينه ، وقلوب الحاضرين تحوطه جميعاً بحاراتها وعطفها .
هنا نحن تحت أشجار القسطل في ظلام الليل ؛ وها هو فيجارو وحيداً مجهداً ، يقص
علينا آلامه ويشكو ظلم الحياة بعد أن نفذ صبره ، وأصابته السهام شفاف قلبه ؛ هاهو فيجارو
يصيح غيرة على عروسه التي يحب .
« لا . لا يا سيدي الكونت ، ألا أنك سيد كبير تحسب أنك عبقريه فذة ؟ المولد والثراء
والوجاهة الاجتماعية - كل هذا يفرى بالكبرياء . ولكن ماذا فعلت لتتال كل تلك
الخيرات ؟ لقد قاسيت آلام الولادة . أليس ذلك كل ما فعلت ؟ وأما أنا فياويل القضاء فيما
فعل بي ! ولست لأب لا أعرفه ، واختطفني لصوص نشأت على ما ألقوا من خلق حتى سمعت
الحياة معهم ، وحاولت أن أجدي مهنة شريفة ، وطرقت كل باب وكل الأبواب موصدة
أمامي . لم يستطع الناس احتقار الذكاء ، فانتقموا لعجزهم بالإساءة إلى من وهب ذلك
الذكاء وزج بي في السجن حتى ملوا إطعام رجل ممنور مثلي ، فألقوا بي
إلى الشارع ، وكاد اليأس يأتي علي . ثم وجدت مركزاً خالياً ، كان المطلوب كاتب حسابات
فتقدمت إليه ، ولكنهم أعطوه لرقاص . فلم يبق لي إلا أن أسرق ، ولكن كيف السبيل
وكل من حولي يسرق ما استطاع ؟ ولكنهم يطلبون إلى أن أكون أميناً ، وإذا فليس لي أن

أموت جوعاً وأخيراً أخنت حقيقتي ومواسي ، وظلّفتُ الدخان ورأيتُ يتنذى به الحقى ، وأما الخجل فقد طرحته في منتصف الطريق ، لأنه أثقل من أن يحمله من عيشي على قدميه ، وسمرت أحلق من بلد إلى بلد ، وقد استطعت أخيراً أن أخلص من هموم الحياة المادية . لقد دفعت إلى الحياة بغير علم مني ، وسأعدها دون أن أريد ، ولكنني نثرت على جوانب ما سلكت من سبلها الوعرة كل ما استطاع مرعى من أزهار .

وحزن الحاضرون لحزن فيجارو ، ولكن الموقف لا يلبث أن ينجلي ، فلذا زوجة الكونت هي التي ذهبت للقاء زوجها . وأما سوزان عروس فيجارو فتخف إلى زوجها ، والكل مفتبسط بانتقام ذكاء فيجارو من وقاحة الكونت .

وتسفو النفوس ، ويظل فيجارو في خدمة الكونت هو وسوزان ، وتتقدم فيجارو السن ، ويخلص لمارثا سيدة في « الأم الجانية » وينجى تلك العائلة من المار ؟ ولكنه لم يعد فيجارو كما عهدناه ، لم يعد رمز ذلك الشعب الأبى الذي تار على ظلم وأبى أن يستسلم لوقاحة أولئك الأشراف الجرمين ؛ لم يعد ذلك الشجاع الساخر الذي يجالذ الألم ويصمد لكل يؤس ؛ لم يعد نداء موتسكيو وروسو وديدرو وفولتير وغيرهم ، ممن قوضوا بالسخرية اللاذعة نظاماً كان لا بد من زواله ، ليستطيع من وهبهم الله حرارة في قلوبهم ، وذكاء في رؤوسهم من أبناء الشعب ، أن يعيشوا في جو حر أبى لا تستقيم الحياة بدونه .

ولهذا تقف من تصوير فيجارو عند هذا الحد لنتركه في ذهن القارئ مثلاً حياً لبلوغ ما يستطيع أن يسمو إليه الفرد من عزة نفس مهما اتضعت به حماقات الهيئة الاجتماعية الفاسدة التي حكم القضاء أن يعيش فيها .

فيجارو أتمودج بشري خالده لأبناء الشعب الذين لا يطمئن من كبريائهم ظلم ولا يوزمهم سلاح ؛ فإن لم يكن التنف فلتكن السخرية .

فيجارو رمز ثورة مجيدة ، حررت البشر من قيوده ، وفتحت أمامهم آفاقاً من الحرية واحترام الإنسان لأخيه الإنسان ، لا تزال إلى اليوم نلح في جوانبها أجل الأحرار .

لقد فعل فيجارو في الثورة الفرنسية ما لم يفعله الحديد والنار ، وتلك أسلحة الأبدى أما فيجارو فكان ولا يزال سلاح النفوس .

فيجارو روح خالدة لأنها كعقوى الطبيعة التي لا تندفع . فيجارو من روح الله لأنه رمز الشعب ، ذلك الشعب الخامل الذي ذكر المهضوم الحق ، ذلك الشعب الذي لا يريد أن يستجدي أحداً ، وإنما يطالب بحقوق لا بد أن ينالها يوماً ما ، ذلك الشعب الذي يشكو من نظام فاسد لا بد أن يقيم على أقاضه نظاماً أصح .

دون كيشوت

Don Quichote

يحكى أنه كان بيلاد اليونان عملاق جبار اسمه « أنثيه » لم يستطع بطل من الأبطال أن يثبت له في نزال ، حتى ضجت الإنسانية من بطشه ، وحتى ضرع البطل المشهور هرقل إلى أبيه زيس كبير الآلهة أن يدلّه على وسيلة يقهر بها ذلك المارد الخيف ؛ واستجاب زيس لضراعة ولده ، فكشف له عن مصدر قوة « أنثيه » ؛ قال : « أى ولدى هرقل ! إن أنثيه ابن لجيه (الأرض) ، فما دامت قدماء مستوقتين منها ، فلن يقهر أحد ، لأنها تمتد بقوتها ؛ فما عليك إن أردت قتله إلا أن ترفعه عن الأرض ثم تجهز عليه » . ورفع هرقل « أنثيه » بيد ، وطلح برأسه باليد الأخرى ، فخطصت الإنسانية من شروره . وهكذا نحن في الحياة ، لا بد لمن يريد أن يظفر منها بما يسميه جبهة البشر نجاحاً وقوة أن يستوثق من الأرض بقدم ، وأن يلبس الواقع عن قرب . وأما المثاليون الذين يرفضون أن تدنس الأرض أقدامهم ، فثلهم لنكد الطالع كمثل أنثيه وقد رفع إلى الفضاء ، ما تلبث السيوف أن تذهب برؤوسهم .

عن مغزى تلك الأسطورة القاسية تخضعت حياة سرفنتيس الكاتب الأسباني الذائع الصيت ، خالق دون كيشوت (١٥٤٦ — ١٦١٦) . فقد امتلأ خياله منذ طفولته ، كما امتلأ خيال دون كيشوت بكل ما قرأ في قصص الفروسية ، حتى لم تعد أحلامه إلا سحراً ومعارك ، وتحدياً وقتالاً ، وجرواحاً وصيحات غرام وعذاب ، وما إلى ذلك من خوارق الأمور ، وتمكنت تلك الأحلام من نفسه حتى نزلت منها منزلة الحقائق الثابتة ، وحتى لم يعد تاريخ العالم في نظره سوى سلسلة من تلك المغامرات . ولكم قمقت أسلحة « رولان » بنفاوز الجبال ، ولكم نشرت قلاع « بروس » الرعب على صفحات المياه ؛ فاله لا يفاخر كما غامروا ، وماله لا يلتبس المجد بحد السيف كما التمس من قبل أبطال ؟

وشاءت الأقدار أن يفشل سرفنتيس في كل مراحل حياته : حارب في البر والبحر من أجل أسبانيا ومن أجل المسيحية . حارب بإيطاليا وتونس والبرتغال . وفي سنة ١٥٧١ شهد تلك الحركة الدامية التي شنها المسيحيون ضد الأتراك في « ليبانت » بمضيق كورنثا بأرض اليونان ، وخرج من القتال وبصدره طعنتان داميتان ، وذراعه اليسرى مشدودة إلى عنقه ؛ وأقعدته

الحى سبعة أشهر بصقليا ، حتى إذا أبل من مرضه ، واستقل سفينة ليعود إلى وطنه ، سقط بين أيدي قراصنة البحر يقودونه إلى الجزائر حيث يظل أسيراً أربعة أعوام . وأخيراً ساقته إليه الأقدار من بنى وطنه من اقتداه بثمان غال . وعاد إلى أسبانيا ، ولكن البؤس لم يفارقه . فكم من محاجة ! وكمن أيام قضاه بالسجن لذنوبه ولفنير ذنب ! وحتى مجد القلم لم يستطع أن يناله ، فروايته التمثيلية لم تنصب ما أمل من نجاح ، وشعره الفنائى لم يلق آذاناً مصغية .

لقد كان من حق سرفنتيس أن يتنكر للحياة ، وأن يمود من أحلام صباه ليستوثق من الأرض بقدم ، وقد ألفت عن الأيام في نفسه بنور الشك ، فاستحالت آلامه سخرية من آلامه التي طوحت به في كل مذهب ، ولكنها سخرية لا تزال تحمل ما كان بتلك الآمال من عذوبة . ومن منا لا يحس في نفسه بتلك الحقيقة الإنسانية اللاذعة ، وهي أننا مهما تنكرنا لأحلام شبانا ، ومهما سخرنا مما كان فيها من طيش ، لا نملك إلا أن نحنو عليها ، ونزفق بها ، كما نحنو ونزفق ببعض نفوسنا .

دون كيشوت ورضل أحلام الشباب ، وأي سحر أفضل في النفس من تلك الأحلام ؟ لقد تذهب أحداث الحياة بتلك الآمال المذاب التي يقوم عليها صباها كما كانت تقوم المذارى على النيران المقدسة بمعابد الآلهة بمسكن ضرامها عن أن يخبث . ولقد تنقطع أوتار القيثارة ، فلا تعود تملأ نفوسنا بنغماتها الساحرة ، ولكن النار لا بد مخلفة رماداً مقدساً ، ولا بد للألحان من رجوع في النفس نحن إليه كلما عادت بها الذكرى من ثنايا الماضي الجميل .

وهل أدل على نبل أحلام الشباب وسحر جمالها من أن تنصطب في نفس صاحبها فيسخر منها ، وإذا بتلك السخرية الرفيعة الحزينة تأتي بأروع تحقيق لتلك الأحلام ؟ لقد كان سرفنتيس يبني المجد بمجد السيف أو بسنان القلم ، ونخاته الأقدار ، وخيل إليه أن تلك الآمال لم تكن إلا نزقاً مضحكاً ، فاتخذ من دون كيشوت رمزاً لشبابه ، وقص ما كان له من مفاصل جنونية ، فأصاب دون كيشوت الخلود ، وأصبح اسم سرفنتيس على السنة الإنسانية أنى ذهبت : يقرأه الأطفال فيلهون بما فيه من قصص ممتع ، وقرأه الرجال ففتر شفاههم وتنقبض قلوبهم لما خلف هذا البعث الظاهر من مأس ؛ وحتى الشيوخ تراهم يجمعون الأطفال من حولهم ليقصوا عليهم نبأ ذلك الفارس الجوال الذى لن يفرغ البشر من فهمه وتخرجهم أفعاله وأقواله كل مخرج . وقد بلغ من غنى تلك الشخصية أن أصبح دون كيشوت رمزاً لكل معنى : فمن قائل إن هو إلا مجنون يحيل إليه خيله أنه موكل بأتمام البشر بمحاول لها إصلاحاً ، فترد إليه ضرباته إن لم يضرب في غير مضرب . ومن قائل إن هو إلا مثالى عنيد

لا يزال يصطدم بحقائق الحياة المرة حتى يسلمه الفشل إلى الفناء . وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه على وجهه فهم الشباب الذين يحسون بفيض من الحياة أنه ليس من الضروري أن نتجسح لنجاهد في سبيل مثل أعلى نؤمن به ونفنى دونه ، لأن الجهاد غاية نبيلة لذاتها ، ومتى احتاج النبل إلى ما يعززه من نتائج ؟ وأما سرفنتيس فيكفيه مجداً ألا يرى اليوم طفل أو شاب أو شيخ حصاناً هزيلة محطاً إلا صاح : آه ! روسنانت . وروسنانت حصان دون كيشوت الذى رفعه بطلنا من مرتبة خيل الفلاحة إلى درجة جياد الفرسان عندما انمقد عزمه — أو جنونه إن أردت — على أن يجوب بقاع الأرض ليصلح ما بها من شرور .

وذلك أن دون كيشوت لم يكن في بادئ حياته ذلك الفارس الجوال الذى خلفه سرفنتيس في عقولنا . لقد نشأ دون كيشوت كما نشأ سرفنتيس بمقاطعة المانش بأسبانيا . نشأ فلاحاً متواضعاً إلى أن حفزته قراءة قصص الفروسية إلى أن يحى عهد هؤلاء الأبطال . ولقد كانت للفروسية إذ ذاك مواضعها ، فلا بد للفارس من أسلحة ، ولابد له من جواد كريم ، حتى إذا اجتمع له طلب إلى أحد الفرسان القدماء أن يقيمه فارساً في حفل ستقص مراحلها عما قريب . والفارس لا يحيا لنفسه ، ولا يجد ما يحفزه إلى البطولة خيراً من فتاة يجملها مستقر حماسته ومعبأ أفكاره ؛ فكيف السبيل إلى كل ذلك ؟ الأمر هين : بحث دون كيشوت في زوايا منزله المتواضع ، فثر الحسن الطالع على أسلحة قديمة بمخزن غلاله ، فاستلها منه ، وأصلح ما بها من عيوب ، وأزال ما عاها من صدا . وأما الجواد فأمره أهون ؛ وقد بلغت حكمة هذا الفارس المجنون أن فطنت إلى أن حقيقة الأشياء كثيراً ما تقف عند مسمياتها ، وإذا فليعط حصانه الهزيل اسماً جميلاً نبيلاً ، فإذا به « روسنانت » الجواد الكريم ، وأى جواد حمل اسماً أجمل من هذا ، وروسنانت ؟ وهب أن الاسم لا يلاقى المسمى ، فاعلى دون كيشوت من ذلك ! وأغلب قيم الحياة مواضع لا تفهم من حقائقها شيئاً ! وأما الفتاة وما يجب أن يتوفر لها من نبل في المحدث وسحر في الجمال فالأمر عنده لا يمدو مجرد إيمان من يجب بما تحيل إليه نفسه الطوف من قيم بحبوبيته ، وإذا فليتحذ دون كيشوت له فتاة رقيقة ساذجة لم يرها في حياته قط ، وليعطها اسماً من أسماء الأميرات ، وليشد بجملها وتبليها أينما حل . لتكن فتاته « دولسينيه دى توبوزو » ، ولأح له أن في هذا الاسم من جمال الجرس ونبرة الوقع وجلال المعنى ما يتفق مع اسمه هو « دون كيشوت فارس المانش » .

ها هو دون كيشوت مسلحاً على ظهر روسنانت جواده الكريم ، وها هو يستأنف شوطه في الحياة ، ولتكن أولى منامراته حفل تنصيبه فارساً . سار في يومه الأول حتى انتهى

إلى فندق بالريف ، خيل إليه أنه قصر منيف ؛ فأجبه إلى صاحبه ، وأخذ يخاطبه كشریف يخاطب شریفاً ؛ وكان صاحب الفندق من الخبيث — رغم بلادة حسه — بحيث قبل منه أن يقيمه فارساً ، وأدخله إلى فناء فندقه ، حيث مضى المسكين دون كيشوت ليله قائماً إلى جوار أسلحته التي عقدها في حزمة إلى حافة بئر هناك . حتى إذا أتى الصباح أمّاه صاحب الفندق ، ويبيده « دفتر حساباته » ، وتظاهر بأن يقرأ فيه صيغة القروسية ، ثم ضربه بمسطح سيفه ، وصاح به أن اذهب فأنت فارس .

خرج دون كيشوت من الفندق فارساً أصيلاً ، وقبله إيمان ثابت بما خلقته من أجله الأقدار ، وهو إصلاح ما في العالم من شرور ، ولم يكذب بخطوة عنة خطوات حتى رأى فلاحاً قد شد خادمه إلى جذع شجرة ، وأخذ يوجه ضرباً لأنه طالب بأجره . أثار هذا المنظر شهامة دون كيشوت ، خف إلى الرجل وأرغمه على أن يفك وثاق الخادم ، وأخذ عليه عهداً ألا يعود إلى ما ارتكب من ظلم . ولكنه لم يكذب بتخطي « روسنانت » ، وبواصل سيره حتى عاد الفلاح فشد وثاق الخادم وعاد الظلم إلى مجراه . وهذا مثل مما أومر به دون كيشوت نفسه من إمكان رفع الظلم عن المظلومين .

وباليت الأمر قد وقف عند هذا الحد ، ولم يمتد الأذى إلى شخص دون كيشوت نفسه ؛ فلما جرت عليه أحلامه شراً مستطيراً . لقد كان من واجبه — على الأقل في نظره هو — أن يدافع عن فتاته ، وأن يحمل كل من يلقي من فرسان على الإقرار بأنها أجل وأنبل من تقل الأرض ، وإلا فكيف يقبل أن يكون في الوجود فتاة خيراً من فتاته ؟ فضلاً لم يلبث أن لقي جماعة من التجار في طريقه ومن خلفهم خدمهم ، فحسبهم لجنونه فرساناً جوالين مثله ، فاستوقفهم ، ومحمد أن يلدوه على فتاة أجل من « دولسينيه » . فقال أحدهم : « أيها الفارس الكريم ! لسا نعرف دولسينيه فتاتك تلك ، أرنا إياها فإن وجدناها على ما تزعم من جمال حكمتنا لك بما تريد » . فأجاب دون كيشوت : « وأي فضل يكون لكم ، وكل ما استفعلونه عندئذ سيكون الاعتراف بالحقيقة الراهنة ؟ إنما المهم هو أن تشهدوا بهذه الحقيقة دون رؤيتها وأن تملنوا تلك الحقيقة ، وأن تقسموا بإيمانكم بها ، وأن تدافعوا عنها ضد كل إنسان » . هكذا أراد دون كيشوت ، ولكنه لم يستطع حمل هؤلاء الرجال على ما أراد ؛ فهجم عليهم « بروسنانت » ، وزلت قدم الجواد فسقط الفارس على الأرض ، وأشبعه أحد الخدم ضرباً ، وبقي دون كيشوت على الأرض متثراً بأسلحته لا يقوى على النهوض ، حتى خف إليه أحد

الفلاحين من معارفه ، فأنهضه وقاده في حالة يرثى لها إلى منزله ، حيث لزم الفراش أياماً .
يداوى جراحه .

رأته مريته وبنت أخته وأصدقائه القسيس والحلاق على هذه الحالة ، فقرروا مساعدتهم أنه لابد من إحراق قصص الفروسية الموجودة بمكتبة دون كيشوت ، لأنها هي التي أضلت عقله وأصابته بهذا المرض العضال ، وهم يظنون أنهم بعملهم هذا سيشفون دون كيشوت من هذا الداء شفاءً لا نكسة بعده ؛ ولكن أنى لهم بأن يلزموا هذا الفارس الجامح حياة مغلقة الأفاق مبتذلة الأحداث ؟ لا . لابد لدون كيشوت من الرحيل من جديد ؛ ولكنه سيحتاج للأمر هذه المرة فيأخذ معه مالاً وتاباً يسير وراءه أينما يذهب . واختار دون كيشوت تاباً له فلاحاً من جيرانه لا يقلل عن البطل شهرة . ومن يجهل « سانكو بانشا » ؟ وقبل سانكو أن يصاحب فارسنا لصداقته له ولأنه كان رجلاً طليعة بطيماً ، ثم لأن دون كيشوت وعده بأن يطميه جزيرة ليحكمها بمجرد أن يكون البطل الأمبراطورية التي يأمل أن يخضعها لسلطانه . واستأنف دون كيشوت السير ومن خلفه سانكو ، وبين الرجلين من التناقض ما بين الجنون والمقل في عرفنا . فمند ما يفرق دون كيشوت في أحلامه ، نرى سانكو عملاً بطنه أو يربط حلقة . وبينما يسهر دون كيشوت الليل الطويل يناجي دولسينيه ، نسمع سانكو ينفط ما استطاع غطيلاً ؛ ولكنه لا يخلو الأمر ، إذا ما سقط دون كيشوت عن ظهر روسنات وأشيع ضرباً ، من أن تصيب سانكو بعض لكزات ، إذ أن محاولاته الفرار لم تكن دائماً منتجة ، فكثيراً ما كان يلحق به ، وربما تخلف عن سيده قليلاً فسقط بين أيدي من لا يرحم له موجة .

ولكم كان يودى لو استطعت أن أقص على القارى شيئاً من حوارها ، ليستبين موضع الحكمة من كلام هذا الجنون ، وموضع الجنون من كلام هذا الماقل ، أو العكس ؛ ولكن أنى لي بذلك ؟ وأي جدوى من سرد ما تسخطك منها الشفاء وفي القلوب أسى عميق ؟ ثم من منا لا يذكر طواحين الهواء التي حسبها دون كيشوت عماليق فاقصص عليها بجواده فالتفته أذرعها إلى الأرض محطم الأسلح . ألا يرى مى القارى كيف بلغ من يؤس هذه النفس الخيرة أن أخذت تضرب في غير مضرب ؟ ولم يكون أسف القارى لو أخبرته أنه اتفق يوماً لدون كيشوت أن قاتل دون مسجونين حتى أطلق أيديهم من الأغلال ، ثم طلب إليهم أن يذهبوا — اعترافاً بفضلهم — إلى « دولسينيه » ليقدموا إليها « واجبات الاحترام » ، فرفضوا ، بل وضربوا دون كيشوت ضرباً مبرحاً .

حدث كل هذا لدون كيشوت وأمر منه ؛ فيكم هجر عن دفع ظلم لفساد نفوس البشر
وكم لاقى عن شهامته أسوأ الجزاء ، بل كم أضل القضاء ضرباته فضاعت عبثا — حدث كل
هذا عما لا أريد أن أحزن به القارىء ؟ ولكنى لا أملك أن أمسك القلم عن ذكر ما كان
من نزول دون كيشوت وسانكو بأحد الأشراف الحقيقيين ، وكيف أن هذا الشريف
أعطى سانكو بالفعل ضيعة من ضياعه ليحكىها موها إياه أنها الجزيرة التى وعده بها سيده ؛
وبودى لو أمعن القارىء فى النصائح الثمينة التى زود بها دون كيشوت إذ ذاك سانكو ،
فقد أوصاه قائلا :

« أى بنى ! أوصيك بتقوى الله ، فتقواه رأس الحكمة ، وما دمت حكما يصححك
التوفيق فى كل أمر . ثم اذكر دائما نشأتك الأولى لكى تفهم نفسك على حقيقتها ، وهذا
الفهم هو أشق وأنبئ ما يجب أن تتطلع إليه . احذر نزوات نفسك ، ولتتحرك فيك دموع
الضغفاء رحمة لا تقل عما تحرك شكوى الأقواء من عدل . حاول أن تثر على الحقيقة فى
ثنايا ما يمدك به الأغنياء من وعود وما يقدمون لك من عطايا ، قدر حرصك على التماسها فى
زفريات الفقراء وإلحاحهم الملل .

« اذكر دائما أن طبيعة البشر فاسدة ، وأن الكثير من آثامهم إنما مرده هذا الفساد
الأصيل ، فستدق لن تقسو على مجرم . .

ياله من جنون ذلك العقل الذى يفوه بتلك الحكم !

وأما « سانكو » فلم يطل حكمه . وكيف له — وهو الرجل الواقى الماقل — أن
يزج بنفسه فيما لم تهيئة له الأقدار ؟ لطالما طلب إلى دون كيشوت أن يمد من طموحه ،
وأن يتخلى عن أوهامه ؛ فكيف له الآن أن يقيم نفسه — وهو الفلاح البسيط — حاكما
على العباد ؟ أليس من الخير أن يقنع بما خلق له . أليس من العقل أن يتخلى عن جزيرته
الموهومة ليعود إلى جوار سيده ؟ أليس سانكو على النقيض من دون كيشوت ؟ أليس
هو العقل نفسه إن صح أن دون كيشوت هو الجنون المطبق ؟ وبالفعل تخلى سانكو عن
جزيرته الموهومة ليعود إلى مصاحبة دون كيشوت . ومن عجب أن يحرص العقل على مصاحبة
الجنون كل هذا الحرص !

واستقر دون كيشوت فى مقامراته ، وكل فشل يفريه بمغامرة جديدة ، وعزمه ثابت
لا يتأثر منه شيء ، حتى كان يوم انهزم فيه بمركة يارت بينه وبين فارس آخر ، وعز عليه
أن ينهزم كرجل ضد رجل ، ونالت الأحران من نفسه نخر مريضا ، ولازمته الحى عاما

كاملاً ، خرج منه وقد عاد إليه عقله . ووجدنا لو امتدّت به الحياة ليقص علينا ما هداه إليه جنونه من دروس . ولكن الموت لم يلبث أن واثاه ، وكأنه قد ناه بحمل عقله ، أو كأنه من أولئك الذين يصدق عليهم قول الشاعر الفارسي : « نحن أمواج إن تشرق تحت » .

مات دون كيشوت بعد كفاح تعزى بنيل غايته عن كل المآسى ، وكأنّ به لم يستطع عزاء عن تلك الأحلام الجميلة التي تهدمت بتهديمها حياته . مات فتلقي الموت كما يتلقى محب إبتسام حبيبته أو شهيد وجه ربه . مات بعد أن علم أن القتال لخير البشر قتال مع طواحين هواء . مات بعد أن فشلت جهوده ، ولم تصد لديه القدرة على استئناف حياة بليدة راتبة كالتي يحياها ملايين البشر من الخاملين .

مات هذا الجنون . ولعله « كالست » مولير و « مفغل » دوستيوفسكى من أولئك الذين لانضحك منهم ولا ترميهم بالجنون إلا لقصور في عقولنا وفساد في طبائنا . وهذا العالم الجليل الذي صبت إليه تلك النفوس النادرة ، لعله العالم الحقيقي ، العالم الذي يجب أن يحيا فيه البشر إن أرادوا رفع قلوبهم إلى المثل الأعلى .

مات دون كيشوت في كتاب سرفنتيس ، ولكنه بقي في ~~ال~~عقول جميع الأجيال التي عبرت الحياة ، أو التي ستمبرها ، رمزاً لما في نفوس الشباب الخيرة من التماس الخير والفناء في سبيله ، رمزاً لما قد تعود حماسة القلوب إليه ، مما يسميه الحق جنوناً . مات وظلت حياته درساً خالداً لما في الجهاد في سبيل المثل الأعلى من نبيل يُكتفى به عن كل النتائج .

فوست

Faust

(١)

« نسألونى : أى فكرة أردت أن ألبسها فوست ؟ وكيف لى أن أعرفها ثم أنى لى
بالعبارة عنها ؟ قد تكون جولة بين الأرض والسماء . هى خطوات أكثر منها فكرة ، وإن
يكن فى فقدان إبليس لهائه ونجاة ذلك الرجل الذى مازال وهو فى حمة الرذائل يهفو إلى
الخير حتى نجت روحه من الهلاك ما ينير الكثير من وقائع حياته ؟ ولكن هذه ليست
الفكرة التى تستقر فى قلب القصيدة ، بل ولا فى أى جزء من أجزائها تأخذه على انفراد .
أى نجاح كنت أصيب لو أنى حاولت أن تنظم تلك الحياة الفنية النزعات المتنوعة الأحداث
فكرة واحدة كما يجتمع القعد إلى نظامه ! ولكنه ليس لى كشاعر أن أجسم فكرة مجردة .
لقد أودعت نفسى كل ما تلقيت من إحساسات ، لإحساسات عديدة حية متنوعة ، وأتاني بها
خيال دائم اليقظة ، فتناولتها كشاعر بالصياغة والعقل ؛ ثم أسلمتها القارئ صوراً نابضة
الألوان أرجو أن تثير فيه مثل ما أحسست . »

هكذا يتحدث جيته صديقه إيكerman عن فوست ؛ وعلى ضوء هذا الحديث نستطيع أن
نفذ بعض الشيء إلى أسرار تلك الشخصية العجيبة التى رافقت جيته خمسين عاماً من حياته ،
يصور بعض نواحيها حيناً ، ثم يتركها ليماودها بعد زمن ، وهو فى كل يوم يفيد جديداً
يضيفه على رجله الذى اتخذ منه رضىاً للأساة النفس البشرية ؛ تجالذ الحياة لتتزع منها سرها
الكامن ، فتطمئن إلى يقين وتقلت من حيرة أبدية .

على أن جيته لم يخلق فوست من الدم ، فقد ألقت القرون الوسطى تلك الشخصية :
شخصية الرجل يهب إبليس روحه على أن يكشف له عما يجهل من سر وأن يمكنه مما تصبو
إليه نفسه من لغة ، فينال من الحياة ما يمز على عامة الناس ؛ ولكم آمن رجال ذلك العهد
بالسحرة وعصيمهم وحيلهم مما تنص به آدابهم ؛ بل لقد عاش بالفعل فى القرن السادس عشر
« دكتور » اسمه « فوست » اجتمعت إليه كل خصائص السحرة التى تحدثنا عنها آداب
القرون الوسطى . ونحن بعد لا ندري أكان هذا الرجل نصاباً أم كان ممن يصدرون عن

فيض إلى ؛ ولكننا نعلم أنه أبقى عمره ضارباً في بقاع الأرض يمتثل على الحياة بخداع سذج القول ؛ ولكم سمايته بين طلبة الجامعات بالمانيا ، ولم لا ؟ ألم يكن مثلهم ضليلاً في الآداب اليونانية واللاتينية القديمة ؟ ثم ألم يبلغ من مهارته يوماً أن يبت من قبرها أمام أبصارهم الداهلة تلك الحسناء الفاتنة « هيلانه » التي جعل هوميروس من سحر جمالها سبيلاً لحرب ضروس بين الشرق والغرب ؟ لقد كان دكتورنا بلا ريب على صلة وثيقة بإبليس — بهذا ذهب الأسطورة وهو حي ، فإياك بعد موته ! . تناولها خيال الشعب بالتنمية حتى كان مسيحي متدين لعله قسيس ، اتخذ من تلك الحياة العجيبة موضعاً للعبرة وعرضها في كتاب — (كتاب الشعب) — يصور فيه فوست رجلاً حبه الطبيعة بمواهب فذة ، ولم تستطع المسيحية التي نشأ بين أحضانها أن تمسكه عن الفرور ، فهوى في الخطيئة . تطاولت نفسه إلى معرفة كل سر ، والتمتع بكل لذة ؛ ولم يجد سبيلاً إلى تحقيق هذا الحلم غز الاقناق مع الشيطان على أن يهبه روحه عند الموت ، وعلى الشيطان أن يرسل إليه أحد رجاله (إبليس) يقوده خلال ما ينبغي من لذة محرمة أو معرفة تمتع عنا — نعم إن الدكتور لم يفقد إيمانه ، وكانت نفسه لا تزال تمح إلى رحمة الله . ولكم مناه ذلك الإيمان أن يخادع يوماً إبليس فيفتل من قبضته ، وقد فاز منه بما يريد . ولكنه لم يستطع ، فقد نصب له إبليس من أشراك الرذيلة ما تعثرت به خطاه وعز منه الخلاص .

وتنازل الكتاب تلك الحياة دون أن يغير أحد من أفكارها كما صاغها « كتاب الشعب » ، ومثلت تلك الحياة على مسارح العرائس ، حيث كان الممثلون شخصاً من الخشب على نحو ما نرى في « الأرجوز » ، حتى جاء الكاتب الإنجليزي الممتاز « مارلو » Marlowe « معاصر شكسبير وبند الفذ » فجعل من فوست ثائراً على ربه ، ثائراً على قضائه ، ثائراً يكسب عطف من يستمع إليه ، وحسب الناس أن مارلو قد خلغ على فوست وجوداً لن يفلت منه أبد الدهر . وما علموا أن جيته سيتناول هذا الشبح فينفخ فيه روحاً جديدة ، روحاً تجعل من الشبح رمزاً لكل عبقري يضيق بما في بطون الكتب من معرفة زائفة فتعقبو نفسه إلى الحياة ، وإلى المعرفة المباشرة ، يستقيها من قلوب البشر ، أو من حفيف الأشجار ؛ وإن يكن في زعته هذه ما يبعد بينه وبين البشر ، فتثقله وحدة النفس ، ويقعد به ضعفنا البشري عما يريد فيتناقد مع الشيطان كما تناقد أسلافه . ولكنه اليوم لم يعد كما تصوره خيال الشعب : ذلك الرجل الذي هوى مع إبليس إلى نار جهنم ، فقد جعل منه « لسنج » رمزاً للمعرفة الكاملة ؛ وقد ارتفع به جيته إلى سمو الرجل الممتاز الذي يسعى بكل قواه وراء المعرفة والحياة ، وقد

اتخذ منه شاعراً مستقراً تجتمع إليه مسرات البشر وأحزانهم .

وفي الحق أن فوست ليس نفساً مبتذلة ، وإلا لما كان موضع نزاع بين إبليس والله (تعالى عن ذلك) . وهل يقتل أحد على قوافه الناس أو الأشياء ؟ وفطن إبليس إلى أن نفس فوست بها من قوة الحياة ما يدفعها إلى التماس كل سر والتمتع بكل لذة ، فأحس فيه فريسة لشربه ، وود لو فاز به ؛ ولكن كيف السبيل والله مستقر ضمير فوست ؟ وهل النفوس الخيرة مهما أسفت إلا ملائكة هوت ، فما زال تذكر السماء . ولكم تردت نفوس في الخطايا ثم أثار لها الندم سبيل الخلاص ! اللهم إن هذا حق آمن به فوست واطمأن إليه ، فتعاقد مع إبليس بعداد من دمه على أن يهبه روحه يذهب بها أينما شاء ، إن رضيت نفسه الرضاء كله بما يمكنه منه إبليس من لذات .

ها هو فوست في غرفة درسه يحاور نفسه الثائرة — أو ما يسميه الناس « دكتوراً » ؟ أو ليس يعلم أكثر مما يعلم النير ؟ ولكنه قد انتهى إلى حدود المعرفة ؛ ونظر فوجد معرفته جوفاء لا تورث يقيناً ولا يجعله خيراً مما كان . ومتى كانت المعرفة متاعاً يسله شخص إلى شخص حتى نستطيع أن نلتصقها في بطون الكتب ؟ وكيف لروح قوية كروح فوست أن تقف بين جدران حجرة ضيقة وهي أوسع من أن يحتويها عالم الأرض . على رجبته ؟ وكيف لحواسه أن تهدأ وقد خلقت حادة قوية لا يشبعها غير الإحساس المباشر يرسله خلالها بنى الصباح ويريق نجوم الليل ؟ وهبه أصاب معرفة ما ، أليس في ملاساتها ما يذهب بما لها من سلطان مطلق ؟ وهبه خطا نحو ما نألف من سعادة خطوة ، أليس من خلف خطواته هذه هوة سحيقة يتردى فيها فينتلج الزمن ما لم يكذب بنعم به ؟ وهبه أصاب لذة ما ، أليس من وراءها ندم لا ذع يذيقنا مر العذاب ؟ وإذا فليتلمس فوست من إبليس عوناً على أن يصل إلى معرفة أسرار الحياة والوجود معرفة مباشرة كلية مطلقة ، وأن يصيب من اللذات ما يترك في النفس رضى أبدياً ونشوة لا تزول . هذا ما يبغي فوست ، ولكن ترى أيستطيع إبليس أن يقدم إلى فوست ما يريد ؟

إبليس هو روح الشك والكران — روح هدامة — روح الشر ؛ فكيف له أن يهدي فوست إلى يقين أو أن يبله على لذة تدوم ولا تورث تدماً ؟ إبليس هو وحى غرائزنا الوضعية ، يمكن في أحماء نفوسنا المظلمة ينير ما استقر فيها من عناصر الشر ويلتمس لها أهدافاً يفرينا بها . ها هو يتقدم إلى فوست وقد ارتدى ثوباً أجبر يطرده القلب ، وفوق كتفيه معطف من الحرير الثقيل ، وبقيته ريشة ديك ، وسيفه الحاد السنان معلق بمخاضته ؛

وها هو ينصح إلى فوست أن يرتدى رداء كрдائه ، وأن يترك غرفته مخلياً بها تلك الوسواس التي آتلفت عليه أيامه ، ليدلف إلى الوجود ملتصقاً بأسرار الحياة .

« وأى ثوب يستطيع أن يغير من شعورى بضيق الحياة ، وقد جاوزت سن المرح دون أن أبلغ سن اليأس من اللذات ؟ وماذا يستطيع العالم أن يمنحني ، ودقات الزمن تصيح بأذناننا صيحات أبدية يح بها صوت الوجود في أغنية لا تنقطع أن « تنح ، نعم ، تنح » ؟ أستيقظ مع الصباح فتتلى نفس غيظاً ، وألقى ضوء النهار بنموج مريرة لعلني أن أرى نهار لن يحقق شيئاً مما أملت ، بل إنه لفسد عليّ ما أتوقع من سرور ، وفي ضوئه تتناولني الألسنة بالقدح اللاذع المر ، فتشل في نفسي كل توب للخلق بما تأتيني به من أحزان الحياة البغيضة . ثم إذا جن الليل ذهبت إلى فراشي وفي النفس لوعة مقضّة ؛ هنالك لا أنعم راحة ، وفي أضغاث الأحلام ما يلائني رعباً . ترى الإله الذي يسكن عقلي لا يمسك عن إثارة ما استقر بأعماق نفسي ، وقد بسط سلطانه على كل ما أملك من قوى ، بينما هو أعجز من أن يثير شيئاً من هذا العالم الخارجي ، شيئاً أشبع به ما يثير في نفسي ؛ ولهذا كانت الحياة عبثاً بقتلي ، وكان الموت أحب إلى نفسي من هذه الحياة البغيضة » .

ولكن إبليس لم ييأس من فوست ، لعله أنه بشر يفتابه اليأس والأمل طوراً بعد طور ، وهو بعد على ثقة من أنه يستطيع أن يغير من لون نفسه ما انتزع تلك النفس من وحدتها وصرفها عن التفكير في حقيقتها ؛ ولقد نجح إبليس فيما أراد ، وقبل فوست أن يصاحب إبليس « على أن يسلمه روحه إن استطاع أن يسلمه إبليس إلى اللعة يركن إليها ، فيطمئن ويرضى عن نفسه بما يجادعه به من لذات ويتملق عنده من غرائر » . وفي الحق إنه لاتفاق عجيب ما يزال الناس حتى اليوم يستوضحون معناه . ترى أوضاع النزاع هو : إلى من ستصير روح فوست ؟ أ إلى خالقها تسمو إليه ما تملقت بأشعة المثل العليا ، أم إلى جهنم يقوده إليها إبليس بخطا حثيثة ملتوية ؟ أم هو مصير الإنسانية قاطبة تتنازعها قوى الخير والشر ؟ أم هو لا هذا ولا ذاك ، بل نزاع بين ملكات النفس المختلفة — ملكات تسمو بنا إلى أعلى ، وأخرى تهبط بنا إلى أسفل . ومن يدرينا ؟ قد يكون الأمر مجرد جولة — كما يقول جيته نفسه — يحمل الشاعر فوست عليها بين الأرض والسما ليرى ماذا تخلف خطاه من أثر ، وقد انقعد عزمه على أن يجوب خلال الطبيعة التي خلقنا بين أحضانها وفي حناياها كل سر دفين . « ألتست ترى إلى الأشياء كيف تفكر خلالنا وكيف تفكر خلالها ، وإن تكن وحدة تفكيرها أدق من أن تكون قضايا وأكثر ما تكون نفاً أو لوناً » ، وقد انقعد عزمه

على أن يجوب خلال النفوس البشرية ؛ ولكم أودعها الله من سر لا تسلمه إلا لما يشابهها من نفوس ! ولكم تجرى أصدق الحقائق على ألسنة أبسط النفوس ! ولكم يفيض النبل من أشد القلوب سداجة ! ولسوف نرى كيف أن لثلاث الحياة المادية لم تورث فوست غير ندم بما بنفسه ؛ ولسوف نرى نشوة الخيال لا تندوم إلا إلى حين ، ثم تولى تاركه في النفس فراغا مؤلما ؛ ولسوف نرى أن العمل نفسه قد تمددنا ضوضاؤه وإن لم يخلف أثرًا يبق ؛ ولسوف نتجلى مأساة فوست عن سبيل التجارة ، وما سبيلها إلا أن نجيا بقلوبنا ، وأن نضع لعقولنا حدوداً تزمها دائرة لا تعدوها .

وما لنا نستوضح هذا السر ، وفي خطوات فوست وإبليس ما هو أوضح دلالة من كل تفكير ؟ أليس من الخير أن نصاحبهما لنرى ما هما منتهيان إليه ، ثم نحكم بمد ذلك على ما تماقدا عليه ؟

ها هو فوست وإبليس يسدان رحلتهما الطويلة الشاقة بزيارة الحانة بليزج — هناك حاول إبليس أن يفرى فوست بالتماس اللذات وسط جماعة الطلبة وهم يلهون في صخب وضج ، وكؤوسهم بين أيديهم يعبونها عبا ، وخناجرهم تردد أقبح الفناء وأقبحه : « نحن وحوش اللذة — نحن خنازير الورى » . وسمع فوست هذا القرار فصدمت نفسه ولم يجد ما يقول إلا رجاء إبليس أن ينصرف به عن هذا المكان ؛ وكيف لنفس حامية كنف فوست أن تستريح للذات الحانات الخفية ؟

وحسب إبليس أن فوست لم يسترح إلى تلك اللذات لأنه قد جاوز السن التي كان يستطيع أن يلهو فيها مع الطلبة ، فقادته إلى ساحة أعطته شرايا رده إلى بدء الشباب ويوقظ في نفسه لثلاث الحواس ؛ ولئن صدمت نفسه عن لثلاث الشراب وصخب الشباب فليدعه إبليس هذه المرة أشرا كما أحكم حلقات ، وليفره بما هو أعلق بكل نفس ، ليدفعه إلى الحب . وفيها هما في الطريق مرهت بهما فتاة جميلة طاهرة النفس ، تطلمت إليها رغبة فوست الظمأى إلى الجمال ؛ واحتال إبليس حتى أوصله إليها ، وحسب أنه قد نجح في الهوى بنفس فوست إلى ما أراد من سقوط ، ولكنه لم يقطن إلى أن جمال تلك الفتاة ونبل نفسها خليقان بأن يسموا بفوست عن كل إسفاف . ولم لا ، وقد خبر جيته نفسه تلك التجربة الرائعة عندما أحب — وهو في الرابعة عشرة من عمره بفرنكفورت — فتاة تشبه مهرجوت هذه شبه قطرات الندى بمضها لبعض ؟ ودخل فوست إلى غرفة مهرجوت ، وكان الوقت أصيل التروب ، فارتفع قلبه إلى الملل الأعلى ، وانطلق لسانه بأجل الشمر : « مرحباً بك

أيها الشفق العذب ! أيها الضياء البليل يرسل أشعته النهمية تنير هذا المعبد المقدس ! وأنت أيها الغرام المبرح ! دونك قلبي أمسكه بعذابك العذب عن أن يأتي عليه الفناء وسط ندى الآمال . يا له من هدوء ودع ! يا له من استقرار راتب ! يا له من رضى نفس جميل ، ذلك الذى يعمر تلك الدار ! أى غنى يملأ هذا الفقر البادى ؟ وأى سعادة تملأ هذا السجن الظلم ؟ » .

ووجدت نفس فوست راحة من حيرتها الأبدية ، وأحست نفس فوست برضى لم تستشعره أبداً السنين ، وكاد رجلنا يفلت من أيدي إبليس ، وكاد رجلنا يطمئن إلى الحياة مخلقاً وراة عهداً مظلماً لم يعرف فيه غير القلق وشقاء النفس . أليست مرجريت بطهارة نفسها ، وجمال روحها ، وفتنة وجهها - خيراً من فوست بعله الذى أنزل بنفسه الخراب وساقها إلى تطلع أبدي لن يلقى من ورائه خيراً ؟ ولكن إبليس له بالمرصاد ، ما يزال يفره بالشر حتى يقع ما لا بد منه . حملت مرجريت ، وسقت أمها السم على غير علم منها ، وهي تحسب أنه منوم بسيط سيمكنها من أن تخلو بحبيها كما أوهمها إبليس . وظهر خلها وثارت ثائرة أخيها لهذا المار الأبدى ، فأغرى إبليس فوست بقتله في زوال دبره ذلك اللعين . ووضعت مرجريت حملها ، وضعت نفسها عن مجاهدة الناس بمارها ، فألقت بولدها إلى اليم . وحزن فوست حزناً عميقاً ، وقد أخذ الندم يحز في نفسه حزاً ، وإبليس لا يمهله لحظة ، دائب الوسوسة في أذنيه . ولكم ضاقت بفوست الحياة ! ولكم ود لو يمينه إبليس على أن يقوض ما بقى من أركانها ليفلت من هذا الشقاء المقيم : شقاء النفس الخيرة تساق إلى الشر سوقاً فلا تمود منه إلا بأمر الآلام .

وأتى مرجريت إلى ظلام السجن ، وثارت ثائرة فوست ، وود لو تسحق قدرة الله إبليس اللعين . وحاول إبليس أن يعد من غواية فوست بمسؤول القول فلم يستطع ، ولهذا لم يردأ من أن يأخذه إلى قبة جبل بروكن حيث تمقد الجن عيدها السنوى ، وهناك أغرى به فتاة حسناء ، لعله ينسيه ألم الندم الذى أوشك أن يطهر نفسه من كل شر ، ولعله يموده به إلى السقوط ؛ ولكن هيهات ، فها هي مرجريت تلوح وسط هذا الصخب فيما يشبه أحلام اليقظة ، فينادر فوست العيد عادياً ملء أرجله إلى حيث تقيم مرجريت وسط غياهب السجن . وأرغم فوست إبليس على أن يقوده إلى حيث هي . ووصل فوست إلى مرجريت ، وحاول عبثاً أن يتجوبها من السجن . ولكن إلى أين تنهب وقد أصبح العالم لها سجنًا أضيق من سجنها ؟ لا ! لقد فات الوقت . وصاح إبليس مقتبلاً : لقد كتب لها الهلاك . وصاحت

أصوات من السماء : بل كتبت لها النجاة . وقاد إبليس فوست إلى خارج السجن ومن جوفه صوت يصيح متهاقاً : هنرى ! هنرى ! وخرج هنرى فوست إلى قضاء الأرض وقد ضاق به القضاء بما رجب ، وأخذ منه الإعياء كل مأخذ ، فألقى بنفسه على حشائش الأرض ينتظر قضاء الله فيه . ترى ماذا ستفعل به رحمة الله ؟

أراد فوست أن يمس الحياة عن قرب ، فلم يجد في الحياة غير مرارة الندم . أراد فوست أن يلتبس من الطبيعة أسرارها ، فضايق به قضاء الأرض . ولكن أليست هناك رحمة الله تملأ الوجود ، وقد حلت بكل شيء ، ونفذت إلى كل نفس ؟ من يدرينا ؟ لعل الله غافر لهذا العبد النادم ما أتى من سيئات لم يقصد إليها ، ولعله ملهه نسيان ما كان . ولئن كانت لذات الحياة المحسة لم تعقب خيراً ، فلعل في نشوة الخيال ما ينفي . ولئن ضاقت بفوست الأرض ، فهناك ما خلف الأرض ، هناك لا شك عوالم غير عالمنا . ليجاول فوست أن ينفذ إليها ، ولنتظر ما هو مصيب منها . لقد عافت نفسه اللذات الحفيرة ، وشقيت نفسه بحب حصى . فليطلب إذاً لذة المجد ، وليصرف قلبه إلى مثال الجمال يحبه بروحه . ليصرفه إلى هيلانة رمز الجمال ، وليسخر إبليس في بسنها إلى الحياة ، ولنتظر بعد ذلك ما سوف يكون من أمره .

(٢)

تركنا فوست وقد جره إبليس إلى مغامرة غرام ، خرج منها ونفسه يحطمها الندم . ومن يجب أن تكون نجاته على يد نصيبته ! ومن يجب أن تلاق نفس مرجريت السيئة بالحسنة ولكنها نفس خيرة - هي من معدن نفس فوست - نعم من معدنها ، وإن تكن تقضلها بما احتفظت به من سداجة وطهر ؟ ولئن سقطت مرجريت فما كان ذلك لشر في طبيعتها ولا لإسفاف في غرائزها . وهل كانت مرجريت إلا زهرة تفتحت لندى الحب عن طيبة قلب ، وحسبته خيراً صراحاً ؟ وهل أدل على نبلها من أن تخف إلى فوست وهو بين الجن والسمرة ، وقد أوشك أن يهوى هوى لا نهوض بعده ، فتدعوه بمجنونها البادى ونفسها الكسيرة إلى أن يخف إلى السجن يتاق عنها قبل أن يحتضر درساً لن ينساه أبد السنين ؟ ماتت مرجريت وترك فوست طريقاً على الحشائش بين أحضان الطبيعة التي طالما حن إليها ؛ ولكن أنسى له أن ينعم من الطبيعة بجمال وقد تملكه الندم يهيم في أذنيه : « إن من أملكه لا يحس للعالم بوجود - تراكم من حوله الظلمات - للشمس أن تشرق أو أن

تقيب ، ولحواسه أن تظل يقظة مفتحة الأبواب ؛ وأما نفسه فهيات أن يقبده منها ما يملأها من ظلام — تحوطه كنوز الأرض ، وهو عاجز عن أن يفيد منها شيئاً . تشقيه السعادة قدر ما يشقيه اليأس . يتصور جوعاً ومن حوله خيرات الأرض جميعاً ، يرجع إلى غد كل لفة وكل ألم ؛ وأنسى له أن ينعم بشيء وقد علقت حياته بانتظار المستقبل الذى لا يأتى ؟ إن هم بأمر لم يدر أيتابع السير فيه أم يعود أدراجه ، يخونه العزم وهو فى منتصف الطريق ، فيتردد ويثمر فى خطاه ، تزل به القدم شيئاً فشيئاً ، وتختلط أمام بصره الأشياء ؛ هو حمل على نفسه وحمل على الآخرين — لا هو بالمحلى ولا هو بالميت ، وقد عز عليه حتى اليأس أو الاستسلام ، فهو دائم الحيرة ، مترامخ العزم ؛ ينتابه كسل مؤلم ونفور من كل نشاط ، نومه هياج ، وصحوه عذاب ، وقلبه نهب للرق والأسر ، وهو فى كل ذلك ملصق بالأرض ينتظر أن تشق أفواه جهنم لتبتلمه .

ولكن أليس هذا الندم شفيماً له لدى رحمة الله ؟ أليس دليلاً على أنه لا يزال هناك بريق من ضوء الله ينير حطام نفسه ؟ أليس دليلاً على أنه لا تزال هناك شرارة مقدسة تلمع وسط هذا الرماد القاتى ؟ نعم لقد فشلت حياته التى عاشها حتى اليوم ؛ ولكن ما أصاب من لفة أو شقاء لم يعدم أن يشير مكنون ضميره ، كما تثير الرياح المتضادة أمواج البحار ، وما دامت روح الشر لم تملك روحه ، فلا شك أن سبيل الخلاص لا يزال مفتوحاً أمامه .

وأنته أرواح الطبيعة ترنحه حتى نام ، ثم وسدته أكاليل الورود وحملت إلى نهر النسيان ، حيث طادت الحياة إلى جسمه المحطم ، ثم فتحت عينيهِ على ضوء النهار المقدس . ولكنه لم يكده يعود إلى الوجود حتى وجد إبليس أمامه . وهل روح أشد عناداً من روح الشر ؟ وهل إبليس من الغفلة بحيث لا يظن إلى أن الفوز بنفس ممتازة كنفس فوست لا يمدله فوز ؟ ليكن لإبليس ما يريد من ملازمة فوست . وأما بطلنا فهيات أن يعود إلى تلك الفرواية التى لا تزال ترتمد لها فرائصه . لقد التمس اللذة الحسية فلم يجد غير المرارة ؛ وفيه هذا العناء ؟ ألسنا نستطيع أن نحيا بالخيال ما نتعلق إليه رغباتنا ؟ أو ما ترى إلى الناس يذهبون إلى المسرح فيخيل إليهم أنهم قد عاشوا فيما يرون من أحداث وهمية ، وبذلك يدخرون من طاقتهم الفعلية ويضيفون إلى حياتهم ألواناً أخرى من الحياة ! أو ما يذكر بعضنا كيف أن رغبات النفس قد تبلغ من القوة حداً إذا تحققت معه ، لا ندرى عندئذ أحلاماً ترى أو ماضياً تذكر ؟ ثم أليست السعادة والشقاء معانى ذهنية أكثر منها حقائق واقعة ؟ وإذا تليت فوست فوست لذات الخيال بعد أن خدعته لذات الواقع ، وليسخر إبليس فيما يريد ؛ وليكن أول ما يريد مجد الشهرة والنفي .

وقاده إبليس إلى بلاط الأمباطور ، فإذا بالأمباطورية فاسدة ، وإذا بالأمباطور عاجز عن إصلاحها . واتفق أن كان مضحك الأمباطور في شبه موت من شدة السكر ، قبل الأمباطور إبليس ليحل محله ، وأصبح فوست ساحر القصر الأمباطوري ؛ وهنا تقع مهزلة ملأى بالبهر — رأى المضحك الجديد أن موضع الداء بالأمباطورية هو نضوب المال ، فأكد للأمباطور أن جوف أرضه مليء بالكنوز البغينة ، وأنه ليس من الضروري أن ينقب عنها ، بل يكفي أن يحمل الشعب على الاقتناع بوجودها ؛ وفي إيمان الشعب ثروة لا يحيف لها معين ، وبحققت تلك الأنحوخة ؛ وانتهر إبليس فرصة انهماك الأمباطور ذات مساء في لجب اللذات ، فحمله على التوقيع على ورقة بنكوت يضمها ما في جوف الأرض من كنوز ، وطبع من تلك الورقة عدداً لا حصر له ؛ وجرت تلك الأوراق في التداول ، والكل مؤمن بقوة ضائتها ، فاعتنى الأمباطور واعتنت الأمباطورية . ولكم من آانس يبنون مجدهم فوق أكذوبة كهذه ! ولكم من آانس يجعمون المال ، والفضل كله لحق البشر !

وتساقطت عن الأمباطور همومه ، وتكاثرت من حوله الخيرات ؛ وكان على إبليس وفوست أن يفتنوا في طرق تسليته وإدخال السرور على نفسه ؛ فأخذ فوست مفتاحه السحري ينظم بفضل عيدا من أعياد الأدب ؛ وهل أمتع للأدياء من أن يبعثوا إلى الوجود هيلانة وپارس ؟ وسر فوست بما أتى ، ولكنه لم يكدرى هيلانة حتى هاله جالها النادر ، وأحس نحوها بحب قوى ، وبلغ هذا الحب المثالي من نفسه مبلغاً أخذ بكل حواسه ، فجعله يستشعر نحو پارس غيرة شديدة أنسته اللور التي يلعب كساحر ، فأدار مفتاحه نحو هذا الراعي الجليل ، وما هي إلا حركة بسيطة حتى اختفى الكل ، وبقي فوست يتحرق لوعة على هذا الجلال الذي لم يستطع أن ينعم به ، وإن ترك في نفسه أثراً لن يحصى . ألم يصح عند رؤيتها : «أوما تزال عيناى تبصران ؟ ألسن نبع الجلال فياصاً يتدفق في أعماق نفسى ؟ ما أحلاك جزاء لما بذلت من جهد ! وهل كان العالم قبل أن أراك إلا عدماً أو لنزاعاً معى ؟ وأما اليوم فقد أعطاه جلالك معنى ترغبه النفس وتطمئن إليه الخواص واثقة من بقاءه ؟ ألا فلتنادرنى أنفاس الحياة إن قبلت أن أحيا بدونك . أنت الحافظ على كل نشاط ، أنت الباعث لكل عاطفة قوية ، إليك كل ما أملاك من عطف وحب وعبادة وجنونه .

إذا لقد وجد فوست غايته في الحياة . ولأى غاية أنبل من هيلانة ، مثال الجلال المطلق ؟ وعلى إبليس أن يبلغه ما يريد ، ولكنه لن يقنع هذه المرة من هيلانة بذلك الشبح الذي لا يكاد يروى إليه البصر حتى يحتق كضباب الصباح تبدده أول أشعة النهار . إنه يريد هيلانة .

الحقيقية — هيلانة أسبرطة وطروادة — هيلانة في زهرة الشباب — هيلانة ابتسامة تسحر وجال يسي . نعم هذا ما يريد فوست ؛ وقد جعلت منه لحة الجمال رمزاً لخيار البشر يلتسمون الحق والجمال والعلم والحب ، وما تهدأ لهم ثورة حتى يصلوا إلى ما يريدون ؛ وهنا تتسع عبقرية جيته حتى تشمل كل ما في الوجود بل وما خلف الوجود ؛ حتى إن إبليس نفسه ليخشى أن تسوق فوست قدماء « إلى ذلك الفراغ اللانهائي الذي لن يرى فيه شيئاً ، ولن يسمع حتى وقع أقدامه ، ولن يجد ما بركن إليه طلباً للراحة » . وتختلط على القارئ السبل ويحار في أمره ؛ ولكن مادام فوست يريد من إبليس أن يأتيه هيلانة الأفرقية ، أليس من الطبيعي أن يقلنا الشاعر إلى تلك البلاد ، بل إلى أسبرطة نفسها موطن تلك الحسناء ؛ وما دام إبليس سيميد الحياة إلى هيلانة أليس في ذلك ما يذكر جيته بتلك المضلة التي لازمت تفكيره طول حياته ، مضلة أصل الحياة ؟ ولم لا يستعرض إذاً ما وصل إليه العلم في عصره من فروض ؟ ولم لا يقص علينا ذلك النبا المجيب نبأ فحجر تلميذ فوست الأمين ، وقد خلق إنساناً صغيراً في أنبوبة اختبار بفضل ما يعلم من قوانين الكيمياء . وما نحن زى أبطالنا الثلاثة يسرون مما إلى بلاد اليونان : الإنسان الصغير باحثاً عن مصدر الحياة ، وفوست جرياً وراء هيلانة ، وإبليس متربصاً لتلك النفس الكبيرة التي يريد كسبها ، وجيته يخلق فوق الجميع بتلك العبقرية الفذة التي أحاطت بكل شيء ، فأنطقت آلهة الأساطير وأنصاف الآلهة وأرواح البحر والبر والسماء .

ولقي فوست في طريقه « شيرون » الحكيم فأخبره أنه يبحث عن هيلانة ، وأنه لن يستطيع الحياة بدونها ؛ فظنه شيرون لأول وهلة مجنوناً ، وأخذته به رجة ، فأراد أن يلتمس لجنونه علاجاً ، ولكن فوست يرفض هذا العلاج بإياه ، ويخبره أنه لا يريد إن يحيا حياة مبتذلة كما يحيا غيره من الناس ، وإلا كان جديراً بكل احتقار ؛ ويقوده شيرون إلى « مانتو » بنت إله الطب إسكيلاب ، وعند مانتو كل علم بأسرار النفوس . ودار بين مانتو وفوست حوار أحست خلاله تلك الإلهة الخبيرة بأن فوست ليس مجنوناً ، وإنما هو رجل الحب المثل الأعلى قلبه ، واستحوذ على مشاعره ، حتى ليحسبه الحق معتموها وما هو بمعتموه ، وسكنت مانتو من جأشه بتلك الكلمة الرائعة : « إنني أحب من يطلب المستحيل » وقادته إلى « ريسيفون » إلهة العالم الآخر ، ووقفت له تلك الأخيرة ، فردت إليه هيلانة مشرقة الجمال . وأقام إبليس لهيلانة وفوست قصرأ رائعاً بأعلى جبال البليونيديا ، حيث عاش فوست مع هيلانة أروع أحلام حياته ؛ إلا أن جبهما لم يكن حباً مبتدلاً ، بل كان مغامرة لا مثيل

لأصالتها . وكادت تم لفوست السعادة لولا أن ولدها « إفریدن » — رمز الشعر — ذلك المنصر التارى الذى لا تهدأ له حركة ، لم يستقر له قرار ، فأخذ يجوب الآفاق حتى سقط فى مغالب الفناء داعياً أمه إلى اللحاق به ، ولحقت هيلانة بولدها فى العالم الآخر ، وبقي فوست وحيداً وفى نفسه حسرة مالها انتضاء . فيا عجبا ! حتى هذه الحياة الشعرية لا تسكن إلى بقاء ! أهكذا كتب على البشر ألا تطلعن بهم حال حتى ولو كانت من نسج الخيال ؟

والآن ترى ماذا يفعل فوست بنفسه وقد خاتته لذات الخيال كما خاتته لذات الحواس ، وقد أوره الحب حرارة الندم كما أفات الجمال من بين يديه ؟ لم يعد له إلا أن يصرف نشاطه إلى ميدان العمل يأتى فيه بما لم يأت بمثله أحد من قبل ، فينال إعجاب الناس به ورضا نفسه عما وفق إليه . وأى دواء لنفس حائرة كنفسه خير من أن يشغل ملكاته عن التفكير فى نفسه وفى الحياة .

ونظر فوست فرأى البحر يغمر الأرض فيشل إنتاجها ، وحدثته نفسه عن مبلغ ما يصيب من مجد لو أنه استطاع أن يرد البحر عن شواطئه ، وأن ينتزع منه بقاعاً بمحضها بالأشجار الدانية القطوف والأزهار الباسمة الألوان والرجال الناعمين بالحياة . وأى عمل أعظم من أن يضع للبحر حدوداً لا يمدوها ؟ بدأ جرت الأحلام فى نفس فوست ، فأجبه إلى إبليس يطالب إليه بمحقق تلك الأحلام ؛ وصدع إبليس بالأمر وهو على ثقة من أن فوست سيرضى بمجد باطل يفقد معه رهانه ، واتفق عندئذ أن كانت الأمباطورية فى ثورة ضد الأمباطور ، وقد نصب أحد الأعداء نفسه أمباطوراً جديداً ، فأعد إبليس لفوست من أسباب سحره ما استطاع معه أن يقهر الأمباطور الجديد ويثبت الأمباطور القديم فى عرشه . وشاء عرفان الجيل أن يحمل هذا الأخير على أن يكافئ فوست بمنحه الأراضى المجاورة لساحل البحر ؛ وبذا أصبحت أحلام فوست مهلة التحقيق . أليس فى استطاعة إبليس أن يأتى فوست بقوى غير مرئية تدفع البحر عن شاطئه وتقيم أمابه حواجز متينة ترد أمواج المياه ؟ وزرعت الأرض المنتزعة من المياه ، ونما زرعها ، وانتشرت بينه مساكن الزراع .

والآن — ترى أرضيت نفس فوست ؟ كلا . فهناك شيخان لا يتحان بما آتاه فوست من معجزات ، وللشيخين (رجل وزوجة) منزل بأعلى الشاطئ* ، وهما يرفضان النزول عنه والسكن بالأرض الوطیئة التى انتزعها فوست من الم . وبقي منزلها قائماً يسخر من فوست ومن معجزات فوست . وبنفسه رغبة فى شراء هذا المنزل ليضيفه إلى قصره الذى بناه* ، والشيخان يصران على التمسك به ، فكيف السبيل ؟ وأحس إبليس بما يدور فى نفس فوست .

ومن أدرى منه رغبات النفوس ؟ فأخذ يحرك من غرائزه ويهيج من كبرياته حتى استفحل الأمر، ونفذ الصبر ، فتقدم له عندئذ راجياً أن يكل إليه أمر مفاوضتهما بالحسنى ، على أن يكون له الحق في استعمال ما يرى من وسائل الإكراه إن فشلت المفاوضة ؛ وأبى الشيطان الاستماع إلى حديثه ، فأمر إبليس رجاله بإحراق المنزل ، وأكلت النار المنزل كما أكلت الشيوخين بداخله . ففى الشيطان وما إلى هذا قصد فوست ؛ ولكن ما فعله إبليس لم يكن إلا استجابة لرغبات نفسه الدفينة ؛ ولهذا زاره يلعن إبليس ويستكف فعلته . ولكنه يحس في أعماق ضميره أنه مسئول عن هذا الجرم ؛ ولذلك يعقد الزم على أن يفارق إبليس ، وأن يحيا حياة بشرية عادية دون الاستمانة بوسائل الشيطان ؛ ولكن أتى له ، وقد جاوز الحسنى في محبة إبليس ، أن ينهض بأعباء حياته التى أنفقها بعيداً عن حياة البشر وسط عالم مسحور حتى أصبح عاجزاً عن فهم الواقع ، وامتلاً وجوده بالأشباح ؟! ومع ذلك فما تزال إرادته قوية كما كانت ، وما زال نشاطه موفوراً . وإذن فليحاول حياة البشر :

« لقد أنفقت حياتى أجوب خلال الأرض ، أقتنص ما تصبو إليه نفسى وأطرح ما لا يرضينى ، موليا ظهري لما يفلت من بين يدي . لكم تحركت بنفسى ورغبات ، ولكم أشبعت تلك الرغبات ، ولكنى ما أكاد أفرغ من واحدة حتى تتور بنفسى أخرى . وهكذا واصلت شوطي في الحياة بقوة لا تدفع ويخطئ بدايتها حينئذ ، ثم ها هي اليوم تهدأ وتهدل . لقد أحطت بآفاق الأرض علما ، وأما ما خلف تلك الآفاق فدونه حجب مسدلة . ما أحق من يرفع إلى السماء بصرا يشبه ضياؤها ، وقد خيلت إليه أوهامه أن وراء السحب أحياء تشاكله . لقد خلق الإنسان فوق تلك الأرض ، فليكتف إذن بالنظر إلى ما حوله ، وإن فيه لعمرة لنوى الأبواب . ثم فم الضرب خلال الأبدية ؟ أوما يكفينا أن نمسك بمانم ؟ ! أوما يكفينا أن نسير على ضوء الحياة ؟ وإذا لاح لنا بمرض الطريق أشباح فلندعها وشأنها ، وإن أصبنا سعادة أو شقاء فلنقبله ، ولنواصل السير دون أن يطعن بنا أبداً رضا . »

على هذا وطد فوست الزم وقد أعلن أنه سيقبل الحياة كما هي دون أن يرضى عنها . فهل زاره بذلك مفلتا من قبضة إبليس ؟ كلا . فإبليس له بالمرصاد ، وما دامت الحيرة قد عادت إلى نفس فوست ، وما دام القلق قد تملك نفسه البشرية يلقى راحتها ، فقد عادت المهوم تنزوه من جديد ، وتمعى بصره ؛ وها هو إبليس يتمز فرصة عماء ليخضعه من جديد ، وقد أمر فوست رجاله أن يبكروا في الصباح . إلى حمل معاولهم ومهاجمة البحر يردونه عن الأرض دفعة أخرى . وأثار إبليس من حول فوست — بوسائله السحرية — نجيحا يشبه نجيح

القلمة ؟ وحسب فوست أن الأمور تسير على هواه ، وأنه مستطيع بوسائل البشر ما لم يكن يستطيع من قبل بغير وساطة الشياطين ؟ وما علم أن ما حوله من ضجيج لم يكن إلا خداعاً من شياطين إبليس ، وأن الماول لم تكن تعمل لترد البحر ، بل لتهيء له قبره الأخير . وبلغ من بؤس الرجل أن صاح برضاه عما أتى ، ففقد رهانه ، وسقط بين يدي إبليس يقوده إلى جهنم وفوق شفتيه ابتسامة الرضا :

« ما هي ذى جنان الأرض تشرق ! للبحر أن ترخر أمواجه وأن تأكل مياهه ما أقننا من حواجز ، فنحن البشر له بالرصاد ، ما نلبث لن نرد عدوانه ، ونقيم حاجزاً مقام حاجز ؟ على هذا كرت حياتي . وأى حكمة يمكن أن تتمخض عنها الحياة خير من تلك الحكمة التي تسوقنا إلى وقف حياتنا على هزيمة البحر كل يوم ، فستحق بذلك الحياة ونستحق الحرية ؟ وهكذا ينصرم الشباب كما تنصرم الكهولة وتنصرم الشيخوخة وسط صراع مستمر يحكم حلقاتها . آه ! لكم وددت أن أرى من حولي من بشر فوق أرض حرة بين قوم أحرار ، إذن لصحت بالزمن أن قف جريانك لأنهم بتلك اللحظة السعيدة . ولو أنني استطلعت ذلك ، خلقت حياتي على أديم هذه الأرض أترأ أن تمحوه أبدية السنين . إن نفسي لتحس بتلك السعادة الفياضة ، وإنه ليحلولي في هذه اللحظة أن أتمتع بما أنا فيه من نعيم . وهل بعد هذا من رضا ؟ وهل بعد هذا يستطيع فوست أن يفلت من إبليس ؟ ولكن هل سعادة فوست هذه إلا وهم باطل ؟ وهل رضاه إلا خدعة من عمل الشيطان ؟ بالمعجب ! حتى ثمار جهنم تتلقاه منا الأحضان فإذا به هواه ؟ ؟ وحتى راحة النفس نلتمسها في اللأب المتواصل فلا يورث اللأب إلا خداعاً !

وهوت روح فوست مع إبليس ، ولكنها روح خيرة ، فأرحمة الله أن تتخلى عنها ، وإلا كانت الهزيمة ! وما إلى مثل هذا يستطيع جيته أن يطمئن ، وإنه ليهيء لبطله سبيل الخلاص ، ولعله عندئذ كيف يستطيع أن يعالج الحياة .

(٣)

هوئى فوست بين يدي إبليس إذ أعلن رضاه عما خيل له هذا اللعين من مجد باطل ، ولكن كم كانت دهشة إبليس عند ما نظر فوجد روح فوست ما تزال مستقرة بالبيئة تأتي أن تتأدرها أو تنفك ذرات ؟ فاحتاط للأمر وطلب إلى رجاله أن يقصوا أجنحتها حتى لا تنافله فتصعد إلى خلقها . ولو أنها استطاعت لتفتحت لها أبواب السماء ؟ أما وقد عجزت فما هي

ملائكة الرحمة تأتيها منشدة : « نحن رسل الرحمة نعمل الحياة إلى البؤساء الذين ما تزال قلوبهم تنجس بالأساء إلى رحمة الله . هيا .. هيا نرس بأجنحتنا هذا الطين البارد ، فتدب فيه الحياة ، هيا نغسل القضاة بحماسة قلوبنا ، هيا نسكب رحمة الله في قلوب البشر . »

وسمع إبليس نداءهم ، فهزه الخوف من أن تنفذ تلك الملائكة فوست . ولكن متى كان للملائكة أن ترهب إبليس ومن خلفها قدرة الله ؟ ها هي تساقط الورود فوق جثة فوست كما يتساقط الندى على رقيق الحشائش . وأمر إبليس رجاله أن يفتشوا على الملائكة والورود لهباً بيد شملها ويذهب بنصرتها ؟ وعادت الملائكة تحمل الحب والضوء ، وضاعف إبليس من ناره ، ولكنه باء بالهزيمة ، وقد مسه الحب ، التي نثرته الملائكة في القضاة ، بلهب كوى منه الأديم .

راحت الملائكة فوست تمسوه إلى رحاب الله ، وما زالت تقوده في مقامات الجنة حتى لقي مرجريت ، فقادته ابتسامتها إلى العذراء تسألها أن تمسكه من لقاء وجه ربه . وبذا انتهت حياة فوست كما ابتدأت باقتسامها من مرجريت ؟ فياجيباً ! ضحية تشفع لمن كانت فريسته ؟ ولكنه الحب سبيل نجاتنا ، الحب بأعم معانيه : حب البشر وحب الله . ولندكر قول أحد القديسين . « لو أنني نزلت بكل لغات البشر بل حتى بلغات الملائكة ، وكان قولي خالياً من الحب لكنت ككليل يدوي أو نحاس يطن ؟ ولو أنني تملك أسرار الغيب ، ونفذت إلى كل معنى خفي ، وأحطت علماً بكل شيء ، بل لو أن قلبي عمّر بإيمان ينقل الجبال ، وكنت بغير حب لما كنت شيئاً ، ولو أنني وهبت كل ما أملك طعاماً للفقراء ، ولو أنني أسلعت جسمي وقوداً للنار وكنت بغير حب لما أفلت شيئاً . الحب صبر ودعة وإحسان ، الحب لا يعرف الحقد ، لا تسمع له صخباً ولا عجلة ، ليس للكبرياء أن تنقل من سلطانه ، وهو تواضع لا يعرف التعالى ، لا يسمى إلى قمع ، ولا يحس بحرارة . »

هذا الحب الذي تستطيع النفس أن تطمئن إليه فتجد الراحة ، هو ما كان ينقص فوست ، إذ أن عقله كان قد امتد إلى كل شيء ، ووسع كل معرفة ؛ وكان قد أنفق حياته بين الجدران منحنياً فوق صحائف الكتب دون أن يورثه ذلك يقيناً أو يجعله خيراً مما كان ، فأحس بفراغ لم يدرك كيف علاه .

فوست عقل طوي على القلب فأشقى صاحبه ، فحاول أن يقيم آثران نفسه ، وقد فقتت تلك النفس بفقدان آثرانها كل سيطرة على اتجاهاتها ، فأخذ يضرب في كل مكان ، يلتفت غداء لهذا القاب ، مندفعاً في كل ناحية اندفاعاً لا يتبين معه مواقع أقدامه . وعاد من شوطه

البعيد منتعلا دمه ، فنادر علنا إلى العالم الآخر على أجنحة من الخيال لم تلبث أن هيضت ، فسقط إلى الأرض حيث الحيرة الأبدية والجهل الذي لا حدود له ؛ وود لو انصرف عن نفسه إلى عمل مجيد يستغرق قواه ؛ ولكنه في تلك الرحلة أيضا لم يستن الروم من الحقيقة التي اختلطت أمام ناظره بالأحلام ، فكيف له إذا أن يستقر أو أن تهدأ له نفس ؟ ومن يدرى ! لعل إرادة الله قد قضت على البشر أن يظلوا في حيرة أبدية وقلق لا انقضاء له ؛ ولعل في ذلك ما يتميز به الإنسان ، ألا ترى الأمهات لا يلدن إلا وسط الآلام ؟ فكيف لمقل بشرى أن يدرك مسرأ أو يكشف النطاء عن لفر إذا لم تهزه المحن فتشخذ من قواه ؟

ولكننا نمود فتتسامل ؛ وكيف استطاع إذا فوست أن ينجو ؟ وكيف فتحت له أبواب السماء ، رغم ما كان في حياته من إصراف لاشك فيه ؟ وبقينا أن سر نجاته يرجع إلى ما تخضع عنه ذلك الإصراف من دروس . لقد علم فوست أن علما ييذر الشكوك في النفس علم لا خير فيه ، وأدرك أن الإحساس قد يكون لنا في الحياة دليلا أهدى من عقل دائم التمر في خطاء . ألا ترى إلى مرجريت على سذاجتها وضيق أفتها العقلي كيف سبقت فوست إلى رحمة الله تمهد له سبل السماء ؟ إليس ذلك لأنها آمنت بحبها فغفر الله خطيتها ؟ وهل أنت فوست ملائكة الرحمة إلا الآن حب مرجريت له لم يعدم أن مس نفسه فطورها من شروها وقربها من الله .

ولقد علم فوست أنه إن لم نستطع أن نحيا بنفوسنا تلك الحياة الأرضية التي قضى علينا أن نحياها ، فإنه لا ينفى لنا أن نستعين بعناصر الشر وأوهام السحر ، وإلا تراخت قوانا وقعدت القدرة على الاعتماد على نفسها . وإنه لخير لنا أن نشبع ما يثور في نفوسنا من رغبات بما منحتنا الطبيعة من قوى ، وأن نعرض عما لا نستطيع له تحقيقا ، إذ أنه من الأسهل أن نثير من أنفسنا لنلأم العالم الخارجي عن أن نحاول تغيير ذلك العالم لكي نخضعه لرغباتنا ؛ وساداتنا منوطه بذلك ؛ وهل استشرت نفس راحة إلا إذا استطاعت راضية أو كارهة أن تلأم بينها وبين ما يحيط بها من أناس وأشياء ؟

ولقد علم فوست أن المرء ضعيف بنفسه قوى بربه ، وسيان بعد ذلك أكان ذلك الرب ما يعبد المسلم أو المسيحي أو اليهودي ، أو كان تلك الروح الشاملة التي تحمل في الوجود ، كما كان يعتقد جيته . ولقد حدثت مرجريت فوست يوما عن الإيمان ، فسأته : أمؤمن هو بدين المسيح ؟ فلم يحجر جوابا ، وإن أخذ يصف لها حبه في ألفاظ ترعد بإيمانا . فأحست مرجريت — كأمراء تدرك بفطرتها أسرار النفوس — أن قلب فوست عامر بالإيمان ، وإن

لم يكن ذلك الإيمان وفق كتاب مقدس ، أو عقيدة مقررة .

ولقد تنطق عناصر الوجود أمام فوست فيحس فيها دينيا من روح الله ؛ ولقد تنطلق نفس فوست من سجنها إلى رحب الطبيعة ، فتحس كأنها تسبح في معبد أقيم لعبادة الله . هذا الإيمان الشائع في قلب فوست قدر شيوعه في الوجود كله ، هو سر مجانه ؛ ولكم تساقطت نفسه حطاما ثم عادت إلى النهوض بفضل ذلك البريق من الإيمان الذي لازم الحطام . أليس الإيمان بهذا المعنى الإنساني الشامل هو ما يحسك النفوس وقد علقت بين الأرض والسماء ؟

ولقد علم فوست أنه من الخير أن نضع لعقلنا حدوداً لا يمدوها . وإنه لتحضرنى الآن كلمة لمعيد كلية الطب يياريس قال فيها : « إن من إمارات ضعف عقلنا البشري ألا يستطيع الوقوف عند ما هو في متناوله ، وأن يتطلع إلى معرفة ما خلف عالنا المحسوس ، وإن من منبسط الأرض وحقائق الطبيعة ما يكفي لأن يشغل أكبر العقول ؛ فإنا نتناول إلى ما دون ذلك من أصل الوجود ومصدر الحياة وكنهه الله ؟ » وهل في هذا التناول إلا بذر للشك في النفوس وبلية للإيمان ؟ بهذا اقتنع فوست قبل أن يسقطين يدى إبليس بدقائق معدودات ، إذ فطن إلى أنه من الخير أن نصرف جهدنا في عمل منتج ، يعود علينا وعلى الإنسانية بالنفع . وإنه لأجدى على فوست وعلى البشر أن يقاتلوا البحر دون أرزاقهم من أن تتبدد نفوسهم في فضاء الأبدية .

ولقد علم فوست أن المرأة باب من أبواب الجنة ، وإليها تسكن النفوس ، فهي مصدر الرضا ؛ ولكم دعاها من قبل شعراء لتضع يدها المقدسة على قلوبهم الجريحة ، ولقد قادت « يياريس » من قبل « دانت » في فجاج الجنة ، ولقد قادت ابتسامة مرجريت فوست إلى جواربه . والمرأة عند فوست أو عند جيته رمز لقوتين كبيرتين : الحب والجمال . وقديما قال أفلاطون : « لو أن الحقيقة صيغت امرأة لأحبها جميع الناس » ؛ وهل أدل على ذلك من أن تكون خاتمة فوست تلك الكلمات الرائعة : « ها هو ذا عنصر النساء الأبدى يفتح أمامنا أبواب السماء » .

والآن قد نتساءل : هل تتمخض حياة فوست عن يأس أم عن رجاء ؟ ولقد نمود لنستعرض تلك الحياة ، فنجد أنها قد دارت حول ذلك الثالوث الذي طالما تقنى به أفلاطون 2 : ثالوث الحق والجمال والخير ، ثم ننظر فنجد أنه لم يصل لأى منها ، فنكاد نياس . ألم يضق نفساً بتلك المعرفة الزائفة التي نجدتها في بطون الكتب ، فاستنجد بروح الأرض — زوج

الطبيعية — أن تكشف له الغطاء عما تصبو إليه نفسه من أسرار الحياة والوجود ، وخشى ضعفنا البشرى يواجه به قوى الطبيعة ، فاستعان بالشیطان ، وجال خلال الأرض كما جال خلال النفوس ، بحثاً عن اليقين ، فلم يجد غير الندم والخسران ؟ ولقد هفت نفسه إلى مثال الجمال يلتمسه في هيلانة ، فلم يكده يظفر به حتى دلف من بين أصابعه كنسيم رقيق ؛ فكيف لنا إذاً أن نسى وراء الجمال وقد عجز الخيال نفسه عن أن يقيم هياكله ؟ ولقد اندفعت نفسه نحو الخير ، فأخذت الأمبراطور من محنته ، وانزعج من البحر أرضاً ودلوت الخير على العباد ؛ وإذا بثروة الأمبراطور وهم ، وإذا بمجالات البحر رجس من عمل الشيطان ؛ فكيف لنا إذاً أن نسى وراء الخير ، وما للخير من وجود في غير أوهام البشر ؟

إن في كل ذلك ما يدعو إلى اليأس ؛ فهل للإنسانية إذاً أن تولى ظهرها نحو ما ألفت من مثل عليا ؟ هل لها أن تهجر الحق والخير والجمال ؟ ذلك ما لا تؤمن به ، وما لا يمكن أن يكون الدرس النهائي الذي انجلى عنه حياة فوست . ودليلنا على ذلك أن حياته لم تضع هدباً ؛ وقد ارتفعت نفسه إلى جنات ربه ؟ وما ذلك إلا لأنه قد أحس بالحق والخير والجمال ، فجاهد في سبيلها ، وكان في جهاده هذا خلاصه ؟ نعم إن معنى تلك الحياة والأثر الذي خلفته خطى فوست على صفحات الزمن هو أنه علينا أن ندأب ما استطعنا في سبيل التل العليا ، وسيان بعد ذلك أأصبنا نجاحاً أم إخفاقاً ؛ فالجهاد نبيل في ذاته .

هاملت

Hamlet

(١)

همت كصورة لفنان كبير تلاحقك نظراتها أينما اتجهت . وكأنها تسألك : « أتستطيع أن تفهم من أنا ؟ حدثني عما تظن . ولا يهولك ما لطخت به يدي من دماء . وكلنا لاشك قد بلا من أحداث الحياة ما يعرف معه أن النفوس الخيرة قد تحمل على الشر ، وما أنا إلا مثل لطنيان الروح على الإرادة . ولو أنني بقيت على الفطرة كما خلقت لانتقم لوالدي في غير تردد ، ولكن بعد ذلك ما يكون من نصر أو هلاك ، ولنادرت الحياة غير خلف أراً إلا أن تكون إشارة مؤرخ مثل ساكسو جراماتيкус Saxo Grammaticus يسوق اسمي بين من يسوق من ملوك الدانمرك ، ولعله يذكر ما كان من محاولتي الانتقام لأبي . وكم في ثنايا التاريخ من أحداث كهذه طفا القليل منها على الزمن ، وهوى الكثير ، والناس بعد لا يشاؤون أنفسهم بما طفا أكثر من اشتغالهم بما هوى ؛ ولكن شكسبير قد خلقني خلقاً جديداً وأودع روحي من النفاذ ما لا أزال أشقى به . ألا ترائي أسلط العقل على ما يبيح في نفسي ، أتأوله بالتحليل فلا أعود من ذلك إلا بعزم مفلول ، فأثور على محاولة الفهم والاسراف في القول ؟ وكل تحليل تحميم ، وكل عزم لا بد مترخ ما أربى لمنه أفاظاً » .

هذه مأساتي . ولئن كانت النفوس الفطرية تشق بأوهامها فتعصب في كل شجرة لها "رغب ورهب" ، وفي كل نسمة روحاً تحمل الخراب أو العمران ، لأنها لا تستطيع أن تتدرك حقائق الأشياء فتتحرر من الوهم ، فأنتي لست بدونها شقاءً ، وقد نفذت روحي إلى كل شيء ، بل نفذت إلى حقيقتها : نفس خيرة ناطت بها الأقدار لإرافة السماء انتقاماً لأب كريم ، فكيف السبيل ؟ لقد سحت يوماً عندما كشف لي شبح والدي عن الجريمة صحيحة يأس : « لقد خرج الزمن عن مجراه ، وإنها لحنة قاسية أن يكون عليّ رده إلى ذلك المجرى » . فحسبت نفوس كبيرة كجيتته Goete « أن نفسي أصغر مما نيط بها ، ورأيتي كزهرية — لاشك ثمينة — ولكنها أضيق من أن تحتوى جذور شجرة عاتية ، وما أعدت إلا لريق الزهور . ونمت الشجرة فخطمت الإباء » . وأضاف جيتته أنني نفس لاشك جميلة خيرة ،

ولكنها أضف من أن تستقل بحمل كهذا ، بل أضف من أن تستطيع طرحه عنها ، وأننى قد كلفت السطحيل ، لا السطحيل فى ذاته ، بل السطحيل على طبيعى ؛ ورأى فيما كان من حيرى وترددى بين الإقدام والإحجام مأساة نفس لا تزال تأبته حتى تغفل عن قصدتها ، وكلما ذكرته ذكرت حقيقتها ، فطفت هذه على ذاك ، وأخفت معالها حتى يصير القصد سرايا ؛ وما استراحت النفس ولا هدا الفؤاد ، إلى أن ساقتنى أحداث الحياة سوقا إلى الهوض بما نذبت له .

ولكنى مسائل نفسى : أضف أن أردد فى سفك النماء قبل أن أستوثق من جريمة الجناة ؟ أضف أن أردد فى قتل رجل أتيته فإذا به يمد الله ؟ وهاك تفصيل ما كان :

عدت من فيتبرج Wittenberg التى تلقيت العلم بمجامعتها سنين طويلة ، إلى إلسينور Elsinore حيث علمت أن أبى قد مات منذ شهرين ؛ ونظرت فوجدت أن عمى كلوديس Claudius قد خلفه على العرش وأنه قد تزوج من والدتى جرتريد Gertrude ، ورأيت فى صرح عمى ووالدتى وتكالبهما على الحياة وعدم ذكرها لوالدى أو الحزن لوفاته ما تنص على عيشى وألقى الاضطراب فى نفسى ، فاستشعرت وحشة غريبة ، وكأن أسراراً غامضة تحوطنى أبنا انجعت ، حتى كان يوم ظهر لى وسط ظلام الليل ، وأنا بصحبة أحد الأصدقاء ونفر من الحرس ، شبح والدى فكنت أصعق . وقد أخبرنى الشبح بما وافق لإحساسى الغامض ؟ أخبرنى أن عمى قد سكب السم لوالدى وهو قائم بالحديقة ، وأن والدتى قد قبلت الأمر الواقع واستبدلت راضية رجلا برجل ، ثم طلب إلى أن أثار له بقتل كلوديس ، وأما والدتى فقد حذرنى من أن أمد إليها يداً بسوء .

صدعت بالأمر وعقدت الهم على الثأر ، ولكن كيف السبيل ؟ ومن حولى رقباء أيقاظ لم أر معهم بداً من أن أتصنع الجنون . وأوجس اللك خيفة من جنونى هذا ، فأخذ يعمل بكل ما يملك من حيلة لينفذ إلى أسرار نفسى ، وقد اتخذت من الجنون ستاراً أتر من خلفه كل حقيقة برة ؛ ودس الجرم على عيونه يتسقطون نجوى فؤادى أو يحتالون لإطلاق مكنون نفسى . بكم قاسيت من أن تكون أوفيليا Ophelia الحبيبة بنت پولونيس Polonius كبير أمناء الملك — من بين تلك الميؤن ، وفطنت إلى تلك اللسائس فالتفت على الرقباء مكرهم ، وسخرت من حيلهم ؛ وما ضقت بهم فى شيء ، وإنما آتأت الضيق من نفسى ، وما أنا بالرجل الساذج الغفل ، حتى أركن إلى شبح رأيتة ؛ وماذا كنت أترك لبعطاء النفوس لو أن الشك لم يتسرب إلى عقلى فيحملنى على أن أضع حديث الشبح موضع النظر والتجربة ؛ وقلبت وجوه

الرأى فلم أر خيراً من أن آتى بممثلين يمثلون أمام الملك والملكة رواية جريمتهم لأرى أثر ذلك على وجوههم . وكان ما توقعته فلم يطق الملك صبراً على رؤية جريمته ، وأسرع إلى الانسحاب والربع يملأ نفسه ، وتبعته الملكة التى أرسلت فى طلبى ؛ وكان بينى وبينها حوار عنيف لم يؤلئى منه إلا أنه كان بين ولد وأمه .

دار الحوار بينى وبين أمى فى حجرة تغلق أحد جوانبها ستارة ضافية ، وبلغ من عنف الحديث أن اشتط فى النفيظ حتى لم أعد أملك نفسى ، وقد تحققت من الجريمة ولم يعد للشك مجال . وانسل إلى سمى خفيف الستارة وأحسست أن من خلفها شخصاً يتلقت الحديث ، فهجمت عليه بسيفى هذا ظاناً أنه الملك ، وكم كان أسقى عند ما نظرت إليه مضرباً بدمائه فإذا به پولونيوس ؛ وعلم الله كم كان حزنى لقتل هذا الرجل لأنه فى نفسه جدير بأى محبة أو تقدير وهو يد الدس التى أرسلها الملك فى أعقابى ، ولكن لأنه والد ذلك الملاك الطاهر ، والد أوفيليا التى أحبها قلبى كما أحببتى .

أسقط فى يد الملك وزادت مخاوفه ، وقد أحس بالموت يرفرف فوق رأسه ؛ ولما كان يعلم مبلغ محبة الشعب لى وقوة الشبهة التى تلابسه ، كما كان يحرص على رضا أمى ، لم ير خيراً من أن يمتثل على قتلى ، فأرسلنى رسالة إلى ملك إنجلترا مع رجلين من رجال البلاط ، وبالرسالة أمر لذلك الملك أن يقتلنى بمجرد وصولى ، فإن لم يفعل فالويل له ؛ وكان رفيقاً رحلتى يعلمان ذلك ، وأما أنا فقد أوهمنى النادر أنه يرسلنى إلى إنجلترا حرصاً على حياتى بعد أن قتلت كبير أمنائه ؛ وكان من حسن طالى أن توقعت غدره ، فغافلت رفيقاً الخائنين وفضضت الرسالة لأخو اسمى وأضع اسميهما محله ، وكان أن وقعت سفينتنا بين أيدى قراصنة نجوت معهم بنفسى لأعود إلى الدماركة ، وأما الرجلان فقد وصلا إلى ملك إنجلترا حيث لقيا حتفهما .

عدت ولكن لأرى وأسمع ما ينظر له الفؤاد ، فقد جنت أوفيليا لقتل أبيها على يد حبيبها ؛ وفيما هى تجمع الزهور إلى حافة الهر تردت فيه فأت غرقاً ؛ وفيما أنا عائد وسط المقابر حيث كان لى حديث حزين عن مصائر البشر مع الحفارين رأيت حفلاً مهيباً لم أثبت أن علمت أنه جنازة أوفيليا ، ورأيت أخاها لايرتس "Laertes" وقد ثارت ثورته وانمقد عزمه على أن ينتقم منى لأبيه ولأخته ؛ ورأها الملك فرصة سانحة ليستوثق من هلاكى ، فدبر نزلاً بينى وبين لايرتس على أن تكون حربة خصمى مسممة السنان ، وزيادة فى الحيلة أعد كلاً دس فيها السم لأشرب منها فيما لو أخطأتنى ضربات الخصم . وكان النزال ، وأصابنى لايرتس بضربة قوية ، ولكنى تمالك من نفسى وهويت عليه بكل جسمى فسمقت حرايبنا ، وتناولت

مسنرا حربة كانت حربته وطعته بها طعنة أشد من طعنته ، وأسمرت الملكة إلى شرب نخب ولدها فسقطت صرينة ، وسقطت ، وسقط لا يرتس . ولكن منازل النبيل لم يكذب صار حتى بحقيقة المؤامرة ، وقد صفت نفوسنا على قبر أوفيليا أمام الموت والسماء المراقبة ، حتى عادت إلى قوای فهضت وبذراعى المتخاذلة موتاً ضربت الملك ضربة بأس أتت على حياته لساعته ، ثم أسلمت أنفاسى وآل ملك الدانماركة إلى ملك السويد الغازى .

نعم ذلك ما كان من هملت ، وقد ساقته الأقدار إلى إراقة دماء أراقها بالفعل سمية في القرن الثانى عشر ، أو كان يستطيع إراقتها بقلب ثابت غفل وضمير صامت لا يعرف الندم . وأما هو وقد أعاد شكسبير خلقه من جديد فى عصر البحث العلمى ، وقد تبدل الزمن فأرسلت المسيحية نور الإيمان فى القلوب ، وهزت أوتار الضمائر ، وجاءت الجامعة فزادت بهدها الطويل نفسه ليناً ، ومدت من آفاق تفكيره ، فكيف له ألا يتردد ويناقش نفسه الحساب مرة ومرة ؟ إنه لمن الطبيعى أن تحجم نفس مهذبة كنفسه ، فى عصر النور ، عن ارتكاب جرائم ارتكبها سلفه أيام الظلمات . وإنه لمن الطبيعى أن يتخذ شكسبير من هذا التعارض بين حقيقة نفسه وشناعة جرمه موضوعاً لأكبر ما تصورت العقول من مأس ، ونحن لا بد متساثلون عن مبلغ ما حمله خالقه المبقرى من مرارة نفسه ، وقد استوت ملكاته وسط أزمة نفسية ما تزال إلى اليوم حائرة فى فهم سرها ومداهها ، وإن طالمتنا فى أكثر من مقطوعة من شعرة الفنانى (سونت Sonnets) التى يدور حول ذلك العام ١٦٠٤ .

وفى الحق أن هملت لم تنقصه الشجاعة ولا نقصه العزم ، وقد قبل أن ينتقم لأبيه بقلب ثابت ، ورأى فى هذا الانتقام واجباً مقدساً . ألا تراه يخف إلى لقاء أبيه وقد فرقت قلوب الرجال من حوله وتعلقوا به أن يحسك عن السير وراء الشبح عند ما لاح له طالباً أن يتبعه ؟ وكيف يتراجع وهو القائل : « سأحدث إليه إن ظهر فى صورة والذى النبيل . سأحدث إليه ولو انشقت أمامى أفواه جهنم تصيح بى أن أزم الصمت » . وظهر الشبح ووجه إليه هملت الحديث ، وأوماً إليه الشبح بالسير خلفه فسار ؛ وما إن حاول رفاقه أن يشنوا من عزمه حتى صاح بهم : « فىم الخوف ، والحياة عندى لا تساوى قلامة ظفر ؟ وأما عن رضى فىأى أذى يستطيع ان يصيبها وهى مثله خاللة ؟ آه — ها هو يوصى إلى من جديد . وإلى لساتر فى أثره » .

نعم هملت شجاع ، وله من الشجاعة كل مظاهرها ، حتى لقد يوصى نفسه بالهدوء : « هدموا أيتها النفس . إن الجرائم لا بد ظاهرة إلى وضوح النهار ، ولو غطها الأرض

قاطبة لتخفيها عن أعين الناس . هدى أيتها القلب . . . » .

ولكن حماسة — سوء الطالع — لا تلبث أن تبدي خطباً . تراه يتلقى مهمته من فم الشيخ بخطبة عنيفة يخشى أن تكون قد استنفدت كل ما في قلبه من حرارة ، فيتناول قلباً وقرطاساً ليدون وصية الشيخ له « بأن يذكره دائماً » حتى يراها أمام عينيه ، فيضمن بذلك أن تتبع الأفعال الأقوال :

« يا أرواح السماء ! أيتها الأرض ! وأنت يا . . . ماذا أضيف ؟ أضيف جهنم ! آه ! تماسك أيتها القلب . وأنت أيتها الأعصاب حذار أن تدركي الشيخوخة لساعتك ! هيا ارفعي من قامتي ! أذكرك ؟ ! نعم أيتها الشيخ السكين سأذكرك ما احتفظت الذاكرة لها بمكان تحت هذه الججمة الحائرة ! أذكرك ؟ ! نعم سأذكرك ! بل سأخبر من ذا كرتي كل ما علق بها من أحاديث الهوى التافه أو قضايا الكتب ! سأخبر منها كل صورة وكل ذكرى للساضي خطها شباني أو تلقها حواسي ، غير تارك على صفحات ذهني إلا وصيتك منفردة عن كل ما يحوطها فيحط من قدرها . نعم بحق السماء . أيتها المرأة الخبيثة ! أيتها الوغد الجرم المقضي عليه بابتسامة نفاق لا تزول ! إلى بالواسي . إنه لمن الخير أن أدون بها أنه من الممكن أن نتسم ونبتسم دائماً ، ولا نكون رغم ذلك غير أوغاد . إنني لملي ثقة من ذلك ، على الأقل بالدائركه . (يكتب) هاتذا عمي ! والآن إلى قسمنا . (وداعاً وداعاً . أذكرني دائماً) وهانذا آخذ من كلمتك هذه قسمي » .

أي عنف أشد من عنف هذه النفس القوية ؟ وأي قول أحج من هذا القول ؟ ولكنها نفس بائسة نظرت إلى أعماق نفوس البشر فلم تر إلا ظلاماً ، وارتد بصرها إلى مكثونها ، فأنخذت منه وقوداً لسخنها . ولكم تار هملت على نفسه ، ولكم خطب ضد خطبه . ولقد أتاه يوماً ممثلون يحاكون ما كان من حزن إيكيبيا Hecuba ملكة طروادة لموت ولدها البطل هكتور ، ويفرفون مثل ما ذرفت من دموع ، فإذا بتلك الدموع كأنها سياط تلهب من نفس هملت : « آه . يالي من نذل مسف القواد ! يا للمار ! هذا المثل يستطيع بمجرد التصور أن يحيا حلماً من الإحساس ، فيرغم روحه على أن تجاري خياله ، فيتمثل له الخيال حقيقة ، حتى ليشجب لونه وتتساقط منه الدموع ، وكل ذلك لتبر غاية ! أكل ذلك من أجل إيكيبيا ؟ ! وأي صلة بينه وبين إيكيبيا أو بينها وبينه ؟ ! وماذا كنت تراه إذأ فاعلاً ، لو أن ألي كان أله ؟ ! . . . »

« أي نذل أنا ! وكيف لا أكونه ، وما هو قلبي المثل كالطمي يفرسني هنا في مكاني

شبحاً ينتظر وحى السماء ، وقد تقاعدت عن غايى ! إن اللسان لينعقد فى فمى ، ينمقد عن
التحدث عن ملك كريم سلبته يد أئيمة تاج للملك ونعمة الحياة . أجبان أنا ؟ ... »
« ... إنه لمن الواضح أئى لا أحمل غير كبد حمامة ، وأن هذه الكبد قد عريت من
حمارتها تجابه بها الظلم كما يبنى أن يجابه ، وإلا لأشعبت منذ زمن بعيد بطون الطيور الجارحة
بجثة هذا الوغد الحقير ! أيها الوغد الملطخ بالدماء ! أيها الوغد الفاسد الطبع الفاسد النفس !
أيها الضمير الميت ! آه ! الانتقام ! آه ! أى حمار أنا !! يا لها من شجاعة ! شجاعى تلك
التي تدفنى أنا الإبن الذى مات أبوه العزيز قتلاً ، وصاحت به جهنم والسماء : إلى الإنتقام ،
ثم ها هو يهذى من ثورة قلبه باللفظ للسرف ، يُبهد قواه لعنات كندل حقير ! ما هذا ؟ !
ما هذا ؟ ! إلى العمل ! إلى العمل ! توثبى أيها الروح ؟ » وكيف لتلك الروح أن تتوئب
وقد انحل عزمها ثورة ألقاظ ؟

واستمر هملت فى شقائه النفسى . ولكم من حدث آثاره ضد نفسه . أولم يرىوما ملك
السويد الشاب يجتاز أرض الدنمرك ليصل إلى پولونيا ، ينتزع من أهلها بضعة أميال من
أرض جديده فصاح : « أنسيان كنسيان الحيوانات ؟ أم تخرج الجن ، حين نفس تطيل
الإيمان فيما تريد أن تأتى من عمل قبل أن تأتية فتضطلمه إلى أفكار ربها حكمة وثلاثة أرباعها
جين . وفى الحق إئى لأتسامل : فيم توفى الآن ؟ أحاسب النفس : أينبنى أن أفضل هذا
أو ذاك ؟ وفيم التساؤل والقصد واضح ولى من الإرادة والقوة ووسائل التنفيذ ما يمكننى
من إنفاذ ما أريد ؟ ... كيف أهاعس أنا الذى قُتل أبوه ودُنست أمه ، وفى ذلك ما يكفى
لإثارة كل حفيظة وتحريك كل نفس ؟ وهام آلاف الرجال يسرون إلى قبورهم وكأئما
يسير كل إلى فراشه ، والموت معلق فوق رؤوسهم ، وكل ذلك من أجل وهم خادع ومجد
باطل يلتمسونه من الاستيلاء على قطعة من الأرض تضيق عن أن تسع لخطام أو أن تضم
جثتهم . آه ! لتكن روحى من الآن فصاعداً دماً أو لا تكون شيئاً » .

هذا هو هملت كما يرى نفسه . وإنها لرؤية غيفة ، وإن فى عنف قوله لأوضح دليل على
ما يشير هذا القول فى قرارة نفسه من خزى . أو ما تراه يظنم بالألقاظ وقد عز الطرس
بالسنان ؟ يا له من مشهد مؤلم ، ذلك الذى زاه فيه يكيل لوالده السباب وقد أعفاه شبح
والده من أن يثار له فى شخصها ! وإنه لتفتيط بذلك الإغفاء ، وإن تكن غبطته على غير
وعى منه . ومن عجب أن يتكالب على قتل أمه بقامنى اللفظ ، وقد أسره أبوه أن يترك لها
الحياة ، بينما يتوانى فى قتل الملك المجرم الأسيل . ولكن عنف نفسه يلتبس له غرجا ،

فيتبخر ألفاظا ، حتى تكون مناسبة أخرى تحفره إلى العمل ، ولولا تضافر الأقدار ما ارتكبت تلك النفس جرماً قط .

لقد قيل إن هملت متردد ، ولكننا نسأل عن معنى ذلك التردد ؟ وقد استمعنا إلى أقواله فلم نجد — وهو اللبق النافذ البصيرة — يحاول أن يفتح نفسه بالمدول عما كلفه به شبح أبيه من انتقام . وإذا كان هذا شأنه فكيف لنا أن نسمه إذا بالتردد ؟ إن عزمه ثابت منمقد ، وإنه لو فُي غلص لما يريد . ولكنه للروء من العزم إلى التنفيذ ، ومن الإخلاص إلى العمل لا بد من عبور هوة سحيقة تتطلب قوة لا نحسب أنها تموز هملت ، ولكنه منلول الأيدى بقوة أخرى لو أنها أتته من الخارج لحطمها شطايا ، ولكن كيف السبيل إلى الخلاص ، وقيوده من نفسه ؟

(٢)

لقد كان على هملت المهذب النفس النبيل الخلق الواسع الإدراك ، أن يرتكب جريمة كانت ترتكب في عهود الجاهلية الأولى ، ولقد ترتكب اليوم ، ولكن من نفس غير نفسه . ولكم تحدث إليه عمه القاتل المجرم عن قواعد الأخلاق وما يطلب إليها من أن تكون لمة الحياة الاجتماعية تمسكها عن التفكك والانحيار . وإنه ليعلم ففاق ذلك المم الذى داس تلك الأخلاق تحت أقدامه عندما كان فى ذلك نغمه وهوى نفسه ؛ ولكنه رغم ذلك لا يستطيع الإفلات من تلك القيود التى درجت عليها طفولته وشبابه ، فهو تأثر خاضع لا يدري أى سبيل يسلك . وقد ألت إليه تربيته الأولى ، وتفكيره المتصل ، والكتب الكثيرة التى قرأها فى سنى دراسته الجامعية الطويلة ، بماعى العدل والحرص على التمكن من الحقيقة ؛ ولكن كيف له أن يصل إلى ذلك والجرائم من حوله تحاك خيوطها غدراً ، وقد تلفت النفوس بما يصطخب فيها من كذب ومكر وخداع ، حتى أصبح العدل حلاً ، وأضحت الحقيقة وهما ؟ ولكنه رغم ذلك متسائل : ترى أصدق الشبح ؟ وهل من العدل أن تقتل نفساً بشرية لما سمناه من ذلك الشبح الذى لم نره إلا وسط غياهب الظلام ؟ لهذا تردد هملت وأرجأ الانتقام إلى أن يستوثق من جريمة المجرم فى حفلة التمثيل التى دبرها أمام أمين الملك والمملكة الناهلة المضطربة . وكان هذا إرجاءه لتنفيذ ما اعترم ، وما جريرته فى ذلك وقد خلق كألست Alceste .

يأتى الإياء كله أن يصدر عن غير الحق والإيمان ، فإذا أعوزه اليقين فلينظر وليكن ما يكون . وما إن ظفر بما يبنى من قمة حتى أسرع إلى والدته ينفها بأمر القول . وما إن أحس بحركة

خلف الستار حتى انقض على من خلفه يقتله ، فإذا به لموء الطالع پولونيوس Polonius لا الملك نفسه . وتأبى عبقرية شكسبير أن يقتل هملت وجها لوجه ، بل من خلف ستار ، حتى لكأن تلك النفس المهذبة تسمو عن أن تريق الدماء مُسْفِرة .

ولقد تتعد الأمور فيتوقف هملت عن إنفاذ عزمه ، لا لوهي من ضميره ، ولا لحرص على الحق والعدل ، بل لإحساس ديني عميق ، إحساس الرجل الذي يعلم أن العبد أقرب ما يكون إلى ربه وقت الصلاة ؛ ولقد رأى هملت قاتل أبيه منفرداً في الصلاة ، وكانت فرصة سانحة للإجهاز عليه ، ولكنه لم يفعل . وهالك حجبته :

« ها هو يصل . إن باستطاعتي الآن أن أرسله إلى العالم الآخر . وإنى لفاعل ذلك . . آه ! إذا لذهب إلى الجنة ، ولكان انتقاماً عجيباً ! لنفكر في الأمر : يقتل مجرم أبى ، ثم آتى أنا ، ولله الوحيد ، فأرسل هذا المجرم إلى الجنة ؟! يا لله !! إن هذا ليس انتقاماً ، بل مكافأة طيبة على جرم فظيع ، لقد قتل أبى بقسوة وحشية ! وقد أنهله المضم فنام ، وتناثرت من حوله خطاياهم كما تتناثر ورود الربيع ؛ وأما عن حساب كيف قدمه بين يدي ربه ، فذلك ما لا يعلمه إلا الله ، وإن كان أكبر النظم أن حسابها جاء عسيراً ؛ ثم آتى أنا فأعتقد أني قد انتقمتم له بقتلي هذا الرجل وهو في سبيل تطهير نفسه ، وقد أخذ يدها لرحلتها الأخيرة أحسن إعداد ؟! لا . إلى النمد أيها السيف حتى تحين لك ضربة أشد من هذه هولا ، عندما يكون سكران أو ناعماً أو مقامراً أو ساخطاً على خالقه ، أو معنياً بأمر لا يحمل ذرة من الفضيلة التي تنجو بصاحبها ، عندئذ يحق لك أيها السيف أن تضربه ضربة تجمعله بصمد إلى السماء بأعقاب أربجله ، فهوى نفسه وقد تكاثف بها من الظلمات قدر ما يتكاثف في جهنم » .

وفي الحق أنها لحجج غريبة معقدة . فيها رقة الإيمان ، وفيها قسوة الرغبة في انتقام مر . وكان هذا إحجاماً آخر عن تنفيذ ما اعترم .

كل هؤلاء مشاعر نفسية تموق هملت عن العمل ، وفي بصيرته من الوضوح ما ينير جوانب نفسه ، ولكنه ضوء يكاد يمشي الأبصار ، هو ضوء الهنيان ، ضوء نفس قد فتحت أمامها أبواب العالم الآخر فرأت أشباحه فاستحالت حياتها حلماً مستمراً لا يراه أحد غيرها ، لأن أحداً لا يشاركها تلك الحياة ، فهي فريدة في بابها . وهل أدل على ذلك من حديث أوفيليا Ophelia عنه وقد لا تأها بهو القصر : « لقد أخذني من معصمي وضغطه ضغطاً قوياً ، ثم ارتد عني إلى الخلف ظول ذراع ، ورفع يده الأخرى مفتوحة فوق حاجبيه فيما يشبه حافة القبعة ، وأخذ يحرق في وجهي بإيمان حتى لكأنه يريد أن يصورني ، ومكث وقتاً طويلاً في

هذا الوضع ، ثم هز ذراعي قليلا ، ورفع رأسه وخفضه ثلاث مرات متتابعات ، هكذا ، وأرسل زفرة حزينة عميقة خلّتها قد هزت كيانه وذهبت بروحه ، ثم خلى سبيل وسار عني ورأسه ملتفت إلى ، واستمر في السير بغير حاجة إلى عينين تديران له الطريق ، وبصره ملق بى ضياؤه حتى اختفى .

وظنت أوفيليا به الجنون ، ولكننا لا نعلم بمدى أكان مجنوناً حقاً أم هو هذيان نفس محمومة ! بل من يدرينا ؟ لعل موقفه هذا من أوفيليا كان إسرافاً في شعور حقيق أراد منه إلى إقناعها بما تصنع من جنون يتخذ منه وسيلة إلى الإفلات من رقابة تلك الميون التي بنها من حوله عمه الملك والتي كانت أوفيليا إحداهما ، إذ أوهما أبوها والملك أن هملت قد جن بسببها ، وأن من واجبا أن تقوم عليه ، وأن تخبر عما تلاحظه من أعراض شاذة يجب أن يسارع الكل إلى علاجها .

وفي الحق أن هملت قد وجد في تصنع الجنون شهوة عجيبة ! لقد خيل إليه أنه يحيا حلماً مستمراً ، أو يلعب دوراً أخذاً ، وإن روحه لروح فنان تمسّق الفن وتقى فيه ؛ وأى متعة أجل من أن تصنع الجنون لنقول كل حق ونحطم كل موازنة ، ونغلق الوجود بكل قول لاذع يكشف عما في الأشياء والناس من قبح لا شك فيه ؟ وإن في قول هذا الجنون لحكمة تنطق الأبله بولونيوس بقوله : « عجيب ما في إجاباته أحياناً من عمق ! ولكم جرى الجنون بحكم يعجز القل والمافية عن مثله » . أى نشوة تعدل نشوة هملت ، وقد أخذ يهذى حتى لاح هذيانه حكمة ؟ ترى أيكفينا إذاً أن نسمو فوق منطق البشر البتذل وعدهم الموتور وحقاتهم الزائفة لنلوح بمجانين ؟

إن في تصنع هملت للجنون لمعجبا ؛ حتى ليحسب الحق ضحكاته تكشير مجنون عن أنيابه ، وهي بدء سخريه رجل ممتاز من حماقتهم . أو لا ترى إلى أحد رجال البلاط وقد أخذ يحتال عليه ليعرف سر نفسه فلم يحظ منه بجواب غير هذا .

هملت — أتعرف كيف تلب على الزمار ؟

رجل البلاط — لا يا سيدي ، فاعلمت اللعب على هذه الآلة .

— ولم لا واللعب عليها أسهل من الكذب ؟ ما عليك إلا أن تضع بإحكام أصابعك

وابهامك فوق تلك الخروق ، وأن تنفخ في الناب ثم تستمع إلى موسيقى عذبة . انظر ! هاهي المفاتيح !

— ولكنى يا سيدي لا أستطيع استخدامها بحيث تعطي صوتاً منسجماً ، وذلك .
مالم أوهبه .

— إذا رأى نظننى ؟ تريد أن تتخذنى العوبة لك وقد لاحت عليك رغبة فى معرفة مفاتيح نفسى ، تحاول أن تصل بها إلى سرى الدفين ، وأن تحمل أوتار روحى على أن تعطى نغماتها على طول السلم ، ثم تعجزك هذه الآلة الصغيرة ، فلا تملك أن تحملها على أن تجود بما لديها من نغمت عذاب ؟ أنظن إذاً أنه من الأسهل أن تلعب بى عن أن تلعب بالزمار ؟ وأحس هملت فى هذا الحوار . وأمثاله — وما أكثر ما حاور — بضرب من التفوق على الغير ، تفوقاً وجد فيه من الرضى ما طامن من سخطه على نفسه وضيقه بتقاعده عن العمل . وكيف لا يطرب للعب بالأفكار والتغلب على الرجال وقد نمت ثقافته نمواً حمله على التحمس لكل فكرة يرسلها سافرة أو يطورها مستترة خلف ما ينشر فوقها عامداً من أغشية الجنون . هملت من رجال الفكر ، وهملت فنان يلعب دوراً ، وقد انغمس فى الأفكار كما انغمس فى الدور الذى يلعب ، فألهاه ذلك عن واجب العمل .

أو ما ترى عند ما يطول عهدنا بالدرس فنستمر فى قلب الأفكار بعد أن يكون عهد العمل قد حان ، كيف أننا نفقد القدرة على العمل السريع الحاسم ، ونفق أوقاتنا فى التفكير فيما نعمل ، أو ما نريد أن نعمل ، نتناوله بالتحليل وتحديد ما بينه وبين أنفسنا من علاقات أدبية ، وبين قواعد الأخلاق ومواضعات الجماعة ؟ وكذلك كان هملت ، فقد اتخذ من التفكير فيما يمرض له عيداً من أعياد الذكاء ، وإنه ليحلو له أن يقيم من كل جزئية حكماً عاماً أو مبدأ شاملاً ، وإنه لير عند عودته من أمجلترا بإحدى المقابر ، فيتمهل لبيال الحفارين حواراً عن مصائر البشر ، فيه من العمق ما يفزع ويعلأ النفوس مرارة ! أو ما تسمع إليه يتحدث عن الأسكندر الأكبر ، وقد ذكره به ما يرى من مجاهم .

« مات الإسكندر ، ودفن الإسكندر ، وارث الإسكندر تراباً . والتراب من الأرض ، ومن التراب يصنع الملائك ؛ ولكن لم إذاً لم يستخدم ذلك التراب فى سد برميل بيرة بدلا من خلق الإسكندر » .

وطال بهملت هذا التحليل والبحث وراء الممكنات — مقدمات ونتائج — حتى شقيت حياته وتفككت ، وحتى لم يعد يعلم ماذا يأتى وماذا يدع ، بل ما سر وجوده فى هذه الحياة أو حرصه على البقاء بها ؛ وتلك حالة نفسية يستحيل أن نعمل معها شيئاً . ومن منا لا يذكر نجواه المروعة :

« كيف السبيل ؟ أموت أم حياة ؟ ! ذلك موضع النظر ، وما ندرى بمدى أيهما أنبل : أن تلقى صاغرين سهام القضاء الجارحة ، أم نهض لأمواج المحن ندافها فندفعها ؟ وهل

الموت إلا نوم يضع حداً لآلام القلب وجراح الجسم التى لا عداد لها ؟ أليس فى ذلك ما يفرى ؟ الموت نوم قد تتخلله الأحلام ؛ ولكن آه ! ترى أى أحلام تكون وقد طرحنا عناء الحياة ؟ ذلك ما يدعونا إلى التردد ، وإن يكن فيه ما يعد من أجل محتنا ، إذ من هذا الذى يستطيع أن يحتمل سياط الزمن وازدراءه وظلم الظالمين وصلف الكبرياء ، ووخزات حب عاثر ، وبطء تحقق العدل ، ووقاحة ذوى الأمر ، وإعراض من دوننا قدرة ، وهو يعلم أن باستطاعته أن يضع حداً لكل ذلك بضربة سيف ؟ ! ! من هذا الذى يقبل أن يحنى ظهره للأتقال وهو يئن ويتصعب عرقاً من عبء الحياة لولا خوف ما بعد الحياة ؟ ومن بعدها بقاع مجهولة لم يعد منها مسافر قط ، خوف يفل منا الإرادة ، فنفضل راضين آلاماً نعرفها على آلام نجعلها » .

وهكذا ما يزال هملت ينغم النظر فى الحياة ويستوضح كنهها ، بل وما بعد الحياة ، حتى تتساقط من نفسه كل القيم ، ويدلف إلى الإيمان بالعدم المطلق إن كانت نفسه لا تزال تستطيع إيماناً . ألا تراه ينكر لذلك الحب الساذج الذى خيل إليه يوماً أنه مؤمن به راض عنه مطمئن إليه ؟ ! استمع إليه يخاطب أوفيليا التى طالبا سألها أن تدعو الله فى صلواتها أن يفر له ما أخطأ فيه :

« إلى الدير فى حرصك على أن تصبرى أما لآتين ؟ ! ها أنا فيما أظن رجل شريف ، ومع ذلك فباستطاعتي أن أنهم نفسي بأنام بخيل إلى ممها أنه ربما كان من الخير أن لم تلدى أبى . وأنا رجل مسرف الكبرياء ، مأخوذ بشهوة الانتقام وزغات الطموح ، رجل قد أخذت بتلاييه مغريات بالشر أكبر من أن يحتويها فكر أو يتصورها خيال أو يتسع لتحقيقها زمن . . . أى تقع يرتجى من رجل مثلى زحف بين الأرض والسما ؟ ! إننا جميعاً أوغاد جبناء . حذار حذار أن تتق بأحد منا ! هلى ! حتى الخطى ! إلى الدير ! إلى الدير ! » .

أى سهرارة أسمى من تلك ؟ ! وماذا يستطيع رجل ففنت بصيرته إلى أعماق الحياة فلم ير فيها إلا ظلاماً ؟ ماذا يستطيع رجل حطم عقله حياته ؟ ! ماذا يستطيع رجل فقد الثقة فى كل شئ ؟ !

هنا بلغت مأساة هملت أقصاها ، وقد آمن أن لا خير فى الحياة ، ولا خير فى وجوده بها . وإننا للتمسكون له المنذر . فتشاؤمه له ما يبرره ، وإنه لتشاؤم نفس كبيرة !
هذه مأساة هملت ؛ ولكم كثرت من حوله الأقاويل : فن قائل إنها مأساة جنون ،

ومن قائل إن هي إلا شهوة انتقام ، ولكم اتهمه قوم بالمعجز والتردد . وفي الحق
لإنهم لخطئون .

ليست مأساة هملت شيئاً من كل هذا ، وإنما هي مأساة رجال الفكر ، أولئك الذين
انقسمت عقولهم لكل شيء ، فنفتت بصائرهم إلى حقائق الحياة ، وتشتت بهم أوجه الرأي
فتحطمت بين أيديهم حياتهم التي اتخذوها موضعاً للدرس والتحليل . ألا ترى إلى بسطاء
الناس كيف لا يرون من الأشياء إلا جانباً واحداً ، فيسرعون إلى تنفيذ ما اعترضوا ، بينما
تلوح العقول الكبيرة في كل أمر ألف جانب وجانب ، فما تزال أحياناً حائرة مترددة حتى
تقف في مكانها إلا أن يكون قضاء محتوم .

ألسست

Alceste

ألسست بطل كوميديا لموليير اسمها « عدو البشر » ، ولكن هذا العنوان لا يستنفد كل ما اجتمع لتلك الشخصية من صفات وإلى اليوم لا يزال الناس يختلفون في الحكم على هذا الرجل : فبعضهم من يؤيده وبعضهم من يضحك منه . وفي الحق أنه لأمر شاق أن نعرف أى الطريقين نملك : أنحيا حياة ألسست موطدين العزم على ألا نقول إلا ما نؤمن به ، بل وأن نقول كل ما نؤمن به ، ولو كان في ذلك شقاؤنا ، وأصبحنا به موضع سخيرة الناس أجمعين ؟ أم نصانع الناس وندارهم ونزل على مواضعهم الاجتماعية مهما يكن خلفها من ملق ونفاق كما فعل « فيلانت » Philinte صديق ألسست في نفس المسرحية ؟

ولو أننا سألنا موليير نفسه جواباً لحيرتنا للزم الصمت قائلاً : « دونكم وقائع الرواية ، انطقوها بما شئتم ، فإنا إلا مصور بالقلم ، وقد أتيتكم بصورة من الحياة ، لي فيها من الفضل ما لكل مصور في اختيار الموضوع وتوزيع الظلال والأضواء وتحسس كل لون دال . ولو أنني كنت على بصيرة من حكم أستطيع أن آتيكم به لفعلت ، ولكني مثلكم حائر لا أدري أى سبيل أسلك ، فيالكم من كسالى ! لقد فتحت بصرى على الحياة فرأيت ألسست يتخطى خلالها ، ورأيت الناس يضحكون منه ، وإن يكن في خلقه وفي قوله ما يدعو إلى التفكير العميق ، وحاولت أن أتخذ منه موقفاً يحمل حكمى عليه أوله فلم أستطع ، ولهذا أتيتكم به لتروا ما رأيت ، ولكم أن تحكموا بما تريدون . وأما أنا فلا أطلب إليكم إلا أن تمفوني من المصارحة برأى ، فقد رأيت المصارحة تودى بأهلها إلى التهلكة . ولا أزال أذكر ما كان من تكالب رجال الدين ضدى عند ما عرضت على الجمهور أمر ذلك القسيس « تريف » الذى هداه نفاقه إلى استغلال سذاجة البشر أشنع استغلال ، فهاجت ثأرتهم ، وكأني بكل منهم ، شأن من لا يثق بنفسه ، قد خشى أن يكون هو ذلك القسيس . وأنا الآن في أزمة نفسية تكاد تهد كيانى ، فها هي زوجتي تحتمى وراء الجاملات الاجتماعية لتثير في نفسي الفيرة تكويين بنارها كيا . ألا دونكم ما كان من أمر ألسست ، فاقضوا فيه بما ترون ، وأما أنا فيكفيني جهداً ما كان من رؤيتي ما هو واقع تحت بصرنا كل يوم ، وما كل مبصر بصير . »

ولكننا قد نمود ففسأل : ترى كيف يعرض مولير ألسنت عدوا للبشر ، وتلك جرعة شنيعة ، ثم لا يعد له من جزاء غير الضحك يثيره في نفوس الناظرين ، وإن كنت أحسب أن منهم من لا تطاوعه شفتاه ؟ يا للعجب ! رجل يكره البشر ثم لا يورده البشر حتفه ! ما السر في ذلك ؟ لعل البشر على حقهم قد ألمعوا أن من يتسو عليهم قد يكون أرفق بهم ، وأحذب عليهم ، ممن يطالهمم باقسامة تطول ملازمتهما للشفاء حتى تفقد كل ما لها من معنى . ولعل أحداً منهم يصيح مع روسو : « ليس عدواً للبشر من يفضح عيوبهم ويهاجم رذائلهم فما يفعل ذلك إلا لمنايته بأمرهم ، وإلا لجاز أن نعتبر الأب المطوف يجب أبناء الآخرين أكثر من أبنائه هو لأن قناص هؤلاء تثيره ينابسكت عن قناص الآخرين . وإنما يعد عدواً للبشر ذلك الذى يضافى السكل ويروقه كل ما يرى ، فيكون في موقفه من الناس ما يشجع الأشرار على شرورهم ، ويتعلق فيهم تلك الرذائل التى تهد من كيان المجتمع . تراه يعلن رضاه عن كل ما يرى ويمتدحه حسناً ، لأنه لا يحرص على أن تسير الأمور إلى الأحسن ، كما يصيح بأعجابه بالسكل لأنه لا يابه بأحد . ينكر أن من الناس من يتصور جوعاً ما دام هو جالساً إلى مائدة حافلة ، ويستنكر أن يدعو أحد إلى عون فقير ما دام جيبه مليئاً . يفلن منزله ليرى من النافذة غيره يسرق ماله ، أو تُقطع أوصاله ، وما عليه من كل ذلك وقد وهبه الله رقة في القلب يتحمل بها آلام الآخرين !!! وما له بمحرك ساكناً ، أو يصل الشر إلى حيث يثوى ؟ ومثله مثل ذلك الإيرلندي الذى أخبر يوماً أن النار قد شبت بالبيت الذى يسكن فأجاب : وما يعنينى من هذا وما أنا بمالكه ؟! حتى إذا وصلت النار إلى فراشه ، انطلق يمدو ويصيح ، وقد أخذ يدرك أنه من الخير لنا أن نغنى بأمر البيت الذى نأوى إليه ، ولو لم نكن له مالكين . ذلك ما قد يقول قائل منهم ، وإن كنت أخشى أن ينهض خب من بينهم فيحاجهم ببعض ما قال روسو نفسه ، ذلك الرجل الذى فقد إلى خفايا النفس البشرية لطول ما آمن النظر في نفسه الخاصة ، إذ قال : « إننا كثيراً ما تنسقط عيوب الغير ، ونبحث عن دوافعهم الخفية التماساً للذة نجدها في الكشف عن فساد نفوسهم فترضى عن أنفسنا » ولعله يضيف : « ونحن بعد نحيا في مجتمع ، فلا بد لنا من النزول على مواضعه ، وقد جرت سنة البشر على أن يجامل بعضهم بعضاً ، وأن يتحمل بعضهم بعضاً ، وما كل قول يقال . وإنها لضرورة من ضرورات الحياة أن نناقى أحياناً ، وأن نؤارى ونخادع ونذاهن ونكذب إن أردنا النجاح في الحياة . وهبنا نكره هذا الفرد أو ذاك ، أما علينا أن نتصنع ابتسامة نلقاه بها إن لم يكن بد من لقائه ؟ ومن يدرينا ؟ لعل الاقسامة التى تروض أنفسنا عليها تصبح فينا

طبعاً يمحطنا على احتمال من نكره . ذلك ما قد يقوله الحب ؟ وأهل ما أخشاه أن تناصرهم كثرة الناس ، وقد أورتنا ما نك من ذكاء جيتاً في النفس ما له من علاج . نعم ، الذكاء ، وهل الذكاء كما يقولون إلا قدرة على ملاعبة الواقع والنزول على حكمه والميل معه أينما سار ؟ وهل أخبت منه ملكة وهو يلتمس لكل خطيئة من خطايانا مبرراً يسكت به صوت الضمير أو نفماً يكّم به الأفواه ؟ ومن منا لا يذكر قول برجسون : « إن الدين والأخلاق ما هما إلا رد فعل نهض به التراث لتقوم ما ينزله بنا الذكاء من تقويض للدعائم الجماعة وهدم لمقوماتنا الشخصية ؟ » على أنه إن يكن لنا عزاء فلا أراه في غير تلك الحقيقة الجميلة : وهي أنه لا يزال ولن يزال هناك نفر قليل هم هَدْيُ البشر وطلاتهم ، قد أودع الله في قلوبهم ناراً تحرق ذلك الذكاء المدرس ، نفر يصمدون في الحق يرفمون ألويته ، وما يمينهم أسخر الناس منهم أم أعجبوا بهم ، وفي عملهم هذا من النبل ما يجعله حقاً أن تنهمهم بأنهم إنما يثبتون مع الحق ويجرحون نفاق المناقذين التماساً للذة يجدونها في التفوق على الغير .

من هذا نفر فيما أعتقد ألسست . والآن وقد شوقتك إلى معرفة ما كان من أمره فلأحدثك عن فماله لتشارك في الحكم سوياً .

ألسست في الخامسة والعشرين من عمره عندما تبدأ مأساة حياته . دلف إلى الوجود بضمير نقي صلب ، وقد وطد النفس على مطاردة الكذب أننى كان ، وعلى الجهر بالحق في كل مجال . ولم ينب عنه أن الكذب ملء الأفاق وأن مهاجته تتطلب جهداً لا ينقضى ، ولقد حدثت عما في قول كل حق من خطورة على قائله وعلى الغير ؛ ولكن قوة ضميره تأبى أن تلين . ومن غرائب المصادفات ، بل قل ومن أمارات غموض النفس الإنسانية ، أن أولع هذا الساخط المترم « بسليمين » : امرأة لعوب تنصيد إعجاب الرجال وكلمات إطرائهم ، على نحو ما يجري في الأوساط « الراقية » ، وقد اتخذت لذلك عدته ؛ في حركات وجهها وابتسامات شفتيها وجرس ألفاظها من التكلف والصنعة قدر ما في ألوان وجهها وأصابع شعرها . فلئن كان ألسست ضميراً ينطق بكونه صادقاً صريحاً ، فسليمين أكذوبة اجتاعية تتحرك ! ! ومن عجب أن يحبها ألسست حباً صادقاً عميقاً ؛ يحبها لميوها ، ولكنه ساخط على نفسه ، إذ حله هذا الحب على أن ينفض عن مبادئه ؛ ولكم كان أجدر به أن يتخير لحبه امرأة تمشي وآراءه . أما وقد ساقته نفسه إلى غير ما ينبغي له فليحاول إصلاح تلك المرأة وليقل لها في صراحة وحزم ما يؤله من أمرها .

على هذا وطد ألسست عزمه : هاهو يسير إلى بيت « سليمان » فيمتر في الطريق

بصديقه « فيلينت » - شاب من سنه أتى الحياة بنفس راضية تقبل الناس كما هم ، يتسم لكل من يلقي ، وبجمال كل من يصادف بمهارة تمكنه من الحياة وسط الأكاذيب الاجتماعية في يسر لا يعدله يسر .

ووصل الصديقان إلى بيت سليمان فلم يجدها ، فهاجت هاججة ألسنت ، وأما فيلينت فتلقي الخبر بإبتسامة راضية ، ودخل الرجلان إلى غرفة الجلوس حيث انتحى ألسنت ركناً ، وقد عبس وجهه وأمسك برأسه بين يديه كأنه يحسكه عن أن يطير شظايا ؛ وكان فيلينت يعلم منه ذلك ، ولكنه رآه هذه المرة أشد عبوساً مما عهد . ألم يأت ألسنت هذا اليوم خصيصاً لينفض ما في نفسه وقد نفذ صبره وأزعج على أن يصل مع سليمان إلى أمر صريح يرضاه ؟ أتى بعد أن أعد ما سيقول ، وإنه لن يلفه لأن يقول ما أعد ، ولكن لمن يقوله وسليمان خارج البيت وهو لا يدري أين تكون ؟ .

وهال فيلينت ما يرى من ضيق صاحبه فسار إليه مرتباً على كتفه متسائلاً :

فيلينت : ما بك ؟ ما الأمر ؟ .

ألسنت : (متمماً دون أن يحرك ساكناً) أرجوك ! . . . اتركني لشأني !

ولكن فيلينت بلغ عليه في السؤال فيصيح ألسنت مغضباً . دعني وشأني - قلت

لك - اختف عن بصري !

وأراد فيلينت أن يستوضحه الأمر فذكره بصداقتهما ، ولكنه لم يكذب ينطق بتلك الكلمة حتى قفز ألسنت من مكانه ووقف أمام صديقه وهو يصيح مغضباً : أنا صديقك ! أمح هذا من دفتارك ! ربما قد كنت صديقاً لك يوماً ما ، أما اليوم وقد رأيت منك ما رأيت فلا أريد أن أكونه ، وما أريد أن يكون لي أي مكان بتلك القلوب الفاسدة .

ودعش فيلينت لهذا الغضب الطارئ ، وألح على صديقه أن يخبره بما كان منه ، فقال ألسنت : إليك عني ! أو ما تموت خجلاً مما فعلت ؟ إن في فعلتك ما لا يمكن أن يلتبس له عذر . إن فيها لما يثير حفيظة كل رجل شريف : تلقي رجلاً تغمره بلطفك السرف ، وأيمان ودك ، وسخاء نفسك ، وتورطه بثورة قبيلتك ، ثم لا يكاد يولي فأسألك من الرجل فلا تستطيع أن تخبرني حتى باسمه ! ! وكأنما حرارة قلبك قد بردت بمجرد افتراقكما ! يا لها من نذالة ! ألهي هذا تزل بنفسك ؟ ! إني أفضل أن أشتق نفسي على أن أتى فملة كفعلتك هذه .

ويضحك من بالسرح ؛ وإلى إثارة هذا الضحك قصد مولير ، وإلا لانهم لويس الرابع عشر ، وكل من حوله من أبناء اف بمهاجمة آداب اللياقة « الكاذبة » التي كانت

فرنسا تفقر بها في ذلك الزمن .

ويتلطف فيلينت مع صديقه لأنه يعلم ما في نفسه من طيبة لا شك فيها ، فتلين عبارات ألسست وتترن كلماته : « أريد أن يكون الإنسان صادقاً خالصاً لنفسه ، فلا يقول إلا ما يؤمن به قلبه » .

ومن يستطيع أن ينكر نبل هذا القول وصدقه ؟ أو ما ترى إلى المخلصين من الناس كيف يقسطون في اللفظ ؟ ولكن فيلينت يحاول في عبارات هيئة لينة أن يحمل ألسست على الإقرار بأنه يجب أن ترد المجاملات بمجاملات مثلها ، إذ أننا بعملنا هذا لا نسيء إلى أحد ، ولكن هيئات أن يبلغ من ألسست ما يريد : « لا لا ! بل يجب أن نقسو ما استطعنا على هذا التظاهر الباطل بصدقة لا نؤمن بها . يجب أن نكون رجالاً في كل مقام ، نجهر في ألفاظنا بمكنون نفوسنا — يجب أن نتلق نفوسنا لا ألسنتنا — يجب ألا نحقق حقيقة مشاعرنا تحت بهرج المجاملات » .

إلى هنا يستطيع نفر غير قليل من الناس أن يسلّم بما يطلبه ألسست ، ولكنه لا يقف عند هذا الحد ، حد ألا تقول غير ما تعتقد ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ، ويطلب أن تقول كل ما تعتقد ؛ وفي هذا لا ريب ما يقوض حياة اجتماعية دعائماً أو تأملنا أكاذيب صارخة . ويأتى إلى البيت زائرون آخرون فيسارع ألسست إلى إخبار أحدهم بأنه متطفل دخيل وإلى الأخرى بأنه قبيح باسراء عجوز أن تترن تمويها لجمال فقدته منذ زمن بعيد . ويستنكر الناظرون منه ما يفعل ، ويسخرون من قبحته ؛ ولكنه لا يأبه لهم ، وفي قرارة أنفسهم أن الناس أغلبهم منافقون جديرون بالبنس ، وما دام هذا هو شعوره نحوهم ، فمن أين يأتيه الحرص على رضاهم أو إعجابهم ؟

وفيا نحن نرى ألسست يسرف في تطبيق مبادئه ليؤكد كدها ، وليضحك فينجد مولير من الاصطهاد ، يأتى الشاعر « أورونت Oronte » ويدور حوار بينه وبين ألسست ينتهى بأن يخرج أورونت من جيبه مقطوعة شعرية من ذلك الشعر التكلف الرخو البارد الذى ينظمه أصحابه ليسمعه لأولئك النساء للتخلدقات الخاويات النفوس ، ويختتم مقطوعته بالبيتين : « أيتها الحسناء ، إننا لفي بأس وإن كنا لن نزال نأمل » وتترن نائفة ألسست فيوصى شاعرنا أن يحمل مقطوعته إلى « المرحاض » ؛ وليظهره على مبلغ تكلفه الباطل يسمعه مقطوعة ساذجة جميلة من الشعر القديم .

وتضج قاعة المسرح بالضحك الذى لا نهدا له نائفة حتى تدخل سليمان عائدة من المدينة .

وليتصور القارىء بأية حالة نفسية مريرة يلقاها الست : « لا ياسيدى ! أتردين أن أصارحك القول ؟ إن فى سلوكك ما لا يمكن أن أرضاه . . . الخ » .

والحاضرون لا شك متسائلون . بأى حق يفضب الست ربة الدار وهو ضيف بمنزلها وما له أن يقف منها موقف المؤنب . ولكن ، أو ما يجب الست سليمان ؟ ومتى كان الحب يعرف حقوقاً لأحد ؟ ثم ماذا يريد الست ؟ أليس يقصد إلى الخروج على آداب المجاملة لأنه يؤمن بكنسها ؟ وهل يستطيع ألا يخرج على تلك اللياقات الزائفة ؟ لكم كنا نود لو كانت ثورة الست موجهة ضد ما فى صميم الأخلاق من فساد ، ولكننا نطلب بذلك إلى مولير أن يغير روايته من كوميدى إلى تراجيدى ، وهو بعد يتخذ من الإضحاك قية ؟ وهو يحيا فى مجتمع سطت عليه آداب المجاملة ، حتى اختلطت بقواعد الأخلاق الإنسانية ، وأصبح من المسير أن تقيم بين اليمينين حداً بيناً . لير إذا الست ضد مواضع اللياقة وليضحك منه الجمهور ؟ ولكن من منا لا يحس بما قصد إليه مولير ؟ ومن منا لا يظن إلى ما تركه لنا هذا الروائى الذكى الفؤاد من وجوب التماس مقاصده البعيدة خلف هذا الإبراف الضحك ؟ وما تكاد سليمان تعود إلى منزلها حتى يواتيها به جمع حافل من المراكز المجين بها للمتعلقين بلجلها ، فترداد ثورة الست ؛ وتنظم الجماعة حلقة تأخذ فى اغتيال الناس ، والست يرقبهم عن بعد ونفسه تغل غيظاً . ولكن فيم يريد أن يتحدثوا ؟ أفى السياسة وفى ذلك ما فيه من خطر ؟ أم فى الثناء على الناس ، وليس أمل من الثناء ؟ أم فى الأفكار العامة ولم لا يملكون منها شيئاً ؟ ليس لهم إذاً إلا اغتيال « معارفهم » ، وهذا هو النوع الوحيد من الحديث الذى يمكن أن يأخذ فيه قوم على شاكلة هؤلاء فيجدون فيه شيئاً من اللذة . وتضيق نفس الست بما يسمع ، فيحاول أن يلقى تبعته على المراكز ، ولكنه لا يلبث أن يواجه سليمان نفسها برأيه : « لا ياسيدى ، إن فى مسراتك ما لا يمكن أن أقبله ، وإنه لمن الحق أن نحب فيك نقائص نتمناها » . وهكذا يلزم الست الحضور الصمت وينفذ صبر سليمان قترغ فى الخروج إلى الشرفة ، ويحس المراكز منها هذا الضيق فيهمون بالانصراف ، ولكنها تمسكهم تأدياً . ويفضب الست من ذلك فيعلن أنه لن يخرج إلا إذا خرجوا جميعاً .

وتضيق بالحاضرين أنفاسهم ، وسليمان صابرة كاظمة غيظها ، ويتحرج الموقف ، ويتساءل الجميع : كيف السبيل إلى الخلاص ؟ ويأتى الست رسول من قبل رجال الإدارة يطلبه لأمر ما ، ويحسب الحاضرون أنه سيخرج لما طلب له ، ولكنه يكذب ما يتوقع

الجميع ، إذ يدعو الرسول إلى الدخول بحجرة الجلوس . وبعد حوار بينه وبين الرسول يخرج ألسنت ؛ وبهذا تنتهي الرواية ، ويخلو الجو لسليمان والمحبين بها يتبادلون عبارات المجاملة المسولة .

يخرج الحاضرون وهم يتساءلون عما قصد إليه مولير — إن في تصرفات ألسنت ما يخرج وما يضحك ، ولكنه إصراف في قضية عادلة ، إصراف قصد منه إلى إثارة الضحك ، وهل نحن نضحك إلا مما يخرج عن مألوفنا ؟ وهل الضحك إلا جزء تقوّم به ما يخرج في حياتنا عما يجب أن تطرد عليه في عرف المجتمع ؟

غادر ألسنت تلك الجماعة التي لم يستطع أن يحيا بينها ، وما أشبهه في هذا بذلك المبصر الذي انتهى به السير يوماً إلى مملكة المميان ، فأخذ يحاول عبثاً أن يفهمهم أن هناك ضوءاً ، وأن في هذا الضوء جمالاً ؛ فأبوا واستنكروا وضعت وحدته أمام جمهم ، وقد تماقب العمى فيهم جيلاً بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يؤمنون بغيره ، فطلبوا من المبصر أن يفقأ عينيه ليصير مثلهم فيزوجه من تلك الفتاة التي أحباها ؛ ولكن هل ليصير أن يفادر الضوء لأن جميع من حوله عميان ؟ أو ليس من الخير له أن يفادر جماعتهم عن أن يفادر الضوء ؟

غادر ألسنت المجتمع البشري لما فيه من كذب وفاق وجبن ؛ وما ندرى أين يستطيع أن يعيش . ولكن ، هبه لم يجد مأوى غير الضحراء ؟ أليست صحراء علأها المرء بما في قلبه من حب صادق للشجاعة والاخلاص وقول الحق ، خيراً من قصور لانهب فيها إلا رباح النفاق وبؤس النفوس ؟؟؟

بيترس

Beatrice

سنة ١٢٦٥ - سنة ١٢٩٠

(١)

في عهد الشباب Vita Nova

« عندما نسمو من مظاهر الجمال الدنيا إلى الجمال الكامل نلعب ضياءه ، نحس أننا قد دونا من الحب . وفي الحق ما الحب إلا شوط نبدأه مما فوق هذه الأرض من جبال ، والبصر منمقد بالجمال المطلق ما يزال يرتفع إليه درجة فدرجة على طول السلم : من جمال الأجسام إلى جمال المشاعر ، ومن جمال المشاعر إلى جمال الأفكار ، حتى نصل إلى المعرفة المطلقة التي هي إدراك الجمال المطلق . إدراك ذلك المثال الخالد الذي تمنح مشاهدته الحياة قيمتها . »

بذا يتحدث سقراط في مائدة أفلاطون عن مراحل الحب التي هو سى وراء الكمال ، وإليه وصل « دانتي » Dante يقوده جمال « بيترس » ولكن ترى حقيقة ما يقول سقراط ، أم هو أفلاطون ذلك الحالم الأبدى يرنح بؤس الحياة في أنسجة جميلة من الخيال ؟ ثم ما بال دانتي ، وقد رأى في النفس البشرية « طفلة تجمع فيها النزوات بين البكاء والابتسام » يثبت على حب تلك الفتاة الرائعة ، فإذا هي تستحيل رمزاً للإيمان ، وإذا هي تلوح له في الجنة ، وقد انتشر من حولها ما تشع من ضياء هي منه كالطائر من العنق ؟

يا محبا ! فتاة صغيرة ترسل ابتسامتها إلى هذا القلب الكبير ، فترد الابتسامة شعراً كم هز من نفوس ، وقد سكن دانتي إلى قلب بيترس بضميره ضياؤه ، فإذا به قبس من شعاعها ؛ وإن يكن قد دفع ثمن هذا السكون الذي لم يكن إليه إلا منهكا ، وقد أقتته أمواج الحياة إلى شاطئ النفي ، ولكم استشر من ألم « في أن يرقى سلماً إلى النير ، ولكم وجد من مرارة فيا قدم إليه من خبز » ، ولكم التمس عن محنته عزاء في ابتسامة بيترس تظلمه من غفوة الأحلام فيصوغ ابتسامتها جلالاً فيه أعز نشوة ، نشوة الخلق .

ولدت بيترس مع دانتي سنة ١٢٦٥ بمدينة فلورانس مهد الفن الجميل ، إذ أكبر الظن

أن أحد أبناء الشاعر قد كشف القناع عن حقيقتها التاريخية ، عند ما أخبرنا أنها بنت فولكو بورتنارى Folco Portinari أحد أغنياء المدينة إذ ذاك ، وراكها الشاعر لأول مرة في حياته وهما في التاسعة من عمرها ، ومنذ ذلك اليوم لم تفارق نفسه وعنها تبحث أجل الحديث في مجموعة من الشعر والنثر Vita Nova « عهد الشباب » حيث التمس لما قال من شعر مناسبات يقدم لها نثراً ، فإذا نحن أمام قصة اختلط فيها الأدب بالحياة كما اختلطاً بنفس دانتي ، التي اهتزت لكل شعور ، واتسمت لكل معرفة . قال : « رأيتها في ثوب أحمر جليلة متواضعة ، وقد علق حزامها الثوب فيها ينم عن طفولة خالصة ، فاهتزت في قباب قلبي الخفية روح الحياة ، وسرت تلك الهزة النيفة بأوعية دمي مادتني منها وما جل ، وصاحت بي روح الحياة : ها هو إله أقوى منك سلطاناً ، ها هو قادم ، وإنه لمحضك . ومنذ ذلك الحين مازج الحب نفسي التي انصبت أسيرة له ، وزاد من سلطانه ما منحه خيالي من قوة ، حتى لم أستطع إلا أن أذعن له في كل أمر ، ولكم عدوت في الطرقات وأنا بعدُ غص الأهاب خلف تلك الحسناء ، ولكم رأيتها قادمة وفيها من الجلال والنبل ما يحق معه أن نقول فيها ما قال هوميروس : في الحق أنها لا تلوح بنت بشر ، بل بنت إله . »

ولقد وصفها بوكاشيو بقوله : « كانت جميلة حتى لتسبي النفوس — جميلة بطفولتها ، وبما امتزج فيها من جلال ودعة ، تحس في حديثها وفي طبائنها من الوفاق والتواضع ما لا يتفق عادة للأطفال ، وفي ملامح وجهها رقة وانسجام . لقد اجتمع لها من الجمال والسحر ما حمل الكثير على الاعتقاد بأنها ملك لا بشر . »

وبالرغم مما كان بين أسرة بيتريس وأسرة دانتي أليجييري Alighieri من صداقة قديمة يزعم الشاعر أنه لم يرفقاه إلا بعد تسع سنوات أخرى ، حتى لكان هذا الرقم ميزان حياتها . ولقد كان لكل حياة في ذلك العهد ميزان ، والرقم تسع أسه ثلاث رمز الثلاث المقدس ، بما ينبي بما ستصير إليه تلك الفتاة — رآها هذه المرة في ثوب أبيض ، وهي مارة بإحدى الطرق ، وإلى مكانه انجذبت بصرها وعلى شفقتها ابتسامة ، وتلقى الشاعر ابتسامتها بقلب خاشع ، وكأن الابتسامة فيض من رضا الله .

وعاد دانتي إلى منزله حيث خلا بنفسه كما يخلو عادة مثله ممن حرمتهم الأقدار عطف أمهاتهم منذ الصغر . وهل استطاع أحد يوماً أن يجد في زوجة الأب عوضاً عن أمه ؟ وطاردت دانتي ابتسامة الفتاة راها في أحلام يقظته ، كما تشفى بصره في ظلام الليل ، حتى نحل جسمه ، وشحب لونه ، وأخذ الناس يسألونه ما به ، وللحجب أمارات لا تكذب ،

وسألوه : لمن يحمل هذا الحب الذى أضناه ؟ فلم يجز جواباً ، إلا أن تكون نظرة حائرة يصعد بها فيهم ، ثم يولى هاربا ، وعلى شفثيه ابتسامة تترقق .

وجرت الألسنة عما كان من أمر حبه ، وود الشاعر لو خدع من حوله عن حقيقة ما يشمر ، فقرأ طورا « كالمدم يتظاهر بالمرح ليوارى عن الناس ما به من ألم » وطورا يصطنع ما اصطنع الشعراء من قبله فى مشارق الأرض ومغاربها من تقاليد الغزل ، فيتثنى بشير من يحب دفعا للريبة ، ولندكر قول نعم لعمر بن أبى ربيعة :

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

وكان على دانتي أن يسلك هذا السبيل . والتاريخ يحدثنا أن بيتريس فى سنة ١٢٨٥ كانت متروجة بالفعل من سيمون دى باردى Simon dei Bardi ، وكان دانتي على الراجح قد خطب زوجته چمادوناتي Gema Donati ونحن عندئذ فى القرون الوسطى ، وبالرغم من ذلك لم يستطع دانتي أن يصرف قلبه عن تلك الفتاة .

ولكن ترى لم لم يتزوج دانتي من بيتريس ؟ ذلك ما لا يعلمه إلا الله . ولكننا نعلم أنه لم يقف عند حبه لبيتريس ؛ ولقد كان هذا الحب منذ نشأته شبه تقديس ، وكانت له مغامرات غلى بها دمه ، فأطاعت لسانه بغير صيحة وبخاصة فى غرامه البرج بأمرأة يسميها Pietra أى « الصخرة » . ومن عجب أن نستمتع إليه يوما يشكو من أن تلك المرأة قد استقرت برأسه « كما تستقر الأزهار بأعلى سيقانها » ، ولكم ألم لهذا الحب التقيف . ولعله لم يصب التوفيق فى حبه لبيتريس ، فالتمس عنه بديلا ، وإلى هذا تشير بعض أشعاره . ألم يقل يوما : « ما تزال صورة تلك الفتاة متربة بقمة أفكارى حيث قادها الحب ، وما يحزنها ما أنا فيه من ألم ، ولها لمتبطة ضاحكة . ترفع إلى بصرها يدعو روحى إلى الرحيل قائلا : إليك عني ! إليك عني ! هذا ينطق موضع رغباتى فيحز الألم فى نفسى ، وإن تكن وطأته قد أخذت تحف ، إذ أن إحساسى قد أهلك وأوشك أن يصل إلى نهاية قدرته على الألم . عند ما لاح لي تلك الفتاة كنت غض الطفولة — هذا محدثى ذا كرتى التى أخذت تمحى صفحاتها . ومنذ ذلك اليوم لا أزال أظنى آلام الشهداء ، حتى لكأن صوتها الذى انطلق إلى فؤادى قد أمسك قواى عن النمو » .

وعلى من يصدق هذا القول إن لم يكن على بيتريس ؟ ترى إذا أشق دانتي بحبه لبيتريس حتى إذا مات سنة ١٢٩٠ طهر اللوت حبه فاستحالت الفتاة ذلك الملاك الذى هدى الشاعر سبيل الكمال ؟

ذلك ما لا نستطيع أن نجزم به ، وإن كان في شعره ما يرجحه ، ولكننا نعلم عن يقين أنه قد تخطط في شهوات الحب ، كما تخطط في شهوات السياسة حتى شقيت حياته ؛ وإلى هذا يشير في أول « جحيمة » عندما يقول : « كنت في منتصف الحياة وإذا بي وسط غابة مظلمة ، وقد ضللت الطريق . آه . ما أشقاه على النفس أن تقول ماذا كانت تلك الغابة التي تجدد ذكراها آلامى ، وما أستطيع أن أقول كيف دلفت إليها ، ولقد كنت عندئذ في نوم عميق فحلت عن سواء السبيل » .

ولقد أنبته بيترس لضلاله هذا أعنف تأنيب عند ما لاح له على حافة الاعراف قبل أن تقوده إلى الجنة .

وفى الحق أن نفس دانتى كانت نفساً عنيفة صاخبة ، وفى الحق أنه قد انغمس في الحياة ، بل لقد بلغ من عنفه يوماً أن صاح في شعره وهو يشكو قسوة امرأته : « آه ! ليتنى أستطيع أن أمسك بتلك الضفائر الشقر التي صاغها الحب حلقات ذهبية أتى بها حتى ، إذناً لمرقت كيف أنتقم لنفسي ولأمسكت بتلك السياط التي طالما الهبتني ، ولبعيت بين يدي من انبثاق الفجر إلى أن تدق نواقيس المساء ؛ ولنى استشعر عندئذ رحمة ، بل سأكون كدُّب يلعب . وما دام الحب لا يمسك عن أن يسوطني بها فالى لا أنتقم منها مرة وألف مرة ؟ وأما أعينها التي ترسل إلى قلبي هذه النار التي تحرقه ، فسوف أحرق فيها عندئذ عن قرب وأطيل التحديق جزاءً لها على الفرار منى ، ولن أزال بها حتى يجتمع فيها الحب والاستسلام » .

ولكنه رغم كل مغامراته التي مزقت نفسه لم ينس يوماً « بيترس » بل ظل وفياً لحبها ، وإن يكن أكبر الظن أن سنة ١٢٨٥ — سنة زواج بيترس — كانت بداً لمغامراته ، إذ أن ذلك مما يمتشى وطباع البشر . ألسنت ترى أن المأقويماً أو حزنًا ملازمًا خليقان بأن يحبطا في النفس كل قيادة ؟ ونحن نعلم أن دانتى لم يتزوج إلا بعد وفاة بيترس .

نعم ظل دانتى معلقاً بإقتسامه فتاة يستلهمها الشعر وكأنها ما تزال عذراء ، ولم لا ؟ ألم يتغزل يوماً قيس بن الرقيات بألم البنين ، رغم ما كان لتلك السيدة الجليلة من وقار ؟ ثم ألم يتغزل للماجن عمر بن أبى ربيعة بسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، بل وبأخت الخليفة عبد الملك بن مروان وبيته ؟ وما دام الغزل عفيفاً فالذى يمنع دانتى من أن يتسقط الشعر من شفاه بيترس ؟ وإن لم يكن الأمر على تلك البساطة ، فلقد يضطر شاعرنا — عملاً بما يشبه وصية بُنم إلى عمر — إلى أن يتغزل بغيرها تقيّة ، وتخشى الفتاة منه اللروق عن حبا

تفضّب ، وتأتى أن تعود إلى تحيته إن لقيته بسبيل أو « يقول فى شعر جميل ، إن تنزله
بغيرها لم يكن إلا صرفاً لألسنة السوء ورداً لأعين الرقباء » .

وتلك ولا ريب تهاليد أدبية كم أفسدت على الشعر غايته ، وما كان لنفس قوية كنفس
دانتي أن تقف عندها . وإنه ليذهب يوماً إلى حفل يلقي به بيتريس على غير توقع ، فيلقى
قناع الأدب الصطنع :

« لم أكّد أدخل حتى أحسست بهزة عنيفة بجانب صدرى الأيسر ، وسرت الهزة إلى
كل جسمى ، فاستندت إلى الجدار ، وخشيت أن يفتن أحد إلى ما عرائى ، فرفقت بصرى
إلى السيدات المجتمعات ، وإذا بالبصر يستقر ببيتريس ، فتخاذلت قواى حتى لكاّنى فقدت
الحياة إلا من عيني » .

ولم ينب عن أحد ما أصابه ، وتناز به الحضور ، فولى هارباً إلى متره يلقى بابه ، ثم
يسلم عينيه للدموع ، وانجلت أزمة نفسه عن سلسلة من القصائد الصغيرة (Sonnets) كم
تغنى بمقطوعاتها شاعر الليلا :

« ما أكاد أراك أيتها اللؤلؤة الجميلة حتى تخمد فى نفسى كل قدرة على الكفاح ، وما
دنوت منك إلا صاح بي الحب : إلى القرار ، إلى الفرار ، إن كنت تخشى الموت . وبم وجهى
عن لون نفسى ، وقد تخاذلت قواى ، فالتمس لها سنداً . . . على أن سخرت لك قد قتلت فى
نفسى ذلك الضعف الذى ينشر فوق عيني تلك السحابة الحزينة حزن الموت » .

ويلقى دانتي سيدات المدينة وقد عرفن سر نفسه ، فيقلن له وعلى شفاههن ابتسامة ساخرة
قولاً أشبه ما يكون بما قالته نساء العرب يوماً لجيل :

ويقلن إنك قد رضيت بباطل منها فهل لك فى اجتناب الباطل
فيجب دانتي إنه كان يريد أن يقف حياته على سادتها فأبت ، وإذا فليصرف إلى
الإشادة بها ما ترددت أنفاسه :

« والآن وقد أتجهت رغبة السماء إلى فتاتى ، بوى أن أحدثكن عن بعض ما لها من
فضل . على كل سيدة تريد أن يكسوها الجلال أن تذهب معها ، وهى ما تكاد تخطو حتى
يجمد الحب القلوب الفاسدة تموت فيها كل رغبة سيئة ، وما يوقع إليها بصر حتى يفتى أو
يرتد نبيلاً ، وأما أولئك الذين هم من السمو بحيث يستطيعون أن يرفعوا إليها بصرًا فأولئك
هم الذين ينفذون إلى ما فى نفسها من جمال ؛ وما إن تنقسم لهم حتى ينتشر الرضا فى نفوسهم ،
ويعمر الخير قلوبهم ، فينسوا ألم ما أصابهم من جراح ، وإن لتلك الفتاة لنعمة خصها بها

الله ، نعمة تمنع من يتجه إليه بغيرها عن أن يضل سواء السبيل » .
وهكذا استجالت بيتريس في نفس دانتى رمزاً للكمال وسبيلاً إليه ، حتى لكأنها
فكرة أكثر منها إنساناً حياً . ومن لا يحس أننا نرقى الآن سلم أفلاطون ، ولم يعد في
الفتاة جسم يرغب ، بل جمال روح يستجلى ، وما تعلق بها بصر إلا ارتفعت به إلى عالم النحل
حيث يختلط الجمال والخير والعرفه ، وأى غرابه في ذلك وقد بصّر Brunetto Latini
برينتولايتي — الذى تحدث عنه دانتى في الكوميديا بقلب كله خشوع — تلميذه بفلسفة
أفلاطون . ثم ألسنا الآن بأزاء تقاليد الفروسية كما عرفها القرون الوسطى ، عند ما كان
الفارس الحق هو من يتخذ له سيدة يحبها في الخفاء حباً أشبه ما يكون بالمادة ، حباً
يستلهمه البطولة كما يتلقى عنه وحى الشعر ؟ وسيان بعد ذلك أرغبت السيدة في حبه أم لم
ترغب ؟ بل سيان أكانت حقيقة أم من خلق الخيال . وأى سيدة تستطيع نظراتها أن
تسقط شهوات النفوس لتحل محلها نور الإيمان ، إن لم تكن العذراء التى اختلطت عبادتها
في نفس دانتى بحب بيتريس . وهكذا اجتمعت في فساتنا كل تيارات الروح التى شاعت
في القرون الوسطى ، فتركزت في نفس دانتى التى تمثل ذلك المهد فى أعظم مظاهره حتى
لكأنها نقطة الانقلاب بين عالين .

ومع ذلك لمت أبو بيتريس ، وها هو ذا دانتى يحزن لحزنها ، ويود لو أتجه إليها بقلبه
بشاطرها وآلامها ؛ ولكن كيف السبيل ، ولم تدع السنة الناس إليها سبيلاً ؟ ليس له إلا أن
يستفسر عائداً عما صارت إليه ، وقد أضنتها الأحزان . وحزن دانتى لحزنها حتى مرض ؛
وفيا هو يهذى رأى فيها يشبه أحلام اليقظة أن بيتريس قد لحقت بأبيها .

« ولم تكذب تلك السيدة تنتقل عن عالمنا حتى لاحت لى للدينة وكأنها قد تيممت بموتها ،
وكأنى يومئذ أصبح بأمرء الأرض كما صاح جيريمى فى الكتاب المقدس : كيف للمدينة
أن تحيا بدونها » .

وماتت بالقول بيتريس ، وهى فى ريمان الشباب سنة ١٢٩٠ فى الخامسة والعشرين من
عمرها ، « ماتت لأن الجنة كانت بحاجة إليها لتضمها إلى ماتموى من حور » ماتت ،
ولكنها بقيت حية بقلب دانتى ، بل ربما ازدادت بموتها حياة ، وقد حطم الموت ما كان
ينل من حماسه لها أو يقص من أجنحة خياله ، وأخذ دانتى يشهد ذكراها ، ولكم جنبته
تلك الذكرى من عثرات . ألم يمر يوماً بأحد المنازل سامم الفكر حزين النفس ، وإذا بامرأة
جميلة تشبه بيتريس تنظر إليه من نافذتها ، وفى نظرتها حنو ضعفت له نفسه حتى أوشك أن

يتردى في حبه لولا أن لاح له شبح بيترس .

« كان الوقت أصيلاً . . . ولاح لي بيترس الخالقة في ثوبها الأحمر الذي رأيتها فيه قديماً طفلة عند مواقع عليها بصرى لأول مرة ، وما كدت أتجه إليها فسكرى حتى عادت إلى ذكرياتها ، فهب الندم بنفسى أليماً ، وولت عنى تلك الرغبة الأثيمة التي أوشكت أن تغفل بي عن سبيل الهدى ، ومنذ ذلك الحين لم تعرف أفكارى غير بيترس لها مستقراً » .

على أن الأقدار لم تشأ أن تهبط للناتى نفس ، وكأنه قد حاول أن يعلأ ما تركته بيترس في حياته من فراغ ، فأخذ يتردد على صالونات فلورنسا ينامر فيها ما استطاع حتى عاف هذا الميث الباطل ، فانصرف إلى السياسة ابتداءً من سنة ١٢٩٥ ، وكانت إيطاليا في ذلك الحين منقسمة إلى حزبين كبيرين حزب الجيبلان Gibelins وهم جماعة الأشراف الحريصين على المحافظة على النظام الإقطاعى يعتقدون أن أسسه لن تثبت ما لم يؤيدها الأمبراطور بسلطانه ؛ ثم حزب الجيلف Guelfs وهم رجال الطبقة الوسطى الذين ينارون على حرية المدن وحرية الأفراد ، ويرون في بسط نفوذ البابا ما يحقق آمالهم السياسية . وكان دانتى من أتباع هذا الحزب الأخير ؛ ولكن الأمر لم يكد يستتب للجيلف بعد هزيمة أعدائهم حتى انقسم الحزب المنتصر شطرين : بيض ، وسود ، وأخذت شهوات النفوس تلعب دورها ودارت معها العقائد ، فانطوى السود تحت لواء البابا ، واتهموا البيض أعداءهم بملاحة الامبراطور ، وانتصر السود في المعركة ، فشتوا شمل البيض ، ومن بينهم دانتى ، إذ حكوا عليه بالنفى سنتين في ٢٧ يناير سنة ١٣٠٢ ، وبغرامة قدرها خمسة آلاف جنيه ، بل عادوا في ١٠ مارس من نفس السنة فاستبدلوا بحكمهم هذا حكماً أقسى ، يقضى بنفى دانتى نفيًا أبدياً ، بل بإعدامه حرقاً إن وقع بين أيديهم ؛ وكان دانتى إذ ذاك لحسن الحظ بعيداً عن فلورنسا ، فأفلت من الموت ، ولكنه لم يفلت من النفى الذى شق به شقاءً يكاد يعطل الموت .

وأخذ دانتى محبوب بقاع إيطاليا يحسن وقادته قوم ويتنكر له آخرون ، وقد أمل يوماً أن يكون مع نفى معه حزباً يتمكنون بقوة من العودة إلى مدينتهم العزيزة ؛ ولكنه نظر فإذا بشهوات النفوس تقسد ما يدبرون فانفصل عنهم ، وقد انقعد عزمه على أن يكون على حد قوله « حزباً من نفسه » ؛ وتهاذفته أحداث الحياة ، وكلما ازدادت به عبثاً ازداد استعجاباً ، حتى تركزت قواه متبلورة حول شبح بيترس يتخذ منه أنيساً لوحده . ولكنه أحس أنه أضعف من أن يستطيع النفى بما وصلت إليه من مراتب السكال ، فأمسك لسانه وأخذ في الدرس يوسع به من آفاق نفسه ويشحن من مشاعر قلبه .

« لقد رأيت فيها يشبه أحلام اليقظة من خوارق الأمور ما حملني على الإمساك عن التحدث بذكري ذلك الملك القدس.. ، حتى أصبح به جديراً ، فأخذت نفسي بالدرس ما استطعت ، وهي في السماء شهيدة بصدق ما أقول . ولو أن رحمة الله مدت من حياتي لقلت فيها ما لم يقله في مثلاً أحد من الملائين ، وبعدئذ لتتحقق إرادة الله ، فأرتفع إلى جوار تلك السيدة ، إلى جوار القديسة بيترس التي تنعم اليوم بمشاهدة وجه ربها الخالد أبدي السنين . »
وتحدث بالفعل دانتى عن بيترس في الكوميديا الإلهية التي رآها في أحلامه فأنبأنا بها ، وقد أخذ يعدّ لكتابتها عدته . ولقد كانت بيترس من الرفق به بحيث أرسلت إليه فرجيل يستله من وسط تلك الغابة المظلمة ، غابة الضلال التي تشرّت بها خطاه ليقوده إلى رحلة طويلة خلال جهنم ، ثم خلال المطهر الذي لاحت على حافته بيترس نفسها تقود الشاعر في الجنة التي لم يكن لنفس وثنية كنفس فرجيل أن تلج رحابها .

(٢)

في الكوميديا الإلهية

كان دانتى يمز الإيحاء في كل نفس حتى في نفوس أعدائه ، ولا أدل على ذلك من لقائه لفاريناتا دلي أورتي Farinata degli Uberti زعيم خصومه بجهنم ، حيث كان بينهما حوار عنيف لم يمنع دانتى من أن يظهر ما يحمل لكبرياء هذا الرجل من إعجاب « وقد نهض فاريناتا وسط قبره المضطرب ناراً حتى أشرف على اللهب بصدرة وجهته ، وكأنه لا يحمل لجهنم غير احتقار الأبي » .

ومع هذه الكبرياء امتلئت بدانتى بحن الحياة ، وقد أودعه الله قلباً شاعراً كم دفعه إلى المناصرات يشقى بها في منفاه ، وكأنه يلتمس في ذلك الشقاء ملهاته . أو ما تراه يلقي بجهنم أيضاً أستاذه برينيتو لاتيني Brunetto Latini فيود لو تمهل معه محبة له ؟ ثم ألم يلج يوماً بأحدى طبقاتها شبحين تتمازفهما الزواج وسط ظلام دامس جزاءً لها على ما استسلما إليه من شهوات النفوس ، فيلتفت إلى قائده فرجيل يرجوه التمهّل حتى يعرف ما كان من أمرها ، وكأنهما « حمامتان حملتهما الرغبة المتبادلة ، فبسطا في الهواء أجنحة خثيثة تقودهما إلى عش حبيب » ، وما يكاد يعلم أنهما فرنسكا دي ريميني Francesca de Rimini وحبيبتها پولو Paolo حتى يطأطي الرأس ، وكأنما ذهل عن نفسه لولا أن أيقظه فرجيل بقوله : ما بك ؟ فيم تفكر ؟ وفرنسكا فتاة مسكينة ، حسبت أنها قد خطبت لپولو ، وإذا بها ترف لأخيه

الكسيح ، وإذا الحب يصلح ما أفسدته الأقدار ، ولكن غيرة الأخ وضعت حداً لملاقتهما ، إذ قتل الرجل زوجه وأخاه ؛ وشاءت نفس دانتى الرقيقة إلا أن ترى فيهما حمامتين تسميان إلى عش ، رغم ما هما فيه من عذاب .

وكذلك كان أمر دانتى . فلحم مزقت الشهوات نفسه ! ولكم أشقته تلك المرأة القاسية التى يسميها « الصخرة » Pietra ، التى ولت دون أن تترك على صفحات التاريخ أثراً . ولكم ردد شعره ما أزلت به من عذاب : « بوى لو واتانى القول فى صلاة تلك « الصخرة » التى لا تريد الأيام إلا قسوة . لكأنى بها وقد كست جسمها درعا من الصوان تنقى بها — إن لم تهرب — ما رسله الجمعية من سهام وجوت لو أصابت منها مقتلاً . وأما سهامها فمهيأت أن يُنجى منها عدو أو اختفاء ؛ وكلها بمنحة تطير فتخترق كل الدروع . آه ! كيف السبيل إلى النجاة ، وقد استقرت بقعة أفكارى ، كما تستقر الأزهار بأعلى سيقانها ؟ وما يعينها من آلامى إلا ما يعنى زورقاً من بحر لا تحركه عاصفة ... آه ! ليتنى أرى قلبها ، وقد انشق كما انشق قلبي ، إذا لتكشف عن ظلام دونه ظلام الموت التى يدفننى إليه مجالها ؛ وما تمسك عن الطعن فى وضوح النهار ، أو فى غياهب الليل .

من جوف كل تلك الآلام طالمت دانتى ابتسامة بيترس كما عهدتها عند ما رآها لأول مرة ، وهما فى التاسعة من عمرها ، وقد ارتقت إلى اللجنة سنة ١٢٩٠ فى ريماب الشباب ، وبقي هو وحيداً لا يملك غير ذكرها ، وقد تكالبت عليه عن النفي وشهوات النفس ، لا يجيد عزاء فى غير الدرس يقيم به تمثالاً على حافة القرون الوسطى ، تمثالاً ينطق بمجد بيترس . وفى الحق لو أنه اكتفى بالذكى لما وجد غير الألم ، وهو القاتل : « ما أشقها محنة أن تذكر وسط الشقاء أيام السعادة ! » وإنما أنجاه أن اتخذ من وحى ذلك الماضى ، من وحى بيترس ، مادة لأروع ما أنتجت عقول البشر ، مادة للكوميديا الإلهية ، وبوده لو استطاع بفضلها أن يصبح جديراً بتلك القديسة التى تملق بلحاظها فارتفعت به إلى أن اجتلى وجه ربه .

وفى الحق أن بيترس لم تحبس عنه رحمتها ، فقد أرسلت إليه قائداً رفيقاً ينجو به من غابة الضلال التى تثمرت بها خطاه . وكان القائد فرجيل « ذلك النبع المذب الذى تدفق بأجل الشعر » يُفنى دانتى لياليه فى درسه والاستماع إلى عذب نغماته . ولقد أمّلت بيترس أن يرى شاعرها يجهن من ألوان المذاب ما يوقظه من غفلته فيحفظم أغلال شهواته . ولعلها ودت لو وجد بسماً فيها أنزل الله بخصومه الظالمين من عذاب . ولقد رأى دانتى فى جهنم

ما تشيب له نواصي الأطفال .

وموضع العبرة فيما رأى هو نوع ما ينزل بالآئين من عذاب ، فذوو الشهوات تتقاذفهم العواصف وكأنهم أوراق ذابلة ؛ وسفاكو الهماء غرقى في بحر من الدم يغلى فيكوبهم بشاره ؛ وهكذا افتتت عبقرية العذاب فلاقى كل إثم بما يلائمه ؛ أو لا ترى إلى أولئك المرافين السكاذبين الذين يدعون العلم بالمستقبل ، وقد قلبت ردوسهم فأصبحت وجوههم إلى ظهورهم يسيل فوقها السمع ، وذلك حتى لا يمودوا فيمدوا بعد النظر يرسلونه إلى ما خلف الحاضر الراهن . ثم برتران دى برون Bertrand de Born الذى أثار بشعره الابن ضد أبيه ، أو لم تقصّل رأسه عن جسمه ووضعت في يده ليحملها من الشجر كصباح ينير له الطريق ؟! بل والمتحرون أنفسهم نبقت أرواحهم بجحيم أشجاراً ، يحسك المار بنفس منها يكسره ، فإذا بالدم يتدفق منه مع صيحات الألم . لقد فروا من الحياة فسادوا إليها سجينى أغلفة الأشجار ! ولكم كانت دهشة دانتي عند ما نظر إلى هؤلاء الآئين فلم ير منهم نادماً ، بل الكل ثائر على ربه يرسل اللعنة والسخط مختلطين بما يرسله من صيحات العذاب والألم .

وخرج دانتي من الجحيم ، وبخيله الخصب للآئين أشباح كأنها تماثيل عذاب تحت نحتاً ، ولكن ترى أيكفیه ما رأى لتصلح نفسه ؟ ثم كيف له أن يصمد إلى السماء وقد أثقلت الآثام كما تنقل الأمتعة للسافر ؟ وهبه ضمن السلامة في مستقبله ، فأنى له بالماضى يحجو ما به إلا أن يكون رضوان من الله ؟ وشاءت بيتريس رسول رحمته أن يترفق فرجيل فيصحب شاعرها إلى المطهر حيث انتظرتة هي بقمته ، ومن عجب أن رقى جسمنا الكثيف إلى حيث تصعد الأرواح بغيرها نور الله ! أو لا ترى إلى سكان تلك الأعراف يشكون إلى فرجيل غير مرة ظلال جسم دانتي يمتد على أحدهم فيجسب عنه ضياء ربه ؟

ورأى دانتي بالمطهر أرواحاً راضية مستبشرة رغم ما هي فيه من عذاب ، وقد انقضى عهد الآثام ، وهام في سبيل التكفير عما اقترفوا تكفيراً يمد لهم لعمود السماء .

وقد انتشر نور الله في كل مكان وانمقدت كل روح على الندم تستدف خلفه المنفرة . والمطهر جبل يقوم بجزيرة تلطم الأمواج صخورها من كل جانب ، وقد انتشر النادمون على سفحه في تسع درجات ، كلما سموت من درجة إلى درجة كان الإيم أخف والعذاب أهون . وسما دانتي حتى الدرجة الأخيرة فإذا بها نار تستمر وقد « زاد ظل جسمه لميها حمرة » فارتعدت فرائصه وأيقن أنه هالك ؛ وإذا بصوت يتفنى : « ما أسعد أقياء القلوب ! » وانقلب المنفى آسراً بأمر دانتي وصحبه بالدخول إلى النار إن كانوا يبنون الارتقاغ إلى أعلى ، فارتد

شاعرنا مذعوراً لولا أن هذا فرجيل من روعه : « أى بنى ! ستبقى من هذه النار عذاباً ولنكنك لن تلقى الموت ؛ ولقد قدتك خلال الجحيم رغم ما فيها من أهوال ، والآن وقد دوننا من الله — أترانا محجيين ؟ لا . لا . ثق أنك لو مكثت مدرجاً بتلك النيران ألف عام مازدهت بشمرة واحدة من رأسك . صدقنى . وها هو الاله أمامك ، ادن منه ثم ادفع إليه بكم ردائك لتتحقق من صدق ما أقول . هيا ! هيا ! خل عنك مخاوفك . أقدم .

ولكن دانتي لم يحرك ساكناً « رغم ما يحزه من ندم » وإذا بفرجيل شاعر الهوى ، فرجيل قيثارة الشعر ، فرجيل الروح النافذة إلى خفايا القلوب يلتفت إليه قائلاً بصوت بهيج رقة : أى بنى — اذكر أنه لم يمد يديك وبين بيتريس من حاجز غير هذا . ثم التفت وعلى شفثيه ابتسامة الأب يداعب طفله بقطعة من الحلوى . وما إن سمع دانتي اسم بيتريس « الذى ما يزال مزدهراً بقلبه » حتى دلف إلى النار ، وفرجيل إلى جانبه يليه عن الألم بحديثه عن بيتريس . ولو أنك رأيتهم وقد رنحه أستاذة بقوله : آه . يخيل إلى أنى أرى أعينها على مقربة منا . لحسبته طائراً يتفرض وقد بلله الندى ، أو لحسبت النار قد استحاتت برداً وسلاماً .

وما إن خرج دانتي من هذه المحنة حتى قاده فرجيل إلى ساق القمة التى سيسمو إليها فيجد « جنة الله فى أرضه » . وهنا استودعه رحمة الله ، إذ ليس لروح وثنية أن ترتفع إلى ما دون ذلك . وحزن دانتي لفراقه حتى لقد بكى بين « يدي هذا الأب الرحيم » ودخل دانتي وحيداً جنة الأرض حيث لم يسمع إلا طيراً يشدو وماءً يجر ، ولم ير إلا نباتاً أخضر وورداً مزدهراً . وفيما هو وسط هذه النابتة المقدسة لاحظ له على الضفة الأخرى نهر حورية رائمة تجمع الزهر باقة ؛ وما الحورية إلا ماتلدا Matelda ، تلك الصورة الشعرية الجميلة التى لم يصور شاعر أحلى ولا أرق منها — ماتلدا ملك الهداية يوجه خطى دانتي الأخيرة قبل أن يصل إلى هدف آماله — إلى بيتريس التى لن يستطيع أحد غيرها أن يرتفع به إلى الجنة ، جنة السماء . أو ما حان الحين ليلقى دانتي سيده وقد شق من أجلها لهيب النار يطهر به ما ارتكب من آثام ؟ أو ما تزال بيتريس تنعم منه ما تمزقت به نفسه من شهوات ؟ أو ما تزال تألم لما أثقل به ماضيه من عيب بأودية السراب ؟ ذلك ما نؤمن به وإلا لما قاده ماتلدا إلى نهر الليثية Lethe نهر « النسيان » يشرب منه فيمحو من ذاكرته كل ما علق بها ؟ وقرب موعد اللقاء فكان على الشاعر أن يشرب من نهر آخر « إينويه » Eunoë نهر « الذكريات الطيبة » ليعود إلى عهد الطفولة ، عهد بيتريس التى صاح رسول من السماء يعلن قدومها . وإذا بصيحات النشوة تملأ الجو ، وإذا باللائكة تنثر الزهر فى كل مكان ، والهواء يهتز ببیت الإنيابة الشهير :

« هيا ! هيا ! انثروا الزيتق حفات » .

« وعند بمت النهار وقد اكتمى شرق الأفق لونه الوردى ، وسجت بقية السماء بهدوء جميل ، رأيت الشمس يوماً تبزغ خلال ظلال يحجب من ضيائها فيستطيع البصر أن يثبت لزويتها ؛ وهكذا خلال سحابة من الزهر نشره أبذى الملائكة ثم يساقط فوق العربة . ومن حولها ، لاحت لى امرأة يجلبها نقاب طويل أبيض وبرامها تاج من الزيتون ، ومن تحت النقاب معطف أخضر يكسو ثوباً في لون الذهب الحى . وإذا بروحى ، التى لم تستشعر منذ زمن بعيد فى حضورها ما ألفت من ذهول وخوف ، تتعرف إليها ، لا برأى العين ، بل بما ينبعث عنها من سحر خفى ، وإذا بجي القديم يعود أقوى مما كان . ولم يكذب على عيني هذا السحر ، الذى مسنى بجرأحه قبل أن أدرج عن طفولتى ، حتى التفت إلى ينسارى فى خشوع كما يلتفت الطفل إلى أمه عند ما يناله خوف أو يصيبه ألم ، أقول لفرجيل : لم تعد بن قطرة دم لانهز ! لقد يمت الحب القديم أمارات لميية » .

ولكن أنى له فرجيل يفهم عنه وفرجيل قد وى ؟ ! ونظر إلى حبيبة طفولته فإذا بها على غير ما عهد ، وقد استحات قاصياً صارماً يحدث الملائكة عما كان من ضلاله :
« لقد خلق هذا الرجل كما يشهد (عهد شيا به) بحيث تستطيع كل فضيلة أن تنحب فى نفسه أروع النحب ، ولكن حقلاً تساقط به بذور سيئة ، حقلاً لا يمهده أحد ، خلين أن يزداد ثمره مرارة كلما ازداد خصوبة — لقد قومت من هذا الرجل بنظرأتى ، وقد تعلق بها فهديته سواء السبيل ، ولكنى لم أكذ أدلف إلى حياتى الأخرى حتى انصرف عنى إلى غيرى . تركنى ليتخبط فى مسارب الخطيئة ، وقد خدعته تلك الصور الباطلة التى لا تستطيع أن تحقق ما نمد . وعشنا حاولت فى ساعات إلهامه ، فى حلم كانت أو فى صحو أن أردت به إلى ! نعم ! لقد ضاعت جهودى كلها بسدى حتى لم أعد أرى سبيلاً لنجاة غير أن أطلعه على ما أعد للأثنين من عذاب ، وهذا ما حملنى على السير إلى مدخل جهنم لألقى به من أوكلت إليه قيادته ، أوصيه به خيراً وأدعى مستهلات ؛ والآن لقد قضت إرادة الله التى لا مرد لها ألا يعبر الليثيه وألا يشرب من مائه إلا من يسكب فيه دموع الندم » .

ثم التفتت إلى دانتي قائلة وقد صوبت إليه سنان اللسان يحز فى نفسه حزاً : « قل ! قل ! ليس كل ذلك صحيحاً ؟ يجب أن تلحق بآثامك الاعتراف بها » .

واضطربت فى نفس دانتي كل قواه ، حتى لقد هم صوته بالإجابة فأت دون شفقيه ، فصمتت ببيتريس هنيهة ثم قالت : « فيم تفكر ؟ ! أجب ! أجب ! ما دامت مياه هذا النهر

لم تستطع أن تعظم في نفسك ماعلق بها من ذكريات محزنة .
وأخذ الخزى والخوف بنفس دانتي فانطلق لسانه « بنعم » خافعة لم تسمع لولا أن نعت
عنها حركات الشفاء . وكما تتعظم القوس عند ما تقسو في شدها فلا تستطيع أن ترسل السهم
إلى هدفها ، تعظمت نفس الشاعر ، فانتجرت دموعاً وزفرات غصص بها صوته . وعادت بيترس
إلى أسئلتها القاسية : « قل لي : أى أغلال لقيت بسيلك فضاقتك عن المضي فيها وقد
تملقت بي رغباتك قد تكت في سبيل الحب ، حب الخير الذى ليس لنفس أن تتطلع إلى سواء .
قل لي : أى اللغريات وأى الوعود لحت على الجباه فدرت من حولها ؟ » .

وأطلق دانتي زفرة كأنها ذهبت بما يملك من صوت فلم يستطع الكلام حتى أجاب
بأكياء « لقد حدث بخطاى خيرات العالم الخادعة منذ أن غاب وجهك عن بصرى » .

واستأنفت بيترس : « لو أنك أردت أن تكلم أو أن تنكر ما تنترف به الآن لاخفى
شيء من خطاياك ، وعند فاضيك عنها علم اليقين . ولكنك عند ما ينبعث الاعتراف من فم
الخطيء ، ترى سيف القضاء وقد انفل . ومع هذا لا بد أن تشمر بشقل ما حملتك خطاياك
من خزى ، حتى لا تعود قستهم إلى أصوات النواية . هيا ! ألق عن نفسك قليلاً مما يبيئك ،
ثم استمع إلى لتعرف كيف أن جسمى الذى واره التراب كان خليقاً بأن يدفعك في غير
ما سلكت من طرق ، وهل أرتك الطبيعة أو أراك الفن جسا أنفذ سحراً من ذلك الذى
أودعته سجينته وما هو اليوم قد عاد فاختلط بالتراب ؟ » .

وأحس دانتي بالندم ينشب فيه أظفاره ، فسقط مفشياً عليه ، حتى إذا أفاق أخذه فضائل
الدين ، حيث غسلت نفسه مما بها غسل ، وفتح عينيه فاستطاعت أن تثبتا لجمال بيترس ،
وقد تجردت نبراتها من تلك القسوة التى أحسها في حسابها له عما فرط من واجب الاخلاص
لها حية ، والوفاء لذكرها ميتة . وما بيترس الآن إلا روح خالصة تبصره بأسرار العالم
الآخر ، على يحملها إلى من تضم هذه الأرض من أرواح بائسة بمجرتها .

منذ تلك اللحظة لم يعد بين دانتي وبيترس حجاب ، وهما هم تسمو إلى الجنة ودانتي
معلق بنظراتها خلال السموات التسع ، وقد أعشى بصره نور الله ففجز عن أن ينظر إليه
إلا في أعين بيترس ، التى ما زالت منحو عليه حتى استطاع أن يتلقى مباشرة نور ربه .
ولم تناديه فتاة فلورنسا حتى وصلا إلى أقدام المنراء ، حيث تولى قيادته إلى خالته — مصدر
كل حياة — القديس برنار الذى تننى بمجال مارية أعذب الغناء . وافترق الحبيبان ، وكان
وداع الشاعر : « أبقي لي رحمتك تتلقين بها روى التى شفيتها — عند ما تفلت من جسمها
متصاعدة إلى كنف الله » .

جوليان سوريل

Julien Sorel

جوليان سوريل بطل رواية « الأحمر والأسود » للكاتب الفرنسي ستانдал Stendhal سنة ١٧٨٣ — ١٨٤٢ . نموذج لنوى المواهب الذين نشاء الأقدار أن يشبوا بين طبقات الشعب المتواضعة ، ثم ينظروا فإذا بوقاحة المال وعزة المركز وصلف المجد تنكر لها وهبوا وتود لو درّجهم أ كفافاً من الاحقار ، وإذا بكبرياء المواهب تحرق الأ كفاف .

نادت الثورة الفرنسية بالمساواة بين الرجال ، كما حطمت الامتيازات لتجعل الحقوق وفق المواهب ، وسرى هذا البدء الجليل حتى لكأن الأطفال يرضونه مع لبان أمهاتهم ، فيكبر صغيرهم وقد استقر في نفسه أن ملكاته سبيل مجده ، وأن الزجاجة الاجتماعية لا بد آتية في آثار التفوق العقلي . ولكن ما يكاد الرجل منهم يدلف إلى الحياة في العشرين من عمره حتى تهض أمام طموحه وإيمانه بملكاته أشد المقبات ؛ فكمن من نفوس صغيرة ومواهب واهية قد دفعتها في سبيله القراية وحماية ذوى السلطان وقوة المال ودم النفوس الملتوية فسدت النافذ ، وسبقته إلى غلات المجد ! وهكذا تنصور النفوس الممتازة ، وقد قضى عليها أن تتبع السلسلة الإدارية ، وأن تكبح من طموحها حتى تبلى في أصغر المراكز ، وما تزال تحنى أسلابها وتنصب عرقاً حتى تستطيع — وقد لا تستطيع — بعد جهد عشرين عاماً — جهد الرقيق — أن تصل إلى ما تستحق . وأما ملكاتها فإذا تجدى في هيئة اجتماعية لا تقيم لها وزناً ؟ وهكذا تعلن الجماعة إفلاسها ، إذ لا تمكن خيرة أبنائها من حقوقهم ، فيحتفى رجال الفن والعقل بالأم الأحلام ، بينا الطبايع المسألة يتناولها اليأس فترضى بحياة متثلة الخطي ، راضية بما يتخلى لها النبر عنه وقد أضناها الجهد وهذا الظلم ، وأما الإرادات القوة — ومن بينها سوريل Sorel — ممن لا يتمدون على حام ولا قريب عهد لها السبيل فإذا تفعل ؟

أما القناعة بالقليل والرضا بالظلم فلا ، بل تأهب للنزال ، وقد تجهمت لهم أوجه الجماعة التي يحيون فيها ؟ فليطرحوا ما كبلوا به منذ الطفولة ، وليسكتوا ما تستشعر نفوسهم من رحمة أو مختلج في ضائرهم من ندم ، وليشقوا سبيلهم في جسارة عند ما تسنح الفرص ،

وليصطنعوا - إلى أن تسنح - كل قسوة وفاق ، ولكن بعد ذلك ما يكون . وهكذا تجعل الجماعة منهم كما جعلت من « سوريل » ، طيوراً جارحة ، وإن تكن يد الأداة الحكومية لهم بالرصاد ، تقودهم إلى الشائق كما قادت سوريل الذى لولا عبوس القضاء لجشت تحت قدميه تلك الجماعة التى أُنزلت بنفسه الخراب .

لم يكد سوريل يبلغ العشرين من عمره (سنة ١٨٢٨) حتى كان مجد نابليون قد زال ، وقد عادت الملكية ، وعاد رجال الدين إلى تقودهم القديم ، ولكنه لا يزال يذكر ما رآه غير مرة أيام طفولته من فرسان نابليون فوق جيادهم الأصيلية ، وقد انتفت من حولهم معاطفهم الضافية البيضاء ، وغطت رءوسهم قلانس تحلبها شعور الخليل السوداء ، مارة بقريته إلى جوار جرينويل ، وهى عائدة من غزواتها بإيطاليا . ولكم من مرة نظر من نافذة غرفته فإذا بالخليل واقفة فى الساحة أمام المنزل أو مشدودة أعنتها إلى قضبان نافذته ! ولكم استمع إلى أنباء البطولة التى تردها كل الألسنة عن مارك « لودى » و « أركول » و « ريثولى » ، فتتوق نفسه إلى مهنة الحرب ؛ ولكنه نظر فوجد أن زمن البطولة قد ولى ، وأن نابليون قد أصبح فى نظر ذوى السلطان غاصباً ، يورد النطق باسمه موارد التهلكة ، بينما انقلب الأمر كله لرجال الدين يرقمون من تشاء رغباتهم ، ويخفضون من يستهدف لخططهم ؛ فانتقد عزمه على أن يتخلى عن آماله فى الجيش وأن يصبح من رجال الكنيسة ، وإذا فليستبدل الرداء « الأحمر » الرداء « الأسود » .

ولد جوليان لأب نجار فى قرية صغيرة ، وكان أبوه أمياً فظلاً غليظ القلب . ولقد اتفق يوماً أن أتى الأب إلى « ورشته » ، وقد ناط بجوليان أن يقوم على ملاحظة العمل ، وإذا به يجده ممتطياً كتلة من الخشب عمدة قرب السقف ويبدع كتاب يقرأه . فناداه الأب فلم يسمع لشدة ضوضاء الناشير ؛ فصعد إليه ، وبضربة قوية على رأسه أوشك أن يسقطه على الأرض ؛ ولو أنه سقط لتقطعت أوصاله فوق الآلات المنتثرة هناك ؛ ولكنه أمسكه يديه الغليظتين صامحاً : « أيها الكسول ! أو ما تستطيع أن تقرأ كتبك اللينة فى الليل عندما تذهب إلى القسيس لتضيق وقتك ، بدلا من أن تلهو بها الآن عن ملاحظة الناشير ؟ » ولزم جوليان الصمت والسموع ترقرق فى هينيه ، لا لآ أصابه من ألم ، بل حزناً على كتابه الذى طاحت به ضربة أبيه إلى نهر مجاور .

— إنزل يا حيوان لأكلك !

ولكن جوليان لم يسمع أيضاً لشدة الضوضاء من حوله ، فأنى الأب سوريل بقطة

طويلة من الخشب وضربه بها على كتفه ، ذلك لأنه لم يشأ أن يمود فيصعد إليه ، و نزل جوليان ، وطرده أبوه بنصف أمامه إلى المنزل ، وكم كانت حسرة الغلام عند ما نظر إلى النهر وهو يتلعب « ذكريات سفت هيلانه » أعز ما يملك .

ولو أنك رأيته يومئذ لرأيت خدوداً حمرة وأعيناً ساجية ؛ وهو في التاسعة عشرة من عمره ، غلام ضعيف في مظهره غير منتظم مقاطع الوجه ، وإن يكن دقيقها ، ذا أنف منحن قليلاً إلى جانب ؛ وأما عيناه فكانتا كبيرتين سوداوين شديديتي البريق — ماهدأت نفسه — بريقاً يَمُ عن حرارة وعمق في التفكير ؛ وإن لم تكن ترى فيهما ذلك اليوم إلا بغضاً خفيفاً ؛ ولقد كان شعره الكستنائى القاتم يكسو أعلى جبهته ، فتبدو صغيرة ، مما يبالغ في مسحة الشر التي تلوح عليه عند ما يأخذ الغضب . وفى الحق أن جوليان كان أصيلاً فى خلقه ، وفى ضهور خصره ما يبنى بالغلة أكثر مما يدل على القوة . ولقد رأى أبوه منذ الطفولة فى ميله إلى التفكير وفى شحوب لونه ما حله على الاعتقاد بأنه لن يعيش ، وإن عاش فسيكون عبثاً على أمره .

وقد كان جوليان موضع احتقار أهل المنزل جميعاً ، فكره إخوته كما كره أباه ؛ ولكم ضرب بالساحة فى أيام الأعياد .

لم يكد جوليان يدخل المنزل حتى أحس بيد أبيه القوية تمسك بكتفه ، فارتدت فرائضه وتوقع الضرب ، ولكنه لحسن حظه لم يكن شئ من ذلك ، وإنما كان حوار بين الأب وابنه ، إذ أن عمدة القرية قد طلب إلى القسيس أن يأتيه بمرب لأولاده ، فلم يجد القسيس خيراً من تلميذه جوليان ، وقد توسم فيه كل نجابة ، فكرس على تثقيفه الكثير من وقته . وأروغ ما كان فى ذلك الحوار الفقرات الآتية :

الابن : وأى أجر سأنال على ذلك ؟

الأب : الغذاء والملبس وثلاثة فرنك .

الابن : ولكنى لا أريد أن أكون خادماً .

الأب : ومن قال لك إنك ستكون خادماً أيها الحيوان ؟ أنظرن أى أقبل أن يكون

ولدى خادماً ؟

الابن : ولكن مع من سأكل ؟

وكان فى السؤال الأخير ما أخرج الأب سوديل ، وخشى أن يكون فى جوابه ما لا يقتضيه الموقف ، فثار ضد جوليان وأشبعه سباباً ، متهماً إياه بالنهم ، ثم تركه ليستشير أبناءه الآخرين .

وذهب جوليان إلى منزل الميودى رينال de Rénal عمدة القرية ، فوجده رجلاً غنياً من رجال الصناعة ، نظر إليه فإذا به قد وخط الشيب عارضيه ، فلاح رأسه في لون بدلكه الرمادية ، وأحس فيه برضا عن نفسه واعتزاز بذاته لا تجده إلا عند ذوى العقول الضيقة والخيال المحدود ، رجل تلخصت مواهبه في أن يعرف كيف يحصل على حقه في أسرع وقت ، وكيف يرجي ما عليه إلى أبعد حين ؛ ومع ذلك قد كان المعروف عن الميودى رينال أنه ابن نكتة حاضر البديهة ، والفضل في ذلك راجع كله إلى دسنة نكات ورثها عن خال له . وأما مدام دى رينال فكانت امرأة طيبة النفس ، في الثلاثين من عمرها ، وكان جمالها ما يزال يهيج الأبصار . وهال جوليان ما رأى من بذخ هؤلاء الناس ، وخشي احتقارهم له أو إدراجه في عداد الخدم ، فقد عزمه على أن يرغبهم على احترامه ، بأن يقنعهم كما يقنع نفسه بأن النزاع إنما يقوم بين غنام وققره ، وأما قلبه فأسمى من أن تناله وتلحقهم ، وقد وضعه حيث لا تستطيع أن تصل إليه مظاهر رضام أو إعراضهم وتلك هنات هينات .

ذلك موقف جوليان من العمدة وزوجه . وأما الأطفال فقد كان يعلم أنه لا ذنب لهم في جراح نفسه ، فأخلص في القيام على تربيتهم ، يأخذهم بالمدل دون إسراف في المطف ، وكيف له بمثل هذا الإسراف وأقوى سلاح اعتزم أن يلتجئ إليه ضبط النفس والسيطرة على المشاعر ، بل والتظاهر بغير ما يضر ؟ ولقد كانت له في ذلك الأعاجيب ، فلقد تسوقه الحاسة يوماً في معرض الحديث عن نابليون إلى إعلان فرط إعجابه بهذا القائد العظيم ، ثم يفتن إلى ما في ذلك من حق قد يودي بمقتيله ، فيعاقب نفسه بأن يشد ذراعه إلى عنقه شهرين كاملين ، مدعياً أنه قد كسر وهو يحرك قطعة من الخشب . ولقد يخلص لتقسيم قرينه الود ، ويسترف له بالفضل ، ولا يفيظه منه إلا نفاذه لمكنون نفسه ، فإذ كان جوليان عميق الإيمان ، ولا كان ميله إلا الاشتغال بالدين صادقاً ؟ وإلى هذا فطن القسيس ، فأنخذ الشاب هدفاً له أن يخدع الرجل عما فطن إليه من أسره . ولقد تحس مدام رينال في جوليان أصالة في الرأي ، وقوة في الإرادة ، واعتزازاً بالنفس ، تدهش له فتعجب به ، ثم ينشرح لذلك سدرها ، وتساورها الشكوك عن حقيقة شعورها نحوه ، وإذا بالشك ينجلي عن يقين ، وإذا بدماد رينال تحب جوليان ، وجوليان عنها لاء ، وما إلى هذا تتطلع نفسه الجريحة ، وقد اتجهت بكل عنف إلى التآمر من تلك الجماعة التي تختبئ في ديب جناته ؛ ويكون في موقفه من تلك السيدة المطوف ما يدهش .

كان من عادة مدام دى رينال أن تستعطف جوليان وصديقه لها إلى تخديفة المنزل وقت :

العشية ؛ وفيما هم جالسون ذات ليلة مست يد الربى يد السيدة تنفوا ، فسارعت السيدة إلى سحبا ، وحسب جوليان في ذلك احتقاراً له ، وتنصت بذلك حياته طوال الليل والنهار التالي ، حتى أتى الليل من جديد ، وعاد الثلاثة إلى مجلسهم من الحديقة ، ووطد الشاب عزمه على أن يمسك باليد التي تراجعت عنه بالأمس ؛ وكان صراع بينه وبين نفسه لم يجد منه مخرجاً إلا بتحديد موعد لتنفيذ عزمه ، وكان ذلك الموعد دق الساعة العاشرة ، ودقت الساعة فأمسك بيد مدام دى رينال ، وتراجعت اليد فعاد للامساك بها ، واستسلمت السيدة لجرأته ، فتركت يدها في يده ، بل عادت هي إلى أخذ يده عندما رجعت من قضاء أمر نهضت إليه ، وكان ذلك المساء فاتحة سقوط تلك المرأة المسكينة ؛ ووجد جوليان في استسلام السيدة نشوة لا حد لها ، لانشوة الحب ، ولا نشوة اللذة الهيمية ، بل نشوة الانتصار المتمطشة إليه نفسه .

وذاع الأمر حتى لم يعد هناك معدل عن أن يغادر جوليان هذا المنزل الذي دنسه ، لينهب إلى مدرسة القسس بإحدى المدن المجاورة يتم بها دراسته ؛ وقبل بالمدرسة لتفوقه الظاهر ، وهناك زادت خبرته بالرجال وزاد ظنه بهم سوءاً . نعم إنه قد وجد في « الأب » الشرف على المدرسة قفلاً راجحاً ، وقلباً كبيراً ، قدر مواهبه حتى قدرها ، بل وأحسن نحوه رغمًا عنه يجب لا يبنني لرجل دين أن يخص به فرداً دون آخر ، وحبه كله لله وحده ؛ ومع ذلك ألم يقل له هذا الأب يوماً : « نعم يا بني إلى أستشعر نحوهك العطف ، والله يعلم إن ذلك على الرغم مني ، وأنا لا أجهل أنه ما يبنني لي أن أخص أحداً من البشر بحب أو بغض ، وأن أكون بينهم عادلاً فحسب . أي بني ! إن مستقبلك شاق ، وفيك ما يفر النفوس المبتذلة . سيطاردك الحسد والغيرة ، وحيثما اتجهت أو سافقت الأقدار مستحق دائماً بمحمد زملائك الذين لن يتظاهروا بحبك إلا ليمتوا في السكيد لك . وما أرى لهذا علاناً غير الركون إلى رحمة الله الذي شاء أن يحمل في كره الناس لك عقاباً عادلاً لفرورك ، ليكن سلوكك تقياً ؛ وسوف ترى أن أعداءك سيبيوون بالهزيمة ما تملقت بالحقيقة الخالصة تعلق التريق بأسباب النجاة » .

وشامت شهوات الحقد ودس النفوس الوضيعة أن يتخطى الأب الشرف على المدرسة عن مركزه ، وخشى الأب على جوليان غيره لإخوانه وحقدم ، فأخذ معه إلى باريس حيث وجد له عملاً كسكرتير للسيو دى لامول De la mole أحد الأشراف الوزراء ، بل أقوى الوزراء تفوقاً في ذلك المهنة ؛ ومع ذلك قد تسام : أ كانت مخاوف الأب من أجل جوليان

على أساس ؟ ألم يتفق لهذا الشاب الموهوب أن لاقى يوماً الطران فأعجب به ، وأهداه كتاباً قديماً عاد به إلى المدرسة ، فمكنت الأخقاد من حوله وأخذ إخوانه يسلمون له بالتفوق ؟ ثم ألم يتحدث يوماً أن ربه الأب الشرف نفسه إلى رتبة قارئ الكتب القدسة أيام القداس ، فأخذ إخوانه في تملقه بدلاً من كرهه والحقده على مواهبه ؟ ولكن كل ما أصاب من توفيق لم يستطع في الحق أن يسكت غل القلوب جميعها ، وقد استمر الكثير منها على عداوته الظاهر أو الخفي .

وكانت إقامة جوليان عند الركيز دى لامول بياريس أشق من إقامته عند الميسيو دى رينال عمدة قريته ، ولكم قاسى من احتقار الركيزة بنوع خاص ، هى وزارتها ؛ ولكم ضاقت نفسه بأحدث الركيز وإخوانه بالصالون كل مساء ، وحديثهم لا يبدو أخته الأشياء ، حتى أصبحت حياته جحماً ؛ وكان إحساسه من الازدحام بحيث أصبح يشعر ببحر من كل نظرة ، وتولفت في نفسه من المقد ما جعله يخشى اعتداءً في كل لحظة ، ولكنه رغم ذلك صمد لما حوله من ضغط بعزم قوى ، وبإدراك الكل احتقاراً باحتقار ، وتالياً بتعال ، حتى دانت له النفوس ، وبلغ الأمر بينت الركيز نفسها أن أعرضت عن كل من يسعى إليها من أشراف لتتعلق به ؛ وكان يوم همت الفتاة بالسقوط فيه بين يديه ، فمادته طبيعته الأخيرة ، وأخذ يناقش نفسه الحساب ؛ ولكنه عاد فذكر ما كان من اضطرار تلك الفتاة له في أول الأمر ، ورأى فيها رمزاً لتلك الجماعة التى أذاقته مر الآلام .

« يالى من أحمق — أنا ابن الشعب تأخذنى رحمة بمائلة كهذه — أنا الذى دعانى دوق شون خادماً . ثم كيف يجمع الركيز ثروته ؟ أليس يبيمه أوراقاً مالية عندما يعلم من القصر أنه سيحدث في اليوم التالى ما يشبه انقلاباً في الحكم ؟ ! وآنى أنا الذى أقام القضاء الظالم خلف الصقوف ، أنا الذى أملك قلباً نبيلاً ، ولا أملك ألف فرنك دخلاً ، أنا الذى حرمت الخبز — نعم الخبز الضرورى ، فأرفع عن لثة تسقط بين يدى ! لا — لنترك هذا الحق — ليعمل كل نفسه وسط هذه الأثرة القاسية التى يسميها الناس الحياة » .

وتذكر جوليان نظرات الركيزة وصديقاتها فاشتعلت نفسه وجرت شهوة الاجرام في دمه ، وكأنه عندئذ رجل يحارب الإنسانية جميعاً ، وسقطت الفتاة وحلت من جوليان ، وعلم بذلك الأب ، فهم بأن يعمل ليمنج جوليان قلباً يدخله في عداد الأشراف فيزوجه من ابنته ، وقد خيل إليه غروره أن جوليان لا يمكن أن يكون ابن نجار ، وأنه لا بد ولد طبيعي لأحد الأشراف يحلى عنه أبوه بين يدى ذلك النجار الذى ينسب إليه ، وإلا فمن أين لجوليان بتلك

الشخصية القوية ؟ وود أن يستوثق من الأمر بالكتابة إلى أحد أهل قرية جوليان ؛ فاهتدى إلى مدام دى رينال ، وأمل القسيس الذى يتلقى اعترافات تلك السيدة الرذاسيا ، فثار غضب الركينز وعدل عن مشروع الزواج .

فثار جوليان وركب رأسه إلى قريته حيث شرع فى قتل مدام دى رينال وهى تصلى بالكنيسة ، وكان يوم المحاكمة حيث تضافرت جهود بنت الركينز ومدام دى رينال لإيقاظه بعد أن عجز الكل عن حمله على الفرار . ونهض جوليان موجهاً الخطاب إلى المحكمين بهذه الألفاظ :

« أيها السادة المحكمون ! إن شناعة الاحتقار الذى أريد أن أحمده عند الموت هو الذى يدفعنى إلى الكلام . أيها السادة ! ليس لى شرف الانتماء إلى طبقكم الاجتماعية ، وما أنا إلا فلاح بسيط مار على ما أنزلته الأقدار من منزلة وضيمة . ثم لى لا أطلب منكم رحمة ، وما أخادع نفسى فى أن الموت ينتظرنى ، ولنى لمستحقه . لقد اعتدت على سيدة جذيرة بكل احترام وكل تقدير . لقد كانت مدام دى رينال لى أمأ ، ولقد ارتكبت جريمة شنيعة أصروا عليها من قبل ، وبذا وجب لإعدائى أيها السادة . ولو أننى كنت أقل إجرأاً لما منع ذلك نفراً من الناس من القسوة على دون رعاية لما يستحقه شبابى من رحمة ، ولا كم لهم إلا أن يعاقبوا فى شخصى أولئك الشبان الذين ينشأون من أصل متواضع تعد به الفاقة ، ثم تشاء الأقدار أن يصيبوا من التربية الحسنة وأن يستشعروا من الحسارة ما يدفعهم إلى الاختلاط بما تسميه كبرياء الأغنياء « الطبقات الراقية » . هذه أيها السادة جريمة . ولنى لى ثقة من أنها ستعاقب أشد العقاب ، وبخاصة لأن قضائى ليسوا من أندادى . وما أرى على مقاعد المحلفين فلاحاً اغتنى ، بل كلهم أعيان مترمتون » .

وواصل جوليان حديثه هذا عشرين دقيقة ، والنائب العام يتفزز فوق مقصده ، وهو أحرص ما يكون على رضا ذوى السلطان . وبالرغم مما كان فى حديثه هذا من عمق ، فقد تساقطت الدموع من أعين كل السيدات الحاضرات ، وما كان أ أكثرهن فى ذلك اليوم ! وسبق جوليان إلى الجيوليين بعد أن رفض توقيع استئناف الحكم .

هذا هو جوليان سوريل كما خلقه ستاندال ، لحق فى شخصه ما عجز عن تحقيقه فى حياته ، فهو رمز لأحلامه . ولقد كان ستاندال من أشد المتعجبين بنابليون ، فقد قص حياته فى كتاب رائع . وكان ستاندال ممن يدينون بمبدأ القوة التى تم عنه كل رواياته . وهو أب روحى لنييتشه وأحد مناه ذلك التيار الجارف الذى اجتاحت القرن التاسع عشر ، تيار العنف واستنكار

قواعد الأخلاق ، ذلك التيار الذى لو لم يصمد له تولوستوى لدمر الإنسانية .

جوليان سوريل هو ستاندال نفسه إلى حد بعيد ، ستاندال الذى حرم من عطف والدته صغيراً وشقى بقسوة أبيه ، وجاؤل مجد الحرب مع نابليون بإيطاليا وبالروسيا ، ثم عاد بنير مجد ، فاندرج فى السلك السياسى ، وعاش بإيطاليا زمناً طويلاً ، حيث رأى فى ذلك الشعب من حدة الطبع وتوهم الحركة ما كان يجب به .

والآن ترى بم نحكم على جوليان ؟ والذى لاشك فيه أنه يتمتع بعطف ستاندال ، وأن البيون بينه وبين جريزولو Grestou « تليذ » بول بورجيه لبيد . جوليان لم يولد خسيساً ولا شرير الطبع ولا محمولا على الإجرام بالفطرة ، وفى تاريخ حياته ما يؤيد ذلك ؛ أخلص الود لصديقه الريفى فوكيه ، وأعزه حتى أسلم آخر أنفاس الحياة ، ولقد صفت نفسه وسلس طبعه بين يدي قسيس قريته وبين يدي الأب الذى كان يشرف على مدرسة القسس التى تعلم بها ، وود لها الخير من كل قلبه . ولقد كان جوليان بطبعه حياً خجولاً متواضعاً . ولو أن الجماعة التى عاش بينها لم تشمره باحتقارها له ، ولو أنه كان بليد الطبع صفيق الإحساس لما انقلبت حياته مأساة . ولهذا ربما كان جديراً بالمطف وإن كانت وسائل انتقامه مما لا تطعن إليه النفس ؛ وقد أصاب بها أحياناً من كان موضع رعايتهم . وما يبنى مهما تكن الظروف أن نفقد الحس الأخلاقى فنضرب على غير هدى .

إبراهيم الكاتب

يقول المازنى — وما تريد أن نظن به الكذب ، وبعض الظن إثم — «ولست أحتاج أن أقول إنى لست بإبراهيم الذى تصفه الرواية ، وإن هذا المخلوق ما كان قط ، ولافتح عينيه على الحياة إلا فى روايتى . . . ثم إنى لست أرضى أن أكونه ، فما تحببى سيرته ولا مزاجه ، ولا التفاتاته ذهنه ، وقد ندمت على خلقه بعد أن سويته ، فلو كان دمية لخطمتها وطحتنها ، ولو كان صديقاً لجفوته ونبوت به . ذلك أنه يتناول الحياة باحتفال ، وأنا ألتقاها بغير احتفال ، وهو يعيش للدنيا ، وأنا أقتر لها عن أعذب ابتساماتى ، وأحس السرور بها يقطر من أطراف أصابعى — كالمرق . وهو مغربى بالفلسف ، وأنا أعد الواحد من هذا الطراز مرزوءاً يستحق المريعة ، وهو وعز متكبر ، وأنا سمح متواضع ، وهو عنيد ، وأنا رضى سلس ، وهو نفور ، وأنا عطوف ، وفى نفسه حرارة ، وأنا متنبط بالحياة ، راض عنها ، قانع بها ؛ وهو كأنما يريد أن يخلق الدنيا والناس على هواه ، ولذلك تراه قليل التسامح ، ضيق الصدر ، وأنا لأرى فى الإمكان أبدع مما كان ، ولست مثله أو من بالتثليث فى الحب أو الكره ، ولم أمرض قط بالنيومونيا الخ . الخ . . . فليس بيننا كما ترى من تشابه ، سوى أن كلينا قصير قىء ، وأنا أزيد عليه أتى أصبت بالمرج ، فليتة كان هو المصاب وأنا الناجى الملقى » .

[المقدمة]

وأنا بعد أعرف « إبراهيم الكاتب » ، وأما « إبراهيم المازنى » فلا . إلا أن يكون حدس لا يفتى عن اليقين . وإن يكن ثمة أمر يلبيل الأفكار ، فهو ذلك التمازج القوي بين مزاج الرجلين ، ونظرتيهما إلى الحياة . إبراهيم الكاتب رجل يحتفل بالحياة ويعيش للدنيا وهو مغربى بالفلسف ، نفور وعز ، متكبر عنيد ، فى نفسه حرارة ، وهو قليل التسامح ضيق الصدر ، لأنه كأنما يريد أن يخلق الدنيا على هواه ، وهو أخيراً قد استطاع أن يحب ثلاث نساء يتردد بينهن كالورقة القابلة تتقاذفها الرياح . . . وأما إبراهيم المازنى فرجل يتلقى الحياة بغير احتفال ، ويفتر لها عن أعذب ابتساماته ، ويحس السرور يقطر من أطراف أصابعه كالمرق ، وهو يمد من المتفلسفين مرزوتين يستحقون المريعة ، وهو سمح متواضع ، رضى سلس عطوف متنبط بالحياة ، راض عنها قانع بها ، لا يرى فى الإمكان أبدع مما كان . ثم هو فيما يظهر لا يؤمن إلا بالله واحد ووطن واحد وحب واحد كما يقولون . لقد ذهب المازنى بكل

الصفات الطيبة ، وأما سميته فالويل له . ومن عجب أن تنظر قترى فى قسمة إبراهيم الكاتب ما يذكرك بقسمة إبراهيم المازنى عند ما أصاب الأخير شيء من هرم النفس ، فتساءل : أو لم يتبادل الرجلان يوماً شيئاً من خصائصهما ؟ أو لم يحفل المازنى بالحياة ، ويمس للدينيا ، ويتفلسف فى نفور وكبر وعناد ومرارة ، حتى ملَّ وكاد يستريح إلى اليأس ، فإذا به يتلقى الحياة بنير احتفال ، ويقرر لها عن أعنب ابتساماته وقد أخذ يرثى للتفلسفين ؟ ذلك ما نكاد نجزم به ولنا أدلة كثيرة نكتفى بأقواها ، وهو ذلك السرور الذى يقطر من أطراف أصابعه كالمرق : سرور ملح ؛ ابتسامة مرة ؛ عالم يراه أبدع العوالم ، لأنه لا رجاء فى إعادة خلقه ؛ نفس ألت حتى اليأس ، واستغرقت فى الحياة حتى مجتها ؛ ومن كان هذا شأنه لا نحسبه يصير رماًداً كله . قنقش تجدد تحت الرماد ناراً .

وفى الحق أن إبراهيم المازنى رجل أثر ، فهو يريد أن يسلب إبراهيم الكاتب الكثير من صفاته ليدعيها . إبراهيم الكاتب نفس واسمة ، اتسعت حتى احتوت الأضداد . ولو أنك سألتني أن أصف لك ذلك الرجل العجيب لما استطعت خيراً من أن أجمع بميزات الإبراهيمين قائلاً : هذا هو إبراهيم الكاتب . ولا غرابة فكم أن الرجل استمرار للطفل ، وإن تغيرت القسمة ، كذلك استمرت مرارة أحد الرجلين فى ابتسامة الآخر حتى أصبح سروره عرقاً . ولقد كان فى المرارة شعر كما ترى فى الابتسامة سخرية ، وماتت الشعر وأب نازعته السخرية سحره . إبراهيم الكاتب أو إبراهيم المازنى مزيج من الشعر والسخرية ، وتلكا صفتان يرد إليهما بحق جورج ديهاىل سر نبوغ الكتاب ، مؤكداً أنه إذا أخلى الرجل منهما قد خلا من كل شيء وإلا فقد اجتمعت له مميزات الأديب الحق .

اجتماع السخرية إلى الشعر سر من أسرار الحياة ، يكاد إبراهيم الكاتب يفضلنا غلافه . ونحن بعد لا نستطيع أن نتبع تاريخ تلك الظاهرة فى حياة رجلنا ، لأننا لا نعرف قصته ، وإنما نعرف منها مرحلة قصيرة تذكرنا بالدراما الكلاسيكية حيث ترتفع الستارة عن شخصيات تكونت من قبل ، وإذا بنا أمام أزمة من أزمت الحياة ، وإذا بالشخصيات تتحرك فى أزمتها وفقاً لطبائعها ، ونحن بعد لا نعرف ماضى تلك الطبائع ولا سر نشأتها ، وإنما ندرك خصائصها من احتكاكها بالناس والأشياء وسط أزمتها المارسة . وإذن فقد كانت لإبراهيم الكاتب دراما صيغت قصة .

ونحن بعد نعلم أن إبراهيم الكاتب كانت له زوجة مانت مخلقة له ولداً ، وتبدأ أزمتها منذ مرضه بالاستشفى وتلقه بعمارى ممرضته التى يخشى استمرار علاقتها بها ، فيسافر إلى الريف

عند أقاربه ، حيث يجد بنت خالته شوشو الفتاة الجميلة الحية ، وأختها مميحة المائرة الحظ ، التي ينفر منها كما ينفر الدكتور محمود نفسه طيب المائلة وأخذ أقاربها ، وأخيراً نجمة الأخت الكبيرة زوجة الشيخ على صاحب العزبة التي نزل بها . وكان إبراهيم قد نشأ صغيراً مع بنات خالته ، ولكم دأب شوشو وهي طفلة وهو يافع مكتمل ، حتى شباً كأخوين ، وانقطع عنها سنين طويلة ، وما هو ذا يعود اليوم فيجدها فتاة تقرأ الأبصار والقلوب . وانتهى الأمر بأن اهتز قلبها بحبه ، وحاول أن يقاوم ذلك الحب فلم يستطع ، فود أن يتزوجها ، ولكن نجمة لم تكن لتقبل أن تتزوج شوشو قبل مميحة الأكبر منها سناً ، وأصرّت على أن تكون مميحة لإبراهيم ، وإبراهيم رجل عنيد يعرف ما يريد . وحاول الشيخ « على » الرجل الحكيم التزّن أن ينثى من حفاقة زوجته فلم يصل إلى شيء . وجرحّت كبرياء إبراهيم إذ رفضت نجمة أن « تعطيه » شوشو ، ولو « دفع لها وزنها ذهباً » . ونفض إبراهيم يده من الأمر ، وسافر إلى الأقصر ، حيث كانت له مقامرة مع ليلى إحدى النساء الحديثات ، وإن كانت في الحق امرأة لا تخلو من نبل وأصالة . ومريض إبراهيم بالأقصر ، وعاده الشيخ « على » والدكتور محمود ، وشنى وغادرته ليلى ، وعاد هو إلى القاهرة . وقد علمنا أن شوشو قد تزوجت من الدكتور محمود بعد أن برحت بها الآلام كما برحت بإبراهيم الذي لا نعلم من أمره بعد ذلك شيئاً .

هذا كل ما نعلمه من حياة إبراهيم الكاتب ، ومع ذلك فباستطاعتنا أن نلقط قسبته التي تجمل منه أعوذجا بشراً لاشك في صدقه ، وذلك لأن تلك الأزمة النفسية كانت كالحلح الذي يكشف في الرخام عن مجاذبه .

لقد استجاب طبع إبراهيم الكاتب لمدة أحداث ، ولهذا الطبع خصائصه التي كيفت تلك الاستجابات . نلمحه في أول أزمته مريضاً ، وزراه في آخرها مريضاً . ولعله غدى آله أو رفه عنه أثناء مرضه بذلك الشعر الجميل اللثام ، شعر الكتاب المقدس . ألا تراه يستهل قصته بإحدى آياته : « كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس يملآن ... » ، بل ويستهل كل فصل من فصولها : « وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً » ، « إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال أذهب إلى جبل المر وإلى تل اللبان » ، « أرجى ! أرجى يا شوليت ! أرجى ! أرجى فتنظر إليك » ، « أينما الجالسة في الجنات ! الأصحاب يسمعون صوتك فاسمعي ... » الخ الخ ، مما يفوح حزناً رقيقاً كم شعت به عبقريات منذ دافني إلى ملتن وثقى . لقد أثيرت نفس إبراهيم الكاتب حكمة الكتاب المقدس التي تمنح إلى التشاؤم والإعراض عن الحياة بل احتقارها ، حتى أصبح يرى الكثير مما يتعلق به باطلاً ، و « قبض الريح » ؛ ألا تراه

يسخر من جهد حياته ذاته فيحسبه « حصاد الحشيم » ؟ ولا يفترق منه تلك الفلسفة ،
فالحياة كالرأه الجيلة كلا عرشنا عنها اشتدت وراءنا طلباً ، وإن في إعراضنا للفة ، وإن
في استهانتنا الظاهرة لحرصاً لصيقاً بالقلب . انظر إلى نفس إبراهيم الكاتب تناجيه :
« ولكنك عبد الحياة ، عبداً الباكي الشاكي بفنائها الذي لا يعجب الأحرار الطلقاء .
وأحسب أنك معذور إذا بكيت إسارك ، وحاولت أن تطهى في سجنك . لا بأس ! أرسل
صوتك ليؤديه الصدى مقطعاً . نعم ، غنّ وتسلّ كما يصيح الصبي في الظلام ليطرد عن
نفسه المخاوف ، واحلم — على الرغم من الرق والأسر — بالخلود ، وغالط نفسك وقل إن
الجمال وحى ، وإن الحب ... لا أدري ماذا أيضاً ! ولكن ألا تسمح لي أن أسألك :
ما وحى الأزهير الذي يذكى أنفاسها ؟ أو كيف تنفد الأشجار رافة النفس فيحاء النار ؟
أو أين وحى النبيوع فاضت به الأصلا ؟ لا بأس ! غنّ يا عبد الأيام وألوبة الليالي » (س ١٨٨)
أولاً ترى في تلك النجوى صراع روح تودّ لو استقلت بذاتها فتحاول أن ترفض الحياة
ومغريات الحياة فلا تستطيع ؟ روح تهفو إلى أن يكون شعرها أغنية داخلية لا تستمد
وحياً من أحد ولا من شيء ، كالزهر يرسل عطره ، والشجر يؤتي ثماره ، والنبيوع يصدح
خريrem . وأنتى لها بذلك وحى لم تر الحياة إلا سجينه ؟

ولقد بلا إبراهيم الحياة وعضته بأنيابها المضل حتى أصبح يجنحها في بقعة مستمرة
فلا يستجيب لندائها أو يحاط به . ماتت زوجته . فلاحقته ذكراها سنين طويلة حتى أضنته ،
وفي معاودة الذكرى وإلحاحها ما يضئ . وثمة خواطر جرى بها لسان الشيخ على فأدهشني
لأنها بإبراهيم ألقى ، وفي لفتات ذهنه أدخل ! قال : « متى جاء الخريف وبدأ المرء يشعر
بأنه قد رأى خير ما كتب له في عمره ، وأن ما بقي من رحلته في هذه الدنيا أشبه بأن يكون
وجوداً منه بأن يكون حياة — استمراراً ومجرد اندفاع في الطريق التي كانت تجري فيه
الحياة الأولى كما يجري النازل من إترام خطوات إلى جانبه ... عرف المرء أن أذنه التي
كانت تملأها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللثة المذبة ، وصار القلب الذي كان
يطفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو طمح يخفق بلا احتفال ولا يخرج من دقه عن
الانتظام ، وبدأت الآمال والرغائب التي كنا نتميز بها ونحرص عليها ، تفقد حلاوتها وقوتها
ونضارتها ... وتتمرى زهراتها من أوراقها ، وتنجف وتصفّر وتبasp على اليد ، ويطيرها
التبسم هنا وهائنا » (س ١٦٤) . هذه هواجس ما أظنها تحظر لرجل كالشيخ على بيال ،
وذلك لأنه — فيما أعلم — يحيا الحياة ولا يفكر فيها ، وإنما هي فلسفة إبراهيم التي لا أدري
سر نسبها إلى الشيخ على ؟ وفيها لوعة تحدّثنا بأن سخرية إبراهيم وجفافه الإرادي تسمية

تنشرها الروح بحركة آلية لتخفى ما فيها من حزن ومهارة . ولكم من مرة تنسقط نجوى إبراهيم القلبية فإذا هي : « إن السعادة لا تجنى في الحياة بأن يرد المرء يده ، بل بأن يعدها إلى النار ليحيتها » (ص ٢٨٦) . ولكن ألم تقل إن تحت الرماد نارا ، وإن في تضاعيف السخوية شعرا ؟

إبراهيم الكاتب نفس لا تزال تعرف الحاسة وتستشعر الشهوات . نفس حارة وإن بلبلتها المرارة فسخرت ! وكأني بها نحن إلى أن تتعلق بشيء يملأ ما بها من فراغ يزيد هوته ما انساق إليه من إغرائض عن الحياة . نفس تود لو استغرقتها شعور قوى . وهذا ما نلجحه في تعلقه بمارى وشوشو وليلى ، على تفاوت في النوع والنسب . تعلق بمارى وقد أضعف المرض من صلابة نفسه ، فسكن إلى رقتها وأخى الحزن بينهما ، وكلاهما لا يزال يذكر شريك حياته الراحل . ثم انمقد قلبه بحب شوشو ، وقد سحره منها تفتح قلبها البكر كما تفتح الزهرة لندى الصباح . وكان في جرأة ليلي وقوة نفسها ونضوج أوتوتها ما جذب به وأوشك أن يزيه عن شوشو بعض الغراء أو على الأقل أن يليه عن بعض آله . وإبراهيم نفس غنية كثيرة الحفايا .

إبراهيم الكاتب أتعودج بشرى لذلك النوع من الناس الذين يطول تفكيرهم في أنفسهم وفي الحياة ثم لا يهتدون إلى فهم يرتضونه ، فينتهي بهم الأمر إلى التجرد من أنفسهم ومن الحياة يضمونها أمامهم ليحذقوا فيهما بنظرة ساخرة مؤثرة وإن لم يمدمو أن تثور بهم من حين إلى حين موجة تأتي من القاع ، فإذا بهم يزيدون وإذا بالاتبسامة قطر مهارة ، وإذا بالسرور ينساقط من أطراف أصابعهم كالمرق البارد .

إبراهيم الكاتب شاعر ، ولكم من مرة تتحرر نفسه من قيودها ، فيرى ما حوله من جمال الطبيعة يظن لتناقضها ، « وكان مما يرفه عن أعصابه أن يرسل اللحظ يريد ليخرق به أحشاء الظلمة ، فتش له عن نجوم السماء ويرتد اللحظ عما دونها كليلا حسيرا ؛ وأروع ما تكون السماء عنده حين تنتقل العين في أجوازاها الرعية فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولاً » .

والآن ترى أضحج ما زعمه المازني عندما قال عن إبراهيم الكاتب : « ليس بيننا من تشابه سوى أن كلينا قصير قىء ، وأنا أزيد عليه أني أضبت بالمرج ، فليتة كان هو المصاب وأنا الناجي الملقى ! » . وأنا بعد لا أدعي أن أزمة إبراهيم الكاتب قد اتفقت لإبراهيم المازني ، فهذا لا يعني ، ولكنني أحس بوشائج روحية بين الرجلين . أو لا ترى أن أنفسهما لونا وأن لحياتهما فلسفة ؟ كم تهزني روحهما اللطيفة النافذة !

فيليسيتيه

Félicité

فيليسيتيه بطله لقصة صغيرة لاروائى الفرنسى الكبير فلوير عنوانها « قلب ساذج » . كتبها للمؤلف سنة ١٨٧٧ ، ونشرها مع قصتين أخريين بعنوان « ثلاث ألقاصيص » . فى عنوان القصة وفى اسم البطلة مايشخص هذا النموذج المؤثر . ولو أنك طلبت إلى أن أترجم هذا الاسم وكان ذلك من حقى لما وجدت خيراً من « أم السعد » ، فإنما نحس فى هذا اللفظ سذاجة القلب وطيبته .

فيليسيتيه خادمة من خدم الريف : عقل محدود ، وقلب رحب . وعن هذه المفارقة يشع نبيل حياتها المتواضعة المزينة ، فلقد تراها تأتى من أعمال البطولة ما يتحدث به الناس كافة إلاهى ؛ وذلك لأنها لا تدرى ما البطولة ، بل ولا تشكرفيا تأتى . مثلها مثل كلب أمين ، لأن الأمانة من طبيعه ، يقاتل دون سيده ولقد يمسه الأذى ويمود من المعركة لا يذكر إلا ما به من جراح يحميها الله . ولقد تنزل بها الحزن فتألم حتى لتطرح نفسها على الأرض صارخة ممولة ، ولكنه ألم غفل لا أثر فيه لمذكيات العقل التى ما يزال يلوك بلوانا حتى يجعل من التوافه جلائل الأمور . فيليسيتيه مثل حى للملايين البشر الذين لم تفسد الحياة العقلية طبائعهم فتركها كماهى بما تحمل من عظمة وبؤس ، وإنك لتستعرض حياتها فلا تقع على فكرة ولا تقف عند رأى ، وإنما هى سلسلة من الوقائع لا تخلف بنفس خادمتنا المسكينه غير الإحساس ؛ وأما التفكير فى معنى تلك الوقائع فذلك مالا تعرفه . فيليسيتيه تحيا الحياة دون أن تفكر فيها ، ولكم تذكرنى حياتها بقول المسيحية : « انس نفسك كي لاتنوق موسيقاها » .

كان وجهها نحيلاً وصوتها حاداً . فى الخامسة والعشرين كانت تلوح فى الأربعين ، وعند ماوصلت إلى الخمسين لم تعد تنم عن أى سن . كنت تراها صامته دائماً ، منصوبة القد مترفة الحركات فتحسبها امرأة من خشب تعمل بحركة آلية . فى كل فصول السنة كانت تلبس منديلاً هندياً تشجبه بدبوس إلى ظهرها ، و « يريه » غنى شعرها ، وجوارب رمادية ، ثم « جونلة » حمراء ، وفوق قيصها « مريلة » كمرضات المستشفى .

ولقد كانت لها حكاية غرام كغيرها من النساء . كان أبوها بناءً قتل فى سقطة من « السقالة » ، ثم ماتت أمها وتشتت أخواتها ، فأواها رجل فى عزبه واستخدمها صغيرة فى

حراسة البقر بالحقل ، حيث كانت ترمد من البرد تحت أسمائها ، وتشرب الماء من البرك مطروحة على بطنها ، ثم تضرب لأوى الأسباب ؛ وأخيراً طردت لسرقة فرنك ونصف لم تكن هي سارقتها . والتفت بمزجة أخرى عملت فيها كحارس « لحوشة » اللجاج ، ولكن زملاءها أخذوا يحسدونها لأنها أعجبت أسياها .

وفي مساء أحد أيام أغسطس (وهى عندئذ في الثامنة عشرة) قادها زملاؤها إلى عيد كوثيل ، وإذا بلها يطير لضواء لاعبي القيثارة وللأضواء المثبتة في الأشجار ، ولألوان الملابس الزاهية ؛ للدنتلا والملبان الذهبية وتلك الكتلة البشرية التي تقفز راقصة دفعة واحدة . هنالك اتحت في تواضع ركنًا ، وإذا بشاب ترى المظهر يدخن البببة وهو متكئ برقبته على حجر عربية صغيرة يأتي يدعوها إلى الرقص ، ثم يقدم لها كوبا من عصير التفاح الحمر ، وفنجانا من القهوة ، وقطعة من الفطير ، ويشتري لها « كوفية » ، وكأنه أحس برغبة نفسها فرض عليها أن يصطحبها إلى منزلها . ولكنه أثناء الطريق طرحها بوحشية على حافة حقل من الشوفان ، فتملكها الرعب وأخذت تصيح وإذا بالفتى ينادرها مسرعا . وفي مساء آخر وهى في طريق « بومون » أرادت أن تسبق عربية محملة بالشوفان كانت تسير أمامها في بطء ، وبينما هى تمر ملامسة مجلات العربية لمحت « تيودور » الذى تقدم نحوها في مظهر هادئ طالباً إليها أن تنظر ما كان ، لأن الخطأ لم يكن منه وإنما كان من الشراب ؛ فلم تعرف بم تيجب وإن أحست برغبة قوية في الحرب . وفورده أخذ يتحدث عن الحصول وعن أعيان الناحية ، لأن أباه كان قد ترك كوثيل وذهب إلى عزبة « الأيكو » ، وبذلك أصبحا جيرانا . أجابت : آه ! وأضاف أنهم يريدون منه أن يستقر وإن لم يكن هو في محلة ، وكان يفضل أن ينتظر حتى يثر بامرأة على هواه ؛ فطأطأت رأسها . وسألها . هل تفكر في الزواج فابتمت قائلة : إنه ليس من الخير السخريه من الناس . كلا ! أقسم لك . وبذراعه الأيسر طوق خصرها فسارت مستندة إلى ضمته وتباطأت خطاها . لقد كانت الريح رخوة والتجوم تلع ، وحمل الشوفان الضخم يترنح أمامهما على العربية ، والخليل الأربعة تبحر أرجلها مثيرة التراب ، وعرجت الخليل إلى المين دون أن تؤمر ، وقبلها مرة أخرى ثم اختفت في الظلال .

في الأسبوع التالى حصل منها تيودور على موعد والتقى بأقصى « الحوش » خلف حائط تحت شجرة منعزلة . إنها لم تكن في سناجة الآنسات ، إذ كانت الحيوانات قد علمتها ، ولكن العقل وغريزة الشرف منعها من أن تسقط . وكان في مقاومتها ما هيح

حب تيودور حتى اضطر لكي يرضى ذلك الحب أو ... لسذاجته أن يمرض عليها الزواج ، فترددت أن تصدقه ، ولكنه أقسم أغلظ الإيعان . وبعد أيام اعترف لها بشيء مرقل ، ذلك أن أهله كانوا في العام الماضي قد اشتروا له رجلا يذهب بدلا منه إلى الجندية ولكنه لا يأمن أن يطلب من يوم إلى آخر ، وكان في هذه الفكرة ما يخفيه . ورأت فيليسيثيه في هذا الجبن مظهراً من مظاهر الرقة نحوها ، فزادت رقتها نحوه . وأفلتت في الليل لتأني للموعد وإذا بتيودور يذهب بقلقه وإلحاحه ؛ وأخيراً أعلن أنه سيذهب بنفسه إلى مقر العدة ليسأل عن الإجراءات ويأتيها بالأخبار يوم الأحد المقبل بين الساعة الحادية عشرة والظهر . وعندما حانت تلك الساعة أسرعت فيليسيثيه إلى الموعد ، ولكنها وجدت مكانه أحد أصدقائه ؛ وأخبرها ذلك الصديق أنها لن ترى تيودور بعد اليوم ، لأنه كي يأمن التجنيد قد تزوج بأمرأة مجوز عظيمة الثراء هي مدام « ليهوسيه » من قرية « توك » .

لقد كان ألها ألما مضطرباً لا نظام فيه . ألقت بنفسها على الأرض وأطلقت صيحاتها ، ونادت الله الرحيم ، وأنت وحيدة في الحقل طول الليل ، حتى إذا طلعت الشمس عادت إلى العزبة وأعلنت رغبتها في الرحيل . وبعد شهر أخذت حسابها ، ثم لفت كل متاعها في منديل وذهبت إلى « بون لوك » .

هنالك أمام الفندق عثرت باحدى نساء الأعيان ، امرأة في ثوب الحداد اتفق أن كانت تبحث عن طبخة ؛ ولم يكن يلوح على الفتاة أنها تعرف شيئاً ، ولكن مظهر الاستعداد الطيب والتسامح في أجراها كان بادياً عليها ، حتى إن مدام أويان انتهت بأن قالت لها سأخذك عندي ؛ وبعد ربع ساعة كانت فيليسيثيه عند مدام أويان .

ومكثت فيليسيثيه نصف قرن عند مدام أويان ، وكانت نساء أعيان بون لوك يحسبنها من أجل تلك الخادمة التي كانت تطبخ وتنظف المنزل وتحيط وتفسل وتكوى ، كما كانت تعرف كيف تلجم الحصان وتضرب الزيد و « تظنط » الطيور ، كل هذا مقابل مائة فرنك في العام ، وفوق ذلك كانت وفية لسيدها مع أنها لم تكن سيده طيبة .

كانت تستيقظ منذ الفجر حتى لا تفوتها الصلاة في الكنيسة ، وكانت تعمل حتى للمساء دون انقطاع ، حتى إذا انتهت العشاء وأعدت الأطباق المفسولة إلى مواضعها ، دفنت الخشب تحت الرماد داخل المدفأة ونامت أمامها ومسبحتها بيدها . ثم إنهما في مساومة الباعة لم يكن أحد أشد منها عناداً ، أما عن النظافة فقد كان يريق أوانها مصدر يأس للخدمات الأخريات . ولحرصها على الاقتصاد كانت تأكل في بطنها ، وتلم بأصابعها فئات الخبز الذي يتساقط على

المائدة ، ذلك الخبز السميك الذى كان يصنع لها خاصة ، كل رغيف اثنا عشر رطلاً تأكل منه عشرين يوماً كاملة .

أما مدام أوبان فكانت آيما ، إذ أنها تزوجت صغيرة بشاب جميل رزقت منه بولد هو پول وبينت هى فرجينيا . ثم مات زوجها فماتت الأيم بعده عشرات السنين وذكرى ذلك الزوج تحلق فوق كل شىء ؛ فالصالحون مسجى بالحداد وقد أغلقتهم إلى الأبد ، والبيان متروك بالصالة ومن فوقه أعمدة من صناديق الورق ، وصورة «الرحوم» بالحائط تشرف على الجميع . وكان مجلسها باستمرار فوق كرسى من القش وضعت أمام المدفأة التى كنت ترى على جانبها مقعدين آخرين من القهش لا ينادران موضعهما ، وفى المنزل كله رائحة تشبه الغفوة تقطر حزناً . وتناوبت السنوات والأيام متشابهة إلا أن تكون أيام الأعياد . وكانت مدام أوبان لا تؤرخ تلك السنين إلا بحوادث حياتها الداخلية التافهة ؛ فى عام كذا أحضرت عاملاً أعاد طلاء الصالة ، وفى عام كذا سقط جزء من سقف الحوش فكاد يقتل رجلاً ، وبعد ذلك بسنين مات إحدى صديقاتها أو انتقل أحد معارفها إلى بلدة أخرى .

ومع ذلك فقد جنت حوادث أعظم من كل ذلك خطراً . فى ذات يوم قصدت مدام أوبان وابنها وبنتها ومعها فيليسييتيه إلى إحدى عزبتيها ، وكان اليوم كثير الضباب ، وإذا بشور هائج يغير عليهم ، ولولا خادمتهم الشجاعة لافترسهم ؛ وذلك أنها أخذت تتناول قطع الطمى والأعشاب تلقىها فى وجه الثور متراجمة بظهرها حتى شغلته إلى أن تمكن أسيادها من النجاة وأخيراً وصلت إلى سياج والثور يطاردها ، وبحسن توفيق تسالت بين قضبان السياج فلم تصبها قرون الثور الذى أوشك أن يقد بطنها . وبهذا اليوم تحادث جميع الناس ، وأما هى فلم يخطر ببالها أنها قد أتت عملاً نبيلاً . وكان من أثر الخوف الذى نزل بهم جميعاً أن مرضت فرجينيا بأعصابها ، ولم يزل الدام يلح عليها حتى ماتت فكان حزن فيليسييتيه لموتها لا يقل عن حزن أمها ، وذلك لأنها كانت لا تزال تذكر تلك الأيام التى كانت تحمل فيها فرجينيا وبول على ظهرها كأنها حصان . ولئن كانت تلك الخادمة السكينة قد وجدت شيئاً من المزاء ، فإن ذلك لم يكن إلا فى الخصلة التى أخذتها من شعر الميتة واحتفظت بها فى صدرها .

وتسكالت المحن على فيليسييتيه ، إذ أنها لم تسكد تهتدى إلى مكان إحدى أخواتها وتعرف إلى ابن أختها فكتور الذى كان يافعاً جميلاً حتى سافر المسكين فى رحلة بحرية مع السفينة

التي كان يعمل بها بحاراً ، وكان سفرأ مشثوماً ، إذ لم يعد منه . ولكم سألت فيليسيثيه عن تلك الجزر النائية التي قصد إليها ، ولقد أروها فصلاً جزيرة هافانا على الخريطة ، ولكنكم لم تمنع بذلك بل ودت أن لو أروها — على الخريطة أيضاً — المنزل الذي يسكنه فكتور عند وصوله ! ولكم كان حزنها مرأ عند ما علمت بوفاته .

وكانت فيليسيثيه صادقة الإيمان بالدين إيماناً ساذجاً ؛ كم من مرة ذهبت لتعترف بخطاياها والله يعلم أنها كانت خطايا هينة لا يحمر لها وجه عناء . وأخذ خيالها الفطري يرى مظاهر الله في كل شيء . كانت تستمع إلى القسيس يتحدث عن الله فتود لو تصورت شخصه ، ولكنها لا تصل إلى ما تريد ، فهو أحياناً طائر وأحياناً قيس من النور ، وأحياناً نسمة من الريح . ومن يدرها لعله الضوء الذي يهفو في الليل على حافة النردان أو الريح التي تبوق السحب ، ولعل صوته هو الذي يتردد في النواقيس تنهات منسجمة . بل لقد أحببت كل حبل بسبب الحبل المقدس ، وكل حمامة بسبب روح القدس .

وكان لروح القدس في نفسها أثر عجيب ، ولذلك حكاية تستحق أن تروى .

فقد حدث أن إحدى صديقات مدام أوبان أهدبت إليها بقاء ، ولم تدر السيدة ماذا تفعل به ، فتركته لفيليسيثيه التي تعلقت به تعلقاً شديداً ، وبلافة ساذجة جمعت بين محبتها لله ومحبتها لذلك الطائر . أو ما يشبه الحمامة ، رمز الروح القدس ؟ وازداد إحساسها هذا تجمعا عند ما مات البقاء وحفظته محفظته به في حجرتها ، وانتهى بها الأمر أن أصبحت تعبد الله جاثية أمامه .

وماتت مدام أوبان ، فساءلت فيليسيثيه ، كيف يجوز أن تحوت سيدتها قبلها . وكان بول قد تزوج ، فأنت زوجته لتأخذ من الأمثال ما يصلح للبيع ، ولكم كان حزن فيليسيثيه عميقاً عند ما رأت زوجة الابن تنثر ملابس فرجينيا التي احتفظت بها مدام أوبان في (الدولاب) كآثار مقدسة . وكانت الخادمة المسكينة قد ترفق بها القضاء ، فأصابها الصمم وقعدت بصرها فلم تسمع ولم تر شيئاً مما قيل أو فعل ، إلا القليل الذي أدركته بالحدس . وكانت سيدتها قد وفقت عليها معاشاً صغيراً استطاعت أن تنهت به أياماً قليلة ، إلى أن وافاها أجلها ، وكان ذلك في يوم عيد ديني ، فلم تحزن فيليسيثيه لتفاداة الحياة قدر حزنها لعدم استطاعتها المشاركة في ذلك العيد الذي طالبا فرحت بقدموه .

هذه حياة فيليسيثيه . حياة حزينة مؤثرة ، حياة عبة وإثارة ؛ لقد أحببت بول وفرجينيا

طفلين ، ولم يكن يحز في قلبها شيء مثل حظر مدام أوبان عليها أن تقبلهما في كل حين ؛ ومن قبل أحبت تيودور وحسبت أنها ستزوج كغيرها من الفتيات ثغانها تيودور وخانها الأيام ؛ ومن بعد فرحت بشكثور فئات فكثور وبنفسها حسرة ، إذ لم تستطع أن ترى منزله على الخريطة بتلك الجزر النائية التي أبحر إليها . ولكنها قد وجدت في محبتها لله عزاء عن كل المحن ، وما عليها أن ترى الله في طائر أو في مظاهر الوجود ، والله روح بكل مكان وكل نفس ، ولربما كان هذا التجسيم الساذج سبباً في قوة إيمانها ، ولعل الله قد قبلها قبولاً حسناً فقد كانت حياتها بطولة صامته ، بطولة عظيمة لأنها تجهل نفسها .

الأستاذ پتلان

Maître Pathelin

الأستاذ پتلان بطل مهزلة "Farce" ظهرت بفرنسا في أواخر القرون الوسطى سنة ١٤٦٠ م . ونشرت سنة ١٤٨٠ . وأما مؤلفها فقد تضاربت بشأنه الآراء : فن قائل إنه « فرانسوا فيون » F. Villon ؛ ومن قائل إنه جيوم دي لوريس Guillaume de Lorris ؛ ومن قائل إنه أنتوان دي لاسال Antoine de La Salle ؛ ومن قائل إنه پير بلانشيه Pierre Blanchet ؛ ولكنها كلها فروض لا تقيد يقيناً بحيث يصبح من الخير أن نعترف بأننا لا نعرف ذلك المؤلف .

ولقد لاقت تلك المهزلة نجاحاً عظيماً عند ظهورها ، فثلت مرهات كثيرة ، وإلى اليوم لا تزال تمثل في الجامعات الفرنسية ، ولا تزال تقرأ رغم صعوبة لغتها القديمة ، التي تختلف اختلافاً محسوساً عن اللغة الفرنسية الحديثة . ولما كانت تدرس بكافة المعاهد الفرنسية ، فإن بطولها قد أصبح في شهرة أكبر الشخصيات الروائية ، فما من فرنسي يجهل الأستاذ پتلان ، بل قل أن يجمله أوربي مثقف .

ولا أدل على نجاح الأستاذ پتلان من أن يصبح اسمه من مفردات اللغة الفرنسية ، فيوصف الرجل بأنه « پتلان » C'est un Pathelin أى « مكر » ، ومن الاسم اشتق فعل كما اشتق مصدر ، فيقال Patheliner (پيتلن) ، كما يقال Pathelinage « پتلنة » بمعنى : « يمكر » و « مكر » . « الأستاذ پتلان » الحامي أعمودج خالده للمكر الذى يعرف من أين تؤكل الكتف ، والمكر ليس ملكة مستقلة ، وإنما هو وليد لمركب عجيب من قوى النفس . المكر ذكاء ينفذ إلى النفوس فيعرف مواطن الضعف فيها ، وإلى تلك المواضع يتسلل فيختلس الثقة ؛ والمكر إحساس باطنى بالنفس ؛ إحساس يقف بصاحبه عند طاقة الغير يبالغها برفق حتى يقودها إلى ما يريد وكأنه لا يمي ما يفعل ؛ والمكر أخيراً قدرة على تصريف القول ، وشعور دقيق بمفارقات الألفاظ . وهو صفة إذا حرم منها إنسان فقد سلاخاً لا يمكن أن يفتى عنه سلاح آخر للتجاح في الحياة . صفة لازمة لأرجال العمل بحسب ، بل لأرجال الفكر أيضاً ، وذلك لما هو واضح من أن الحياة البشرية كلها إنما تنهض على فهمنا لنفوس الغير ، وتدلليل تلك النفوس ؛ وأذن

فالمكر ليس شراً في ذاته ، وإنما يصبح شراً إذا أفلت من رقابة الضمير ، ومثله مثل الكثير من قوى الحياة والوجود .

ومع هذا فالأستاذ پتلان مثل المكر السيء الذى يحيق بصاحبه ، فهو لا يستخدم دهاءه للوصول إلى حق يرد عنه حق البشر أو شرم ، بل يستخدمه في اختلاس مال غيره أو تضییع حقوقهم .

تراه في أول المسرحية وكأن اللئى قد أخذ بملكاته ففت ، فأنته امرأته « جيمت » Guillemette تستهنه بصوتها الحاد كالصرير : « يا صلاة النبی ! لا قشة بالدار ! سيفیننا القحط ! لقد تأكلت ملابسنا حتى لم تعد إلا أسعالا ، وما ندرى كيف السبیل إلى تمویضها . إیه ! قل لی ماذا أفدنا من علك ؟ » . وما أن حركت « جيمت » كبرياء الأستاذ — إذ تحدثت عن علمه — حتى استيقظ من سنته صائحا بها : « اخرسى ! ودعنى لو أننى أردت أن أستخدم ذكائى لعرفت أين نجد ما نريد من ثياب وقبعات . وبمؤمن الله سنفلت من الضيق ورتفع لساعتنا . نعم ، من دقيقة إلى أخرى بأتى الله بالفرج . وعندما أخذ في استغلال مهارق لن ترى لی مثیلا » . وانطلق پتلان إلى السوق يتحسس فرائسه ، وإذا به أمام حانوت السيد جيوم چوكوم Maître Guillaume Jocaume بائع الأقمشة المشهور بالخند والبخل . والأستاذ پتلان رجل معز بملكاته ، ولهذا يروقه أن يستغل السيد جيوم ، فيرضى في نفسه كبرياء الفنان الذى يهزه التقلب على الصموبات الحقيقية .

وسبیل پتلان إلى ما يريد هو ما ذكرت من فن المكر . عليه أن يختلس ثقة السيد جيوم . وهو لا يخترع شيئا ، وإنما يستخدم الطريقة التى يمدقها حتى اليوم ملاين البشر : « آه ! إننى مسرور برؤيتك يا سيد جيوم ! كيف حالك ؟ هيا ! اعطنى يدك . لملك فى صحة طيبة . والتجارة ، كيف حالها ؟ ... الخ » . وأحس الأستاذ پتلان أنه قد أخذ يصل إلى نفس السيد ، فأوغل في غزوه ، وتحدث إليه عن والده : « آه ! لقد كان والده يا سيد جيوم رجلا طيبا . كان تاجرا ماهرا . كم من مرة حدثنى متنبئا بما نرى اليوم » . وسكن السيد جيوم إلى الأستاذ پتلان ، إذ تحركت نفسه وقد رأى رجلا من رفاق أبيه القدماء ، فطلب إليه أن يجلس ، وكان هذا أول نصر أحرزه الأستاذ .

جلس پتلان ووجهه يتهلل سخرية ، وحلق في وجه السيد جيوم ثم قال : « يا لله ! إننى ما رأيت قط ابنا يشبه أباه إلى هذا الحد ! المينان والأنف والقم كلها من المرحوم . وعرض الذقن ، حقاً إنك هو بقضه وقضيضه . يا للعجب ! كيف تخلق الطيبة وجهين

متشابهين هذا التشابه التام ؟ ! » . وصرا بطلان من الحديث عن أبي جيوم إلى الحديث عن عمته لورانس ، ملاحظاً أنه يشبهها أيضاً بجسمه . وعاد من العمة إلى الأب ، الأب المهام ، الخبير بأسرار التجارة . لقد كان — رحمه الله — لا يتردد في أن يقرض ماله من يريد . وأحس بطلان أن أقواله قد أحدثت أثرها ، وذلك لما لاحظته من أن السيد جيوم قد نام حذره ، فأخذ يتسهم ويتلطف ؛ وهنا رأى الأستاذ أن الوقت قد حان ليخطو خطوة جديدة . وبحركة شبه آلية طرح يده على ثوب من القماش ونظر إلى الثوب ، قطع عليه الإعجاب سلسلة الحديث : « آه ما أجمل قاشاً ! لينا ؟ رقيقاً ؟ حُمَلاً » . وفي سرعة خاطفة وجه الحديث وجهة أخرى ؛ ولكن السيد جيوم تاجر ، ولقد أيقظت كلمات بطلان المارة غريزة الكسب في نفسه ، فعاد هو بالحديث إلى القماش ، وتظاهر الأستاذ بطلان بالسذاجة حتى أوم الرجل بأنه سينجح في إغرائه بالشراء .

« آه ! حقاً . لقد أغريتني . والواقع أنه لم يكن في عزمي أن أشتري قاشاً في هذا العيد ، ولذلك وضعت قبل مفادرة المنزل ثمانين جنياً في الخزنة لأدفعها تسوية لمعاشي مدى الحياة . ولكن يظهر أنك ستأخذ منها عشرين أو ثلاثين . ذلك ما يبدو لي ، فاللون قد أعجبني إعجاباً خالصاً حتى ليؤلمني أن نحرم من قاش كهذا » .

بذلك تهيأت الصقعة ، ولم يبق إلا الاتفاق على الثمن ودفعه ؛ وهنا تظهر مهارة بطلان فهو يأبى إلا أن يدعو السيد جيوم ، بعد أن اتضح ما بينهما من معرفة قديمة ، إلى تناول النداء معه ، وبخاصة لأن مدام بطلان في ذلك اليوم كانت تشوى إوزة سمينة ، وقد أعدت إلى جوارها النبيذ الجيد الممتق ، وتكون هذه فرصة مواتية يوثق فيها الود مع بطلان ، ثم يأخذ جنيتها ويعود إلى حانوته مشكوراً . وأغرقت الإوزة ، وأغرى النبيذ السيد جيوم ، فوافق على أن يحمل القماش وقت النداء ويأتي إلى منزل بطلان . ولكن الأستاذ لا يريد هذا الحل ، ولا بد له من أن يعود إلى زوجته بالقماش ، وإذن فلا بد له من حيلة جديدة يتم بها ما بدأه ، والأمر سهل ، فهو لا يقبل أن يحمل السيد جيوم ثوب القماش تحت إبطه ، بل سيحمله هو ، وبذلك يوفر على السيد جيوم — ابن ذلك الأب الكريم الذي تشرف بعمرته منذ سنين — مشقة حمله . ولكن جيوم يأبى هذا الحل ، ويلح في أن يحمله هو ؛ فينتفض بطلان رافضاً رفضاً باتاً أن يتحمل جيوم كل هذه المشقة من أجله ، ثم يزج باسم الرحوم في الحديث من جديد ، ذاكرة ما كان بينهما من ود وتراور . ويتوسط جيوم ، فلا

يرى بدأ من التسليم للأستاذ بما يريد ، ويأخذ بتلان القماش ويعود إلى منزله بعد أن تواعدا على المائدة .

إلى هنا نجح الأستاذ بتلان في النصب ، فأخذ القماش دون أن يدفع قرشاً واحداً ، وكان سر نجاحه في علاجه لنفسه جيوم : فقد عرف كيف يحادثه فيها بهم ، وكيف يتدرج في ذلك الحديث كلما ازداد الخضم إقبالا واستنامة ، وقد حرص على أن يكون حديثه دائماً أبعد ما يكون عما يريد ، وكأنه حديث برىء ؛ فهو لم يذكر القماش إلا عرضاً وكأنها المصادفة البحتة ، ثم وجه الحديث وجهة أخرى ؛ وعند ما عاد إليه تظاهر بأن الخضم هو الذى يقوده ويفريه وهو يكبت رغبته الخفية ، حتى لكأن الصفقة في مصلحة الخضم وما صاحبنا إلا فريسة ؛ وفي النهاية « يكلف » السيد جيوم ، كما يقول الموام ، في فيض من الأقوال المسوولة التى تورط الرجل . وتلك لا رب صهارة دقيقة ، فيها مزيج من التلقى اللبق ، ومن التظاهر بالسداجة ، كما فيها فطنة إلى أهواء الخضم واتجاهات نفسه ، ومواقع ضعفه ، واستغلال لكل ذلك على نحو لا يكاد يلحظ .

ولكن جيوم سيلاحق أستاذنا بمنزله ، فكيف السبيل إلى الخلاص منه ؟
هنا تنكشف نفس بتلان عن قوى جديدة ، أخصها الجرأة ، الجرأة الصفيقة . فهو يتفق مع زوجته على أن تصنع المرض ، وأن يدعى أنه مريض منذ أسبوع ، لم يفادر خلاله الفراش قط ، وأن يلعبا اللور مما بحيث يوهمان المسكين جيوم أن قصة القماش ، والجنينيات ، والإوزة والنيبذ ، وما إليها ليست إلا هذيان محموم . وفلا يرقد بتلان في السرير ، وما يكاد جيوم يندق على الباب حتى تخف إليه « جيومت » على أطراف أصابعها واضعة سبابتها على فمها ليصمت جيوم ، ولا يرفع صوته فيزعج المريض . ويجرى حوار مضحك بين جيوم وجيومت يطالب فيه الرجل بالقماش أو النقود ، فتدعى جيومت الغفلة وكأنها لا تفهم شيئاً مما تسمع ، وهما الشاغل مرض زوجها ، وقلقها الشديد على حياته ، وقد يئس الطبيب من شفاؤه ، ويطول الجدال ، فيصيح بتلان من فراشه : « جيومت ! جيومت ! قليلا من ماء الورد ، ارفعيني ! دريني ! حككي مسطح قدى » . وتدخل جيومت إلى المريض فيقيمها جيوم ، ويطالب الرجل بدينه ، بينما بتلان يخاطبه كأنه الطبيب الداوى ، فيحدثه عن أثر الدواء الأخير وعن أرقه وأحلامه المزجة . ويثور جيوم فيزداد صوته ارتفاعاً . وهنا تقرر جيومت إخراجه ، وتمنعه أشد تمنيف لإقلاقه المريض ، وتطلب إليه الانسحاب حتى لا يأتى الأطباء فيجدونه ، فيظنون أنه قد أتى من أجلها . وعندئذ لا يرى السيد جيوم بدأ من

التراجع ، وقد أخذت الشكوك تساوره حتى أوشك أن يظن أنه مخبول ، وأنه في حلم يقظة قرر أن يعود إلى حانوته ليقبس ثوب القماش كاملاً ، ويتأكد من أنه قطع منه ستة أذرع : انسحب إذن جيوم ليعود إلى حانوته يختبر بضاعته ، ثم لم يلبث أن عاد . ولكن بتلان لم يكن بالرجل الذى تنفذ حيله . عاد جيوم يهدد بإحضار البوليس إن لم يُرد إليه القماش أو يعطى جنبهاته ، فاضطربت جيومت ؛ وأما الأستاذ فقد كانت أثبت من ذلك قلباً ، فأخذ يهنئ بكل اللهجات الفرنسية ، حتى إذا استنفدها هنئ باللاتينية ، وسخر من جيوم فى تلك اللغة التى يجيئها بائع القماش . وينجح الأستاذ فى تمثيل الدور نجاحاً ينسى معه جيوم قاشه ولا يعود يذكر إلا أنه فى حجرة رجل محتضر ؛ وهنا يأخذه الخوف حتى ليبدو له أن ما حدث ليس إلا ألوبة من الأعيب الشيطان الذى تنكر فى هيئة بتلان ليسلبه قاشه ؛ وإذا وصل إلى هذا الإحساس لم يرخيراً من أن ينسحب فى سلام .

بهذه الخاتمة كان من الممكن أن تنتهى القصة : فالسيد جيوم قد استخار الله ، وآمن بأن الشيطان هو الذى أخذ قاشه ، ولقد رسم الصليب على جبهته وجانبي صدره ، ثم هم بالعودة إلى منزله مستيئذاً من الشيطان الرجيم . ولكن القصة فيما يظهر كانت شعبية الأصل ، والشعب يعلم أن المكر السى لا ينجح إلا بأهله ، وبذلك جرت حكايته للأثورة منذ آلاف السنين . ولإذن فلا بد للقصة من خاتمة أخرى ينال فيها بتلان جزاءه . ومن ثم تصور المؤلف حادثة أخرى من الممكن أن تكون قصة بذاتها ، واتخذ منها خاتمة لقصة بتلان وجزاء لمكره السحيق .

وذلك أن جيوم لم يكذب ينادر الباب حتى وجد نفسه أمام راعى غنمه توما الحُميل « مصغر حَمَل » ، وكان توما هو الآخر راعياً ما كراً ، كم من مرة ذبح خراف جيوم ثم ادعى أنها قد ماتت بالحمل ؛ ولكن السيد جيوم قد أخذه فى المرة الأخيرة متلبساً بجرمته ، وها هو الحيل يأتى إلى الأستاذ بتلان ليوكله فى الدفاع عنه أمام القضاء . ونظر الأستاذ فأحس أن القضية صعبة ، ولكن انتصاره على جيوم أغراه بالتصارع جديداً ، فقبل الوكالة : وكانت خطة دفاعه بالغة البساطة ؛ فقد اتفق مع الحيل على أن يلعب راعينا دور الأبله ، فيجب على كافة الأسئلة التى توجه إليه بمجواب واحد هو : « بآ » كحَميل حقيقى ، وهذا ما كان . فقد قدم الحصان إلى المحكمة ، وكان القاضي لا يخلو من به ، وتقدم الأستاذ بتلان كدافع عن الحيل ، ولكن جيوم لم يكذب يرى الأستاذ حتى جن جنونه ، فقد ركه لثوه مريضاً بمنزله ، وها هو الآن فى ساحة القضاء واحتدم النفيظ فى نفس الرجل فنسى دعوى التهم ، وأخذ يهاجم بتلان مطالباً

إياه بالقماش أو الجنيئات ، والقاضى لا يفهم شيئاً مما يسمع ؛ فالقضية قضية غنم ، والغنم لا ذكر لها ، والحليل لا يجيب بنير « بآ » ! واستمر السيد جيوم يقفز من الغنم إلى القماش ، ثم يعود إلى الغنم ، حتى ضجر القاضى ، وتنهأت پتلان الفرصة ليطلب من قاضينا المبجل إلزام جيوم الصمت ، وإطلاق سراح الراعى ، والحكم على المدعى بالمصاريف ؛ وهذا ما كان . بل لقد بلغ الأمر پتلان أن نال ثقة القاضى نفسه ، فدعا حضرته إلى تناول الغداء معه . وهنا يطير عقل جيوم . فيسرع إلى بيت پتلان ليتأكد من أن الشيطان لم يخدعه ثانياً ، وليستوثق من أن پتلان قد غادر منزله ، وذهب حقيقة إلى المحكمة .

على هذا النحو يكون المكر قد انتصر مرة أخرى ، وبذلك تظل غريزة المدل غير راضية . والشعب حريص على المدل حتى في مهازل المسرح . ومع ذلك فما هو ذا الحليل يهم بمفادرة المحكمة ، وهو يتوثب سروراً بعد أن فاه بآخر « بآ » ، وما هو ذا پتلان قد كسب القاضى والقضية ، فإن إذن عقاب المكر الخليث ؟!

لقد تلقى پتلان عقابه من الحليل ، وذلك لأنه لم يكذب بوقه يباب المحكمة طالباً إليه أجر الدفاع حتى أجابه حيلنا بـ « بآ » ، وعبثاً حاول الأستاذ أن يقنع الحليل بأنه لم يمد في حاجة إلى « بآ » ، وأن القضية قد انتهت ، وأنه يود الانصراف إلى منزله . ويعود يطلب أجره ، فلا يجيب الحليل بنير « بآ » ، حتى انتهى الأمر بأن يس پتلان نفسه ، پتلان الذى عبث بجيوم وبالقاضى ، ثم هاهو الحليل يعبث به بدوره . وافترق الرجلان ، وقد تعلم پتلان درساً صفيق له الشعب أشد تصفيق ، إذ وجد الماكر من يكره به ؛ وقد تلخص مكر الحليل في كلمة واحدة ألقت بأسلحة پتلان كلها إلى الأرض .

هذه هي قصة الأستاذ پتلان الذى أصبح مضرب الأمثال في السهاء ، وأجزاؤها المختلفة ليست في نسبة واحدة من الصلة بالحياة ؛ فپتلان الذى تلقاه في الحياة فنشقى به ، هو پتلان الذى عرف كيف يحتمل فيكسب ثقة السيد جيوم ويأخذ منه القماش . هذا الجزء من القصة لا نبالغ إذا قلنا إنه يتجدد عشرات المرات في اليوم الواحد في بقاع الأرض كافة . وأما الأحداث التالية ، كتهارض الأستاذ ورطافته بمختلف اللهجات ، وانتهاء الأمر بجوم الإيمان برجس الشيطان ، وحادثة الحليل « بآ » ، فواقف مسرحية تثير الضحك ، ولكنها لا تكشف من أسرار الحياة شيئاً وهو أشبه ما تكون بمهازل مسارحنا . ونحن بعد لا ندفع سرّاً إذا قلنا أننا محاطون من كل جانب بأنواع من پتلان ؛ وأما جيوم فأكبر الظن أنه موجود هو الآخر ، وكل ما نخشاه هو ألا نجد « الحليل » . ورحم الله من قال :

« إني لستُ بحبيبٍ ولكنَّ الحبيبَ لا يخدعُنى » .

راستنيك

Rastignac

إوجين دى راستنيك ، شخصية روائية ضخمة من شخصيات هونوريه دى بلزاك (١٧٩٩ - ١٨٥٠) الكاتب الفرنسى الشهير . وأكبر الظن أن اسمه معروف لدى الكثير من القراء ، وذلك لأن بلزاك قد تحدث عنه فى عدد كبير من رواياته ، حتى لنحسبه قد بلغ من نباهة الذكر ما بلغه كبار رجال التاريخ . لقد ملأ راستنيك « الكوميديا البشرية »^(١) بوجوده الصاخب ، بل لقد أفلت منها ليجوب الحياة ، وهو لا شك حتى يئتنا ، يجده كل من يعمن النظر فيمن يحوطنا من رجال .

ونحن لن نقص تاريخ حياة راستنيك منذ البدء إلى النهاية . وبلزاك نفسه لم يجمع تلك الحياة ، ولا تتبعها تبعاً تاريخياً ؛ وهو القاتل فى مقدمة روايته « إحدى بنات حواء » فى صدد الحديث عن راستنيك : إنه كثيراً ما يتحدث « أن نعرف وسط حياة شخص قبل أن نعرف بداها ، وبداها بعد خاتمتها ، وتاريخ الوفاة قبل تاريخ الميلاد » . ولقد أدرك المؤلف نفسه ما سيحده النقاد من مشقة عندما يحاولون استقصاء أخبار إحدى شخصياته الكثيرة التى يسارها من رواية إلى أخرى ، قصور — مازحا — أن يتولى أخذ الباحثين وضع « معجم للشخصيات » يلخص فيه حياة كل شخصية ، مشيراً إلى مظان تلك الحياة من « الكوميديا البشرية » . وهذا ما كان فعلا ؛ فقد كتب الأستاذان أتاول سرفير وجيل كرسstof « فهرساً تحليلياً للكوميديا البشرية »^(٢) ، وباستطاعة القارئ الباحث أن يعود إلى هذا الفهرس ليجد كل ما يريد معرفته عن راستنيك منذ ميلاده إلى أن أصبح وزيراً خطيراً ، وثرىاً من كبار الأثرياء .

(١) من العلوم أن هونوريه دى بلزاك قد جمع رواياته فى آخر حياته تحت عنوان واحد هو « الكوميديا البشرية » ، ثم قسمها إلى مجموعات هى : ١ — مناظر من الحياة الخاصة ، ٢ — مناظر من حياة الأقاليم ، ٣ — مناظر من الحياة الباريسية ، ٤ — مناظر من الحياة البسيطة ، ٥ — مناظر من الحياة الحربية ، ٦ — مناظر من حياة الريف . ثم أضاف إلى هذه المجموعات : ١ — دراسات فلسفية ، ٢ — دراسات تحليلية ..

Répertoire de la comédie humaine de H. de Balzac par H. Cerfbier et J. Cristophe (٢)

أما نحن فيكفي أن نمود إلى مقدمة « إحدى بنات حواء » التي أشرنا إليها فيما سبق ، لنرى بذاك نفسه بلخص لنا جانباً كبيراً من حياة بطلنا . فهو يحدثنا أنه قد ولد سنة ١٧٩٩ في راستنيك بمقاطعة شارانت ، وأنه ابن للبارون والبارونة دي راستنيك ، وأنه قد أتى إلى باريس سنة ١٨١٩ ليدرس القانون بالجامعة ، وسكن في پنسيون مدام فوكير (Vauquer) حيث تعرف بچاك كولان (Jacques Collin) للشهور باسم فوتران (Vautrin) ، كما تعرف بهوراس بيانشو (H. Bianchon) الطالب الذي سيصبح فيما بعد طبيباً عظيماً ؛ وأنه قد أحب مدام دي نوسنجان (Mme de Nucingen) بعد أن تخلى عنها عشيقها الأول دي مارساي (De Marsay) . وكانت مدام دي نوسنجان هذه بنتاً لرجل يسمى « جوربو » يسكن مع راستنيك في نفس الپنسيون ، وكان السيد جوربو المذكور فيما مضى تاجر مكرونة وقد جمع ثروة طائلة من تجارته ، ولكنه أعطى كل ثروته لبنتيه « دوطه » حتى تزوجا ، الأولى بأحد أبناء أرستقراطية الدم ، والأخرى بصاحب بنك من أرستقراطية المال وهي مدام دي نوسنجان . ولما رأت البنتان أن أباهما لم يعد يملك شيئاً ، وأنه لا يصيبهما منه غير العار أهملته ، بل وتجنبتا لقاءه ، حتى مات الرجل ميتة مخزية بالپنسيون ، وتولى راستنيك وبيانشو الطالبان دفنه ونفقات ذلك الدفن .

هذه المعلومات يستطيع القارئ أن يجدها في رواية « الأب جوربو » ، وهي الرواية التي سنتخذها مرجعنا الأساسي في تحليل المرحلة التي نريد أن نقف عندها اليوم من حياة راستنيك ، أعني مرحلة انزلاقه من الحياة الرفيعة المتينة الخلق السليمة البادية ، إلى حياة اللذات التي يسكت فيها صوت الضمير وتستيقظ شهوات النفس مندفة إلى أهدافها دون أن يرد لها شيء ؛ ومنذ أن اجتاز راستنيك تلك المرحلة الشاقة ، لم تمد حياته غير حياة رجل مغامر ، حياة مبتذلة الأحداث . ومن السهل على القارئ أن يعود إلى رواية « بيت نوسنجان » ليعرف كيف أصبح راستنيك من كبار الأغنياء سنة ١٨٣٦ ، وقد تزوج في سنة ١٨٣٨ بأوجستا بنت مدام دي نوسنجان عشيقته القديمة التي تركها منذ خمس سنوات . وفي سنة ١٨٣٩ أصبح وزيراً للأشغال العمومية . وأما بقية مغامراته فثورة في عدة روايات ، وكلها في ابتذال ما ذكرنا من ثراء ونفوذ ووجاهة اجتماعية ، دفع ثمنها راستنيك غالياً من مبادئ الخلق وكرامة الإنسان .

راستنيك الذي يستوقف الباحث ، هو راستنيك الطالب ، كما نجد في رواية « الأب جوربو » ، فهنا تقع المسألة البشرية ، مسألة الصراع في نفس البطل بين نشأة الأولى

الشريفة ، وبين مضامرات الحياة الباريسية ووسائل تلك الحياة المعيبة . ولترك لبزارك مهمة تقديمه للقارئ بعد السنة الأولى من دراسته بالجامعة ، وقد أخذت أعين الشاب تتفتح ، وأخذ الطموح يدب في نفسه ، « وكما يتفق للنفوس الكبيرة لم يرد راستنيك أن يدين بشيء لغير مواعبه ، ولكن نفسه كانت من نفوس أهل الجنوب ، تلك التي ما تكاد تصل إلى مرحلة التنفيذ حتى يضرب في عزمها ذلك التردد الذي ينتاب الشبان عند ما يجدون أنفسهم في وسط اللجة دون أن يعرفوا إلى أي جهة يواجهون قوامهم ، ويحمو أي صوب يرفمون قلاعهم ؛ وإذا كان قد أراد في أول الأمر أن يلقي بنفسه إلى العمل ، فإنه لم يلبث أن أغرته ضرورة التعرف بذوى المكاة ، فلاحظ ما للنساء من نفوذ خطير في الحياة الاجتماعية ، وسرعان ما علم أنه ينطلق إلى الوسط الراق ليجد فيه سحاته منهن ، وهو واثق من أنه لن يعدم المشور على ما يريد ، وكيف لا يثر بهن شاب مثله حار المماء حاضر النكته ، وقد اجتمع فيه إلى الحرارة والذكاء ما زادها قيمة من رشاقة سميت ، وجمال عصبي كم يحلو للنساء أن يقمن في شراكه . ولقد هاجمت تلك الأفكار فتانا وسط الحقول ، وهو يترىض في مرح مع أخواته اللاتي وجدته قد تغير تغيراً واضحاً . وكانت خالته « مدام دي مارسياك » De Marcillac قد عرفت فيما مضى كبار الأرستقراطية ، إذ كانت يوماً من بين من يترددن على البلاط ، فجاءت لمح فتانا الطموح عدة معارف يستطيع أن يصل إليها ، وهي لا تقل أهمية عن معارفه في كلية الحقوق ؛ ولقد كان في الذكريات التي رجمتها بها خالته ما يلهب خياله ، فسألها عن روابط القرابة التي يستطيع أن يعود فيصلها . وبعد أن استعرضا شجرة النسب كاملة استقر رأي السيدة المعجوز على أن القيكوتس «دي بوسيان» «De Beauseant» ستكون من بين أقاربهم الأغنياء الأثرين أقلهم تلسكاً في خدمة ابن أختها . وفعلما كتبت خطاباً إلى هذه القيكوتس الشابة ، كتبته بالأسلوب القديم ، وأعطته لإيوجين قائلة إنه لو نجح مع القيكوتس فإنها ستصله ببقية أقاربه . وبعد أيام قليلة من عودة راستنيك إلى باريس ، أرسل خطاب خالته إلى مدام دي بوسيان ؛ وفي اليوم التالي أجابت القيكوتس بدعوته إلى حفلة راقصة . وكان راستنيك شاباً حاد الذكاء علماً بذكائه . وقد أدرك أن أساس النجاح هو قوة الإرادة ، وهو يحس في نفسه بتلك القوة ؛ ونظر فبداه أنه لن يستطيع الرضا بالتحول المبتذل ، وهبها له أن يقنع بما بعده له أهل من دراسة القانون دراسة جيدة والنجاح في الامتحانات يتفوق ، ثم الحصول على مركز وكيل نيابة أو قاض بالأرياف . لقد كان راستنيك يطمح إلى أن يخرج من بين الصفوف قتشق شخصيته ويتحقق ملكاه ؛

كان يريد أن يعيش في باريس وسط الأرستقراطية ؛ كان يريد الوصول .
وأول ما أتجه إليه عزمه هو المال ، فقد كان يعلم أنه لا بد منه لكي يستطيع الظهور بين
النبل ، فيلبس كما يلبسون ، وقوده العربات كما تقودهم ؛ وبالجملة كان حريصاً على أن يظهر
في مظهر الأثنياء الذين لا يعدون ما ينفقون . وكان يعلم بؤس أمه وأخواته ، وما يتكبدن
في سبيله من تضحيات يقدمنها راضيات لإيوجين الذي تركّز فيه آمال الأسرة لعله ينتهي
من دراسته بنجاح . ولكنه رغم علمه بضيقه المادى ، لا يتردد في أن يطلب إليهن المال
ليستطيع الاستعداد للذهاب إلى حفلة « الشيكوتس » ؛ ولقد أرسلن إليه ألفاً وخمسمائة
فرنك مع توصياتهن الحارة ؛ فانتزعت التوصيات من عينيه بعض اللومع . ولكن الألف
والخمسمائة فرنك نفخت أوداجه وملائته إحساساً بالانتصار ؛ وسرعان ما استدعى التزوي
واتفق معه على ما يريد من ملابس يدفع ثمنها أقساطاً مبتدئاً بقسط كبير . « عندئذ لم يمد
فتناً الهمام بحسب شيء مما حوله ، وقد نزل من حجرته إلى مائدة البنسيون في تلك المهيثة
الفريدة التي تحملها النقود على الشبان . ومن المعلوم أنه ما تكاد النقود تستقر بحسب أحد
الطلبة حتى يستمر جرأة عجبية . فهو يسير بأقدام أثبت من أقدامه وكأنه قد وضع يده
على رافعة الأتقال ، وتصبح نظراته مليئة مباشرة ، وحركاته خفيفة . لقد كان بالأمس حياً
متواضعاً قد يضرب فلا يحرك ساكناً ، أما اليوم فقد يضرب هو رئيس الوزراء ؛ تمر
بنفسه ظواهر عجبية ، فهو يريد كل شيء ، وهو يستطيع كل شيء ؛ يريد هذا وذلك دون
يينة ولا اختيار ، وهو مرح كريم طليق النفس . وفي كلمة واحدة : لقد استرد الطائر المهيض
جناحيه القويين . الطالب الذي لا تقود معه يخطف (تنفة) من اللذة ، كالكلب الذي
يسرق (عظمة) تحفها المخاطر من كل جانب ، ثم يكسرها ويمص نخاعها ، ويستمر في
المدو . وأما الشاب الذي توسوس في جيبه النقود ، فإنه يتذوق لذاته ويجزئها ويتمهل
فيها . إنه يتأرجح في السماء ولا يعود يذكر لكلمة البؤس معنى . باريس كلها ملك له ؛
ذلك هو السن الذي يلعب فيه كل شيء ويتعد ، سن القوة المرحّة الذي لا يعرف أحد كيف
يستفيد منه ، لا الرجال ولا النساء ؛ سن الديون والمخاوف الكاذبة التي تريد من طم اللذات .
إن من لم يعيش بالضفة اليسرى للسين بين شارع سان چاك وشارع سان بيير لا يعرف شيئاً
عن الحياة البشرية » .

في هذه الصفحة التي تنبض حياة ينفث المؤلف أنفاسه الخاصة في شخصية راستنيك ؛
فلنحلم بلزائك الذي ولد مع راستنيك في نفس العام بأن يهر العالم يندخ ملابسه

وأحصنته ؟ ولقد أعوزته المال دائماً ، ولذلك كان للمسه إياه قشعريرة نفسية ، هي تلك التي ترتد في الصفحة الماضية .

وذهب راستنيك إلى الحفلة ، وقد اتخذ له أستاذاً في فهم الحياة مدام دي بوسيان . وما نفلنا في حاجة إلى تفصيل مبادئ الوصول ، فتلك الحسائس تقع تحت أبصارنا كل يوم ، وهل هي إلا تظاهر بالسمو عن النير ، سمواً سبيله احتقار كل من عدانا ، وتبجح بعلل متسام مثير ، ثم قتل لصوت الضمير في النفس ، وإسكات للمسئل التي تصرفنا عن اغتنام الفرص ، وإعراض عن الرحمة التي تردنا عن القسوة ، وهي أخيراً ألا نرى إلا أنفسنا ، وألا نرى شيئاً إلا إلى أنفسنا ، وأن نصحى بالغير في سبيل أنفسنا ، وأن نغلى أنفسنا على سوانا ، مهما كان في ذلك الإيلاء من جروح ؟ وهذه هي المبادئ التي تلقاها راستنيك عن الفيكوتس . ونحن نجتزئ ببعض ما سمع عندها من درر مريسة مثل : « إن القلب البشري كالكنز . استنفده في غرفة واحدة تجد نفسك مفلساً . إن الناس لا يفتفرون لن يظهر شعوره كله دفعة واحدة أكثر مما يفتفرون لمن لا يملك فلساً واحداً » . وقولها : « كلما ازدادت بروداً في تقديرناك ازدادت تهماً إلى الأمام ، أضرب بغير شفقة بخشك الناس . لا تنظر إلى الرجال والنساء إلا نظرك إلى خيل البريد التي تتركها تنفق عند نهاية الشوط ، وبذلك تصل إلى أممي ما ترتفع إليه رغباتك » .

وعاد راستنيك من الحفلة إلى البنسيون ، بعد أن أمعن النظر في أرستقراطية باريس . وفي البنسيون وجد أستاذه الفحل چاك كولان المعروف بشوتران : مجرم قديم ، أعبي رجال الأمن أمره ، وقد أفلت من السجن حيث كان مقضياً عليه بالأشغال الشاقة ، ولجأ إلى بنسيون مدام فوكير متكرراً . وقد أحس راستنيك في خلق الرجل جرأة ، وفي حديثه سلطة آثاره حتى أوشك أن يقاتله في مبارزة ؛ ولكن فوتران أوقفه بحركة أمرة ، وأرغمه على أن يجالس تحت إحدى شجيرات الحديقة المحيطة بالبنسيون ، وهناك وجه إليه تلك الخطبة التي ترتد لها الفرائص ، قال : « تريد أن تعرف من أنا ، ماذا فعلت ، وماذا أفعل ؟ حقاً إنك يا بني لمسرف في حب الاستطلاع . آه ! هدوءاً هدوءاً أيها الطفل ! ستمتع أكثر من ذلك ، لقد ابتلتي الحياة . استمع إلى قبل أن ترد . ها هي حياتي السابقة في ثلاث كلمات : من أنا ؟ فوتران . ماذا أفعل ؟ ما يحلو لي .

سأوضح لك أنا الوضع الذي أنت فيه ، ولكنني سأفعل ذلك في حقوق الرجل الذي اخترت أمور الحياة ، فرأى أنه ليس أمامه إلا أحد أمرين : إما الخضوع للأبله ، وإما الثورة ، وأنا

ملا أظلم الشيء... أو أضع ما أقول؟ هل تعلم ما أنت في حاجة إليه لتسير في الحياة كما تريد الآن؟ إنك في حاجة إلى مليون فرنك تجدها سريعا، وإلا فادك رأسك الصغير إلى شبابك. «ميلان، بكو» (السجن)، لتبحث هناك عن الكائن الأسمى: هذا المليون سأعطيه أنا لك. وفيما كان فورتان عن الحديث هنيئة ناظرا إلى راسنتيك، ثم استأفت: «هاها! إياك لا تعطيني بلان إلى عنك فورتان نظرة لؤفق من ذئ قبل... هاها هو موقفك أنها اللباب: لدينا لمختلف أب وأم،، وخالة وأختان: في الثامنة عشرة والسلامة عشرة»، وأخوان صغيران كائن في الثامنة عشرة والمباشرة»، هذا عدل الجوقة... الخالة ترى البنات، والتقسيم يعلم د لايتينية للأخين، والمائلة تأكل من عصية أبي فروة أ. كثيرا ما تأكل من الخبز الأبيض، والخضراوات على مرأله، والأم، تنعم بثوب للشتاء وأخر للصيف. والأختان تدبران مملوفا. كما تستطعان، وأما نحن فقلينا الطموح: نحن أقربا بوسيان، ثم نذهب إليهم لعمل الأقدام؟ يريد الفروة وليس لدينا سخوت: أنا أكل من «عك» الأم فوكير، ولكننا شطيطي بمثلقة الضخم في فلورنسان لجرمان، فام نمل سزير كالشريحة. وزيد أن نسكن كافي فللا، إنني لا ألوم زعانتك، فليست بانقطاع كل إنسان: أيها الطفل العزيز: أن يكون رقيقا. لقد أحضيت رغبتي لك أمانك الموال الآف: جميع كالذباب الضارية وقواضينا ماضية، فكيف السبيل إلى ملء القدر؟ ليس لدينا ما تأكله تغير مجموعات، التواين وهذه لا قائمة من دولهناء ولكن الواجب، فليكن: ثم نشغل بالحمامة لتصبح بالبويرة محكمة الجباب، فترسل إلى السجن شياطين المحرمين مع أنهم خير منا، وذلك لكي نعيش بالأغنياء. أنهم يستطعون أن يناموا هاذئين. هذا عمل لا بهجة له. ثم إن الشوط في الملاواة فلا بد من التصلك ببيتين بياريس: فننظر إلى النقود دون أن نستطيع معها مع مسحة ونحبتنا فيها: فإله لأمن مضن أن نستعير دائما الزغبة دون أن نستطيع إشباعها. معقول أننا كنا شاحين، وكنا من طبيعة الزواحف: لنا خشينا شيئا، ولكن دماءنا من دماء ربالا شونا، وفي شيتنا قابلية لا تركاب غشون: فخافة في اليوم.

معا دنا هذا أيها الشاب هو مقترق الحياة، ولقد اخترت، فذهبت عند بوسيان من بني نغممك، ولقد أحسست هناك تاليدخ، كما ذهبت إلى مدام دى رستو De Restaud بنت الأب جورو، فشممت فيها رائحة المرأة الباريسية: ولقد عدت ذلك اليوم وعلى جينتك كلمة يتقرباها في وضوح، هي: الوصول! الوصول بأي ثمن! انقصت: برافو! هذا عملاق لا يعلاني! ولقد شغرت بالحاجة إلى المال، فأين تجده؟ لقد زفت دماء أخواتك فاستلبت

منهن ألفاً وخمسمائة فرنك بطريقة يبذلها الله ، وهن في بلاد قد تجود بأني فروة أكثر مما
يجود بقطع النقود ، ولكنك تسلك كالمهارب في الظلام . والآن ماذا تفعل بعد ذلك ؟ أتعبد
في العمل ، والعمل لا يثني فقيراً ، والثروة للمباحة هي المشكلة التي تمرض تخمين ألف شاب
مثلك ممن يجنون أنفسهم في موقفك الحالي ، وأنت واحد من هذا العدد ؟ فكر في المجودود
الذي يجب أن تبذله ، وفي عنب المعركة التي ستخوضها . لا بد أنكم ستأكلون بعضكم بعضاً
كالمنكبوت الذي يجتمع في زهرية واحدة ، وذلك لأنه من المستحيل أن يكون هنالك
خمسون ألف مركز كبير . أتدري كيف يشق الناس سبلهم في هذه الدنيا ؟ يشقونه
ببريق البقرية ، أو بالمهارة في الخسة . يجب أن تسقط في صفوف البشر كقنينة ، أو أن
تسبل بينها كوباء ، أما الشرف فلا فائدة فيه . إن الناس ينحنون أمام قوة البقرية ، وهم
يكرهونها ، ويحاولون النيل منها بأقوال السوء ، وذلك لأنها تأخذ دون أن تقسم ، وليكنهم
ينحنون إذا تارت . وفي كلة واحدة ، الناس يعبدها جاثين عندما يعجزون عن جرّها
في الأحوال . وكذلك الخسة ، فهي قوة ، الخسة سلاح الضعفاء الذين يعلّون الأرض ،
وسوف يحسّ بوجعها في كل مكان . إذا كنت تريد أن تترى بترها ، ففي الواجب أن
تملك شيئاً ، أو تظاهرها بأنك تملك شيئاً . لكي تترى يجب أن تنامي بضربات قوية ، وإلا
أضعت وقتك في الهواء هباءاً . وفي المباشرة التي تستطيع أن تراها ، يترى الجمهور
يسمى العشرة أشخاص الذين ينحنون بسرعة لصوبها . استخلص الرأي . هذه هي الحياة ،
فهي ليست أجل من « الطبخ » ، وراحتها راحته . يجب أن تكون يدك إذا أردت أن
تتري ، ولكن يجب أن تعرف كيف « تشطفها » بعد ذلك ، ففي هذا جماع الأخلاق
في عصرنا . وإذا كنت أجدتك بمن الحياة على هذا النحو ، فذلك من حق بحكم أنني أعرفها .
وهل تظن أنني أنجي عليها بالووم ؟ أبداً ، فقد كانت دائماً كذلك ، ولن يستطيع الوعاظ
تغييرها . الإنسان كائن غير كامل ، وهو — إلى حد ما — منافق ، ولهذا يرى الحق أنه
عديم الأخلاق . وأنا لا أهتم بالأغنياء المصلحة الفقراء ، فالإنسان هو هو في أعلى وفي أسفل
وفي الوسط . وفي كل مليون من هذه الحيوانات الرقيقة قد تجد عشرة لصوص يضعون
أنفسهم فوق كل شيء ، فوق القوانين ذلهم ، وأنا واحد من هؤلاء . أما أنت فإنما كنت
رجلاً سامياً ، فلتسهر في خط مستقيم مرفوع الرأس ، ولكنك ستضطر إلى مقابلة الجسد
والنميمة والحجارة ، ستقابل جميع الناس . لقد لاقى ثمانية وخمسون وزيراً للحرب اسمه أوبري Aubry ،
ولقد أوشك هذا الرجل أن يرسله إلى المستعمرات . محجبي موضع قوتك ، وانظر هل

تستطيع أن تستيقظ كل صباح بإرادة أقوى من إرادتك بالأنس ؟ وإذا كانت لى نصيحة أهدبها إليك - أيها الملك - فعلى ألا تثبت عند آرائك أكثر من ثباتك عند أقوالك ، وعندما يسألك أحد عن رأى بعه له . والرجل الذى يفتخر بعدم تغيير رأيه مثله مثل من يأخذ نفسه بالسير دائماً فى طريق مستقيم ؛ هو أبله يستقد أنه معصوم من الخطأ . وليست هناك مبادئ وإنما هناك أحداث ؛ ليست هناك قوانين وإنما هناك ظروف ، والرجل الممتاز هو من يمتصن الأحداث والظروف لكي يسيرها .

سمع راستنيك هذه الآراء المخيفة ، فنفرت نفسه نفوراً شديداً ، وهو الشاب الذى لا يزال يحتفظ بأثر نشأته الأولى فى الريف ، ولذا صاح عند مارأى ثوران ينادره فى هدوء واضعاً عصاه تحت إبطه : « اى رأس صلبة يحمل هذا الرجل ! لقد قال لى فى فجأة ما قاله مدام دى بوسيان بلباقة . لقد مزق قلبي بمخالبه الفولاذية . لماذا أريد أن أذهب عند مدام دى نوسنجان ؟ لقد حدس الرجل دوافى كما تحركت فى نفسى . لقد حدثنى ذلك المجرم عن الفضيلة أكثر مما حدثنى الرجال والبكتب كافة . وإذا كانت الفضيلة لا تقبل مهانة فلا شك أننى قد سرقت أحوالى » . قال هذه الجملة الأخيرة ، وهو يطرح كيس النقود على المائدة . وبعد برهة عاد يناجى نفسه « الوفاء للفضيلة ! آه يا له من استشهاده نبيل ! الناس كافة يؤمنون بالفضيلة ، ولكن من منهم الرجل الفاضل ؟ والشعوب كافة تمجد الحرية ، ولكن أين الشعب الحر ؟ إن شبابى لا يزال صافى الزرقة كالسماء التى لا سحب فيها . وإذا كنت أريد أن أصبح رجلاً عظيماً أو رجلاً ثرياً ، هل لى بد من أن أكذب وأنحنى وأزحف ثم أنهض وأعلق وأنافق ؟ هل لى بد من أن أضع نفسى خادماً لمن كذب وأنحنى وزحف . لا مفر من أن أخدمهم قبل أن أصبح شريكاً لهم . آه ! لا . إننى أريد أن أعمل فى نبل وطهارة . أريد أن أعمل ليل نهار ، وألا أدين بشيء لغير اجتهادى » . وهنا نفس الصراع النفسى الذى لا نستطيع معه إلا أن نهتز عطفاً لتلك النفس التى لا تزال تجالده الشر بفضل ما اخترت فى صباها من مثل الخير . ونحن لا ينبغي أن ماسيؤول إليه راستنيك فى الروايات اللاحقة ، وإنما نقف عنده كما نراه فى « الأب جوريو » لنشاهده يرفض التورط فى الإجرام مع ثوران ؛ ونحن ندع جانباً ما كان له من مغامرات فى الأوساط الباريسية ، مكتفين بالإشارة إلى أهم تلك المغامرات وهى : عشقه لمدام دى نوسنجان . وموضع الخطر على فتانا لم يكن فى ذلك الشق ، وإنما كان فيما رآه من عقوق عشيقته وأختها لأبيهم « الأب جوريو » ، فلقد كان موقفهم منه شديد الشبه بموقف بنات الملك « لير » من أبيهم . بل إننا نعتقد أن بلاك قد

أسرف وأحال في تصوير ذلك المفقود ، إذ جعل الأب من الحماقة الشاذة بحيث يتكالب في حبه لابنتيه كلما زادته نكالا . ولهذا نرى قيمة تلك الرواية الشهيرة في شخصية راستنيك ، لا في شخصية « الأب جورو » بطل القصة وعنوانها .

عجيب أن تتبع راستنيك في محاولاته المختلفة ، وأن نرى إرادته تصلب كلما تناوبه النجاح والفشل ؛ ومن المعلوم أن العزم لا يقوى بشير الصدمات . وهو رغم استحصاء إرادته لا يستطيع أن يسكت في نفسه صوت صباه ، فهو يحب أسرته وإن كان يبتز مالها . ولقد يكون في موقفه هذا ما يدل على أنه يحب ذاته أكثر من حبه لأهله ؛ ولكنه على أى حال لم يكن ميت القلب ؛ نراه يبكي عندما يقرأ خطابات أمه وأخواته . وإنه لارغب أمر سهل أن نبكي قليلا ثم نمود إلى رأس أمرنا ، ولكن ليس عدم البكاء إطلاقة أسهل من البكاء ؟ وهو أخيراً قد تعلق بالأب « جورو » ورعاه أيام مرضه ، وتكفل بدفنه ونفقات ذلك الدفن مع زميله طالب الطب . ولقد يقال إنه أحب ذلك الشيخ المسكين لأنه كان والد عشيقته ، ولربما كان هذا صحيحاً ، ولكنه مما لا شك فيه أن راستنيك الشاب المحب لأهله قد قدر في الأب « جورو » طبيته ومحبة لبنتيه ، دون أن يرى ما في تلك المحبة الشاذة من حماقة . قد أرسلت إليه مدام دى نوسنجان ليلة اشتداد المرض بأنها خطاباً صغيراً تقول فيه : « إننى أنتظر لك الذهاب إلى حفلة الرقص ، فإذا لم أرك بجوارى بعد ساعتين ، لست أدري هل سأستطيع بعد ذلك أن أعترف لك تلك الخيانة » . ولكنه لم يكذب يقرأ هذا الخطاب الوقح حتى أخذ قلبه ليرد لقوده : « إننى أنتظر الطبيب لأعرف هل سيميش أبوك أم لا . إنه يحتضر . سأتيك حاملاً الخبر ، وإننى لأخشى أن يكون خبر الموت . سوف تنظرون عندئذ : هل نستطيعين الذهاب إلى حفلة الرقص ؟ » . نعم إن إرادة مدام دى نوسنجان قد قلبت في آخر الأمر ، فذهب راستنيك ليرافق عشيقته إلى الرقص ؛ ولكن كم كان صمته لازماً وهو إلى جوارها بالعربة ! لقد ثم صمت القبور حتى ضاقت به مدام دى نوسنجان فسألته : « ما بك إذن ؟ » ، وإذا به يجيب : « إننى أسمع حشرجة أبيك ! » .

هذا هو راستنيك : شخصية مركبة معقدة ، شخصية تميل إلى اعتبارها حيرة . وأما إذا أردت أن أدل على سبب انزلاقها إلى الشر في مستقبل أيامها ، فليست أراه إلا في أمرين : أولهما أن رغبات هذا الشاب كانت تثبت في نفسه قوة لا تدفع . ثم تملأ وجدانه فلا يعود يرى غيرها ، وإذا به مندفع لا يولى على شيء ؛ وهو إذا كانت رغباته تدور من داخل نفسه ، فإن شجاعته كانت تأتيه من الخارج . إنه لم يكن له بد من النجاح لكي تتحقق ملكاته

وتشط : بل نستطيع أن نقول إن النجاح كان أول وسائل الوصول . والذي لا شك فيه أنه قد وجد في مقاماته المختلفة ما يرضى تلك الحاجة إلى النجاح . وثاني الأمرين فساد ما رأى من حياة معظم الناس ؛ ولقد كان في موقف بلقيس جوربو وصهره من ذلك الأب البائس ما جعله على تجاهه الهيئة الاجتماعية ومنزلها بأسلحتها كلها بلغت تلك الأسلحة من الحضارة : وفي الصفحة الأخيرة من الرواية يصعب نراك دفن الأب جوربو بقوله : « ولعل ذلك فنلما وضع النمش على الناقلة ، فحدث عزيمتان يحمل أحدهما شارة الكونت دي رستو ، والأخرى شارة البارون دي بوشيجان ، ولكنهما خاليان ، ثم مبثا النمش إلى القبرة . وفي الساعة السادسة أنزل جسم الأب جوربو إلى القبرة ، ومن حوله حتم بنية الدين اختفوا مع القسيس بمجرد الفراغ من الصلاة التي دُفع منها الطالب واستنيك . وبمجرد أن انتهى الحظاران من رد بعض حفات من التراب لتغطية الجسم ، لم يلبث الرجلان أن هضا وقد اتجه أحدهما إلى الطالب يسأله « البقيش ؟ » وقضى إثنين في جيبه فلم يجد شيئاً ، فاضطر إلى أن يستلف قرباناً من كرسيتوف حادلم التيسول . ولقد نشرت هذه الحادثة الصغيرة في نفس راستنيك حزناً مطلقاً ؛ وكان النهار قد أذن بالأفول ، وأخذ الشفق الرطب يحرق الأعصاب ، فنظر الشاب إلى القبر ودفع فيه آخر دفعة من دموع عبائه . وكانت دفعة فاقست بها عاطفة مقدسة لم يفلت طاهر ؛ دفعة من تلك الجموع التي تلتصق إلى الأرض حتى ترتد إلى السماء ، ثم رجع دواعيه إلى مقدره . وأخذ يتأمل السحاب ، وراه كرسيتوف في هذا الموقف فترجعه عائداً . وتوجد راستنيك نفسه وحيداً لخطا ، يجمع خطوات نحو أعلى المنجرة حيث رأى باريس زائفة في القواء على ضفتي النهر . ولقد أخذت الأنوار تنقطع ، فاستقرت عيناه فيما يشبه النهم بين عمود الكندوم وقبة الأقاليد ؛ وبين غدين الوضمين يقع على تلك الطبقة الزاوية التي أراد أن يحتفظ بأفواهها . وأرسل إلى تلك الخلية الطائفة نظرة مكاد تفتش ما فيها من رخيص ، ثم قال هذه الكلمات الزائفة : « الآن فلاحق في ذلك ، وكان أول العمل من أعمال السعد في الدنيا أكله راستنيك الهيئة الاجتماعية أن ذهب ليتناول العشاء عند صديق من أولئك » . وبعد أن لقد كان في إدمانة إلى العشاء تبع تلك المشقة العاقبة آخر شهنة بالحياة البشرية ، وبعد أن رأى من فساد الهيئة الاجتماعية ما لا يمكن أن تصممه لهامل الخير إلى أنها في صباه دعوى كرسيتوف تراكمها . ١٩

أوليس

(١)

في الإلياذة

أوليس أحد أبطال هوميروس ، ولقبه للمرة الأولى في الإلياذة بحلي رأس جنده فلانتهل
جميعهم من هيلكتة بحيرة كورفو ، التي لا تزال الأمواج تطعم ملغوزها إلى اليوم ، وفلثا
لبي يساهمهم بلاد اليونان الأخرى في حملتها الشهيرة على طروادة الهندى لندن أنسيا الصغيرى ،
وكلثا لا ريب يله أكرت حبيبة تلك الحربية القسوس قير وأخيدايوها التي تسجلها شبيها
اليونان العظيم فلا يزال تتردد يلميح الأذن له ومن يطمع طبع أن ينسحق هيلانة ، بطور لا
الأمثال في الجلال ، الخالق كان من الجيب في تلك الجنة التي فأمرت التورب ضد الشرق مجلب
سين المتعاليات الخلق في باريس أجد أضره طروادة آتى يومها في تجارة إلى نوبل في
الليتي نزل ، وإذا هيلانة زوجة ميخائيل تلك الجنيات اتلها على الشاطئ قمع
رفقة لها ، فماله جالها ، وكان الأمير بشرفه الطلعة ، فوقع هو أيضا بقلها ، وكان لما شبيخة
الأقديان ، هو اعتل على الحرب بشواغته فشر القلاع إلى طروادة فزادنا باليك ، ريب
و غلم زواجها بالحق ، فأخذت شبيخة الرجال ، وانقرت مدق اللؤلؤ فان كلها إلى نوبل إلى لاج
التي لم شرفه ، وبصم على أقدامهم أجملون ، أخو ميخائيل ، وأمنوا بالخلق ، وأجبرت بالسلطة
وأرست حيث ضرب الجند حول طروادة الحصار ، وكلثا معاوك خيفين لهولها لئلا تغلبها
إفانيسخ الخلاء كانت ، كلثا في تحسوة فلاطم السنة العاجزة إلى اكتفى نومينوس بالفسور
لنجزوا لها ابتلاك من أبطال العزوف في تلك القنادين للسلطة ، وأخيل ألقط من واليعة
الأمهات وأصلب الرجال عزما ، وإلاس ذو الحول وال طول ، وهكتور أنبل أهل طروادة
وأخذهم هذا بكرى ثم أوليس

وفي الحق أن أوليس لم يحتل مكان الصدارة بين أنداده الحارمين ، ولكنه كان أعين فعلا
وأحسن البلاغ في السلطان رحمة من الخبيث ، أوليس أعرض للخطب القيلاني ، ذاتها من
قوة الخبيث ، لم يمتدح من واقعة الخلاق القيلانية ، والمفكات القيلانية ، ولذا أيضا علق
الإغريق كافة ، التي على كل للمهم في نصيبها وأجانبها ، بله نرفق بها من المصلحة

النامرة وتفتح النفس للمعرفة ، والإقدام على المخاطر مع القدرة على ملاسة الواقع ، وتدبر الصعوبات ، ثم المرونة في معالجة الناس والأشياء ، مما يدفعهم أحياناً إلى إسكات صوت الضمير ، والتعلق بالهدف دون نظر إلى الوسائل ومدى ما فيها من قسوة . وتلك كلها صفات سراها عند أوليس في تاريخه الطويل على تفاوت في النسب ، وتطور في الاتجاه وفقاً لسير الزمن وتقدم الحضارة .

صادف أوليس إذن هوى الشعب اليوناني الذي اطمأن إليه كما يطمئن المرء إلى نفسه ، وإذا به يصبح رمزه الحي ، وإذا به يتطور بتطوره ؛ فلم تكد عصور البطولة تنقضي ويأخذ الشعب بأسباب الحياة العملية ، وينصرف إلى السيطرة على المادة ، وارتداد بقاع الأرض ، وركوب متن المياه التماساً للعيش ووجاهة المال ، حتى رأينا بطلنا يحتمل السكان الأول في الأوديسا ، ملحمة هوميروس الثانية ، وما هي إلا قصص لمغامرات أوليس أو أوديسيس ، كما كانوا يسمونه ، أثناء عودته إلى وطنه عبر البحار . ونظير الشعب الإغريقي فرأى أنموذجه يسيره في تطور خلقه واتجاهات نفسه فزاد به تعلقاً ؛ حتى كان القرن الخامس قبل الميلاد ، أي بعد ظهور أوليس إلى الوجود بمخمسة قرون ، وإذا بسوفوكليس المؤلف السرحي النافع المصيت يتخذ منه بطلاً لروايته الخالصة « فيلوكتيت » Philoctète وقد عمل الزمن فيه عمله فأصبح الساكر الذي لا يتورع عن شيء في سبيل الوصول إلى ما يريد . ومن عجب أن يسير رجلنا من بطولة الإلياذة إلى دهاء الأوديسا ، ثم ينتهي ببحث « فيلوكتيت » وأن نجد في كل مرحلة بذور المرحلة التالية ، حتى لنحسب أنه كان يمتلك كل تلك الصفات كامنة ، وإنما هو يحك الزمن أظهرها فيه ، كما أظهرها عند الشعب اليوناني كله يوم سار من صلالة البداوة إلى مرونة الحياة ، ففساد المدنية .

فلنتتبع إذن بطلنا نلتصم فيه صورة الشعب اليوناني بأكمله خلال مراحل التاريخية ، ولنبدأ حديثنا بأوليس الإلياذة ، ففيه حقيقة نفسه في ذلك الحين ، ولشباح ما سيمير إليه فيما بعد .

وكان يوماً مشهوداً يوم رأينا أوليس لأول مرة ، فلمسنا ما تحلى به من شجاعة وحزم ومعرفة بمقائق النفوس .

ذلك أن أخيل الماني النفس — غضب من أجائمنون رئيس الحملة ، إذ سلبه قسراً أسيرة جميلة كانت من أسلابه ، فتخلي عن القتال ؛ وكل من يذكر شجاعة أخيل التي لا مثيل لها يستطيع أن يتصور ما استهدف له الإغريق إذ ذاك من أخطار ، وخصومهم

رجال ذوو بأس . وهذا ما كان ، فقد انهزم الإغريق وانسحبوا إلى الشاطئ يمدّون بسفهم للإفلاق وكادوا يسودون أدراجهم خائنين ، لولا أن تداركت الأمر « بالاس » ربة الذكاء وحامية الأغريق .

« فاضلقت من أعلى الألوپ بأجنحة خثيثة إلى حيث ترسو السفن ، وهناك وجدت أوليس ، أوليس الحكيم حكمة زيس ، وجدته جامداً في مكانه لا يمس قلاعه ، وقد نفذ الألم إلى أعماق قلبه . إلى جانب البطل وقتت الإلهة وخطيبته فائلة : يا ابن لا رت ! أيها الإلهي ! أي أوليس الحكيم ! أنتطوون بصدر وطنكم وتركون ليريام وأهل طروادة نمنا لنصرهم هيلانة الإغريقية ؟ ! وبيلاذ الأغريق ولدت ، ومن أجلها هلك كل من استشهد من إغريق حول طروادة ببيدين عن وطنهم ؟ ! هيا ! بلا سهل ! إلى صفوف الجند ! بقولك للفتن أمسكهم عن الحرب ، لا تسمح لسفهم أن تشق أمواج البحر » .

ونظر أوليس فإذا بها بالاس التي تتجه إليه بالحديث ، وهو الإغريقي الصميم الذي يعرف كيف يجلب إلهة الذكاء وبين أحضانها نما ، ويشاع منها مت إلى الجد بسبب . وهاله الموقف وقد هلمت قلوب الرجال ، فلاذوا بأعقاب النجاة . وما إن يحل بالنفوس اليأس من الحياة حتى تطير القول حرصاً عليها . فكيف له أن يقف بمفرده أمام جيش بأكله وقد ذهب الخوف بلب المارين ! وهبه فقل ، أو لا ترى أنه هالك لا محالة ؟ ! قد تستطيع شجاعة حمقاء أن تجازف بحياة صاحبها في يوم كهذا دون أن تصل إلى شيء . وأما أوليس فقد كان أحكم من الحق ، وأشجع من الإحجام ؛ كان ذا قلب يفكر . ولذا أقدم في حزم اللستير ، فألقى بمطقة وأخذ من أجمنون صولجان الملك ليكون له الحق في مخاطبة الجند ، ثم التأثير فيهم بما يحمل في يده من رمز الولاية . ولعله كان يدرك بفطرته السليمة ما يستطيع الصولجان من شق نفوس سامعيه لحديثه ، على نحو ما كانت الألفاظ تستطيمه بدون تلك المصا السحرية أو غيرها من المظاهر التي تفعل في جماهير الناس ، بل وخصتهم قلقلها المجيب . ثم سار ، « وكما لقي أحد الملوك أو القادة أوقفه بقوله المسمول : أيها البطل الشهير ! أمثلك يرجف خوفاً ؟ ! أثبت وثبتت جنتك . وأما إذا لقي جندياً مغموراً يحث رفاقه على الحرب ، فإنه يضربه بصولجانه وينغمه بأمر القول : أيها الشقي ! قف واستمع إلى أمر قادتك ، أيها الجندي الخائف القوي ، المنحل العزم . يا من لا اعتبار له في صفوف قتال ولا مجلس مشورة ! وهكذا تهيب الحكمة للشجاعة سبل النجاة والفوز . ألا تراه كيف أخذ كل نفس بما تستحق من لين أو عنف ، وقد عرف كيف يمتلكها جميعاً ، بتحريك معاني القوة

والكبرياء في القلوب التي تستشعرها ، والخوف والخضوع عند من ألوهها . وهذه أدلة الذكاء الذي ينفذ إلى الحقائق النفوس ويلابس الواقع ، وهو بعد ذكاء لا يوق الإقدام بل ينير خطواته .

واعتنى إليه السجين إلى موضع الجمية التي انقضت للتشاور في الأمر ، وإذا برسميت يخطب الجند ليخبرهم بقوله القادر الخلد على الاعتقاد بأنه من الخير أن يعودوا إلى بلادهم . وكان رسميت هذا ثباتاً مشرفاً ، بالخصب النفس في الوقاحة والجرأة ومجاهدة كل نخزي ؛ كان يخلق تجزيع الملوكة يثير به ضحك الجماهير وسخرتها ، وهو أخص الحارين . رجل أعشى أعرج ضيق . كشفه القوسلطان من صدره ، وعلى رأسه المديب كانت تتأرجح بضع شعرات شتية . وقطن أوليين لسافته أنه لا بد له من تغيير الجوز السيطر لهذا النفوس من قوتها ، وتعود عن الاتجاه الذي انصرفت إليه . فأسرع إلى رسميت وضربة بالصولجان ضربة تركت بظهرة ساعده كسنام النوق ، وبقرنا كيا معنولاً بعد أن كان يصول ويجول منذ خضبة كأسد الغابة . وكان الجند يعرفون فيه الجبن والضهامة ، فملت أصواتهم بالضحك ، وهذا ما قصد إليه أوليين الذي كتب المركبة ، إذ تبدل الجو وسكنت القلوب . وهنا غلا النسوة وما زال بالحارين يقفهم بضروقة البقاء ليستولوا على طروادة ، حتى استمعوا له واقادوا إلى رايه ؛ وذلك لأنه عزلة كيت يحاط بهم ، وهم الرجال الفطرون الذين تحرهم التكبرياء ، كما يفودهم الجشع المادي ، والطمع في الأشغال ، ثم هم قوم يؤمنون بإرادة الآلهة ، وقد قضت تلك الإرادة أن يجاروا وأن يقصروا . فقيم المزارع ؟ وأعطيت من التناؤل والثقة بما يقول بحيث لم تلبث الجماعة كلها أن هضت له لميعة متخسنة .

وكان لهذا من أجل ما تعرف في حياة أوليين من موافقة ، وفيه تجلت صفاته التفهنية : إقدام في الحكمة ، وتغيرة بالتناؤل النفوس ، وذكاء نافذ ، وثقة بالنفس .

وعاد الإمبراطور إلى أسواره وطروادة يشدون عليهم الحصار ، ويرز لهم بأبطال المدينة يفتلونهم عنده . وإنما التيلوخ فكنت تراهم يترزون بأعلى الأشيعة غيصة القنود أما كنهم يشدون القتال ككلك الصغار التي ترزق فوق الأعنان ، بين الحسنة يملكون مناجلهم في الجول الغلال ، والذين بينهم هيلة فيروهم جالها ، ويذكرون أن امرأته كهنه تستحق أن يقتل من أجلها بالرجال . وثارت غريزهم رغبة الاستطلاع ، فغاضت الفتاة أفتانها : «جديتي يا بني لمن هذا البطل ؟ هذا الذي ظهر من بين هؤلاء كمن رأيت » ، وإن يكن مدركه وكشفه أعرض عنه ، واستلحه راقب إلى الأرض الخفية لوأما ملوكهم بين جنس

كما سير الكباش على الحرة بين نماجه البضة . وأجابته هيلانة : « هذا ابن لآرت ، أوليس الحكيم . غدبه أرض أيتاكا التي تزعزعه الصخور الجباء . بطل واسع الحيل ، حكم المشورة » .

هَذَا هُوَ الرَّجُلُ: أَيْ كَالْكَبْشِ، تَحْكُمُ كَرِيمٌ.

وكم كانت له في الإنيادة من بطولة . ومن المنل أن تذكر سيره في ظلام الليل مع ديموميد ليتعرف على مواقع العدو ، وما كانت لها من مخاطرات جنونية . وفي اختيار ديموميد له أكرز دليل على أنه كان معروفا بالشجاعة الشديدة إلى جانب أسالة الرأي . ولقد جرح ديموميد في تلك الليلة القاتمة وأحاط به العدو ، ولكن أوليس لم يتركه وحيداً ، بل سُمِدَ جروحه وعاد به .

ولم تكن شجاعته أوليس جسارة قلب حسب ، بل شجاعة حقيقية ؛ فهو قوى الجسم قصير صلب متين . ألا ترى كيف أنه لم يخش إلا نفسه ، بل أنه في السباق ، وانصر عليه يوم أن أقام أخيل السابقات الرياضية الزائفة اختلافا بدعى صديقه المرز بتروكل ؟ ولكنها بعد شجاعة تتميز عما سواها ؛ فهو يمتنع في الأعلى وثباتها حكيمته ، وحكيمته إحسان صديق بالممكن ، وقسط واعتدال ، ثم عزيمة تدفعه إلى الماراة والنهارة . ولهذا اختير على رأس وفد ذهب إلى أخيل لينبئه عن عناؤه ، وهناك وجه إلى البطل خطبة تكاد تظفر بأخذه خيمته ، خطبة مؤثرة فائتة قوية ، ولكنها أمام عناد أخيل لا تلج ، بل يتركها بائسة حزينه .

ومن ثم رآه رغم شجاعته فلا يحجم عن الحرب إذا قصت الضرورة . ولم يرفض أن يعود إلى القتال مع أخيه بعد موت يروبل ؟ « أخيل ! يا ابن الآلهة ! إلى أعرف شجاعتك ، ولكن الجند جوع ، فلا نرم لأن إلى القتال ليطاردوا العدو إلى مدينته . حر الجند يتذوقون القبح ويضطرون طعاما لنريد فتتحد قوام . وما يستطيع القتال إذا حرم الطعام أن يصمد من العجز إلى غروب الشمس ، فلا بد — مهما كانت حارزه قلبه — أن يشغل التعب قليلا قليلا جسمه الملهأ بهاجم الجوع والعطش فتتقصف أرجله وسط القتال » .

وأما أخيل فإريد أن يستمع لقول ، وكيف يتحدث عن ولائم وواحة وقد مات
ضلاله يتركونه يرمي برماله على تلك الأنعام ، وقد جعل الأسير عذراء للرجال ، والفتى
أقرب من الرابعية ، أي كفى من العجز ، بل الرابعية هي التي تليها البطل الذي لا يقهر ،

لست أشك أنك توفقي قوة إذا أخذت بسلاحك ، ولكنى أعتقد أننى أفوقك حكمة ، فسئى فوق سنك . لقد توفرت لى الأعوام فأخذت عنها خبرة تنير لى الطريق . لتدع إذن مشورتى تظامن من حدة نفسك . لقد مل الجند المذابح بعد أن غطت السيوف منبسطة الريف بالقش وضعف المحصول ، وقد مال زيس - فيصل الحرب - بالميزان . وما بالجوع يبجل الجند موتهم . وفى كل يوم تساقط الأبطال وفيرة العدد . فتى نضع حداً لأكلامنا ؟ ! لنؤد واجب التحية لموتانا ، ولنستجمع عزمننا . لنسكب الدمع يوماً على قبور من فقدنا ، ولنشبع جوعنا ، ولنرو عطشنا نحن الذين أفلتنا من الموت ، حتى نستطيع إذا ارتدنا دروعنا الأبية أن قاتل العدو بقلوب جديدة العزم » .

هذا هو أليس الشجاع إلى حد الهوس عندما يترك الهوس مجالاً للنصر ، والحكيم المتروى عندما تحدته خبرته بنفوس الجند ومدى قدرتهم على احتمال شتات الحرب ووجوب التريث وتجميد القوى . هذا هو أوليس الحريص على كرامته يدفع عنها تعالى أخيل نفسه ، وإن كان من قوة الخلق بحيث يصرف للغير بفضله ، ويقر له بالسبق فى الميادين التى لا يستطيع أن يثبت فيها .

وثة مواقف أخرى تدل على أنه وإن يكن ماضى الزعة ، إلا أنه قد عرف دائماً كيف يضع صالح الوطن فوق قومه الخاص ، بل فوق كبريائه . وهو بعدد ورع تقى يخشى الآلهة ويحترمها ، ولكنه لا يحجم عن الصمود لها إن أضرت به ، وذلك فيما عدا « بالاس » إلهة الذكاء ، فهو يخضع لها خضوعاً تاماً ، وذاؤها صاف وحكمتها عملية يعتمد على الحظ ، ولكنه لا يسقط من حسابه كل ما يمكن أن يتوقع من نكبات يمد لها آلاف الحيل . وهو فى هذا أصدق تمثيلاً لصفات اليونان من أى بطل آخر من أبطال الإلياذة ، بل من بطلها الأول أخيل نفسه السرف الكبرياء ، القشوم الشجاعة . ولكن الزمن سار سيرته ، فأخذت الحكمة تظنى شيئاً فشيئاً على نفس أوليس ، وتراجع الشجاعة ، وهو فى ذلك يمثل تطور الشعب اليونانى كله كما سنراه فى أوليس « الأوديسا » .

(٢)

فى الاودسا

يحتل أوليس فى الأودسا المكان الذى يحتله أخيل فى الإلياذة ، فهى قصته ، وذلك لأن لفظة « أودسا » مشتقة من « أودسيوس » كنية « أوليس » ، وأودسيوس باليونانية

هو « جواب الآفاق » الذى يقص هوميروس أنباء عودته من آسيا الصغرى إلى وطنه إيتاكا بجزيرة كورفو الشهيرة حتى اليوم بروعة موقعها على مقربة من شاطئ دلاسيا المصيف الأوروبى الجميل .

والحق إن اختيار هوميروس لأوليس كبطل للحمته الثانية ما يدعو إلى التفكير ، وبخاصة إذا ذكرنا أنه قد كان هناك أبطال آخرون من بينهم من انتهى إلى مصير جدير بأن يوحى أجمل الشعر كأيأس مثلاً . أيأس الذى جن إذ آثر اليونان أوليس بدوره بأسلحة أخيل عند موته ، مع أنه كان أعظم من أوليس إقداماً وأشد بطشاً . كان باعتراف الجميع « سياف اليونان » .

ولكن الواقع هو أن اليونانيين قد رأوا فى أوليس أعوذاً قومياً تركز فيه صفاتهم ، وفى هذا ما يفسر اختيار هوميروس له دون كل الأبطال . لقد كان الشعب اليونانى حريصاً على أن يستمع إلى مغامرات البحر ، وهو شعب قد بنى مجده على خوض عباب اليم ، والتماس أسباب الحياة فى الأراضي النائية حيث الننى الذى لم يتوفر لبلادهم الفقيرة . ثم إن الصفة التى غلبت على أوليس فى الإلياذة هى الشجاعة المستتيرة يوم دعا داعيها . ولكن الزمن قد سار سيرته ، وأصبح الرجل اليونانى يمتنع إلى تقدير صفات نفسية أخرى لا تقل عن الشجاعة قيمة فى نظره ، لأنها صفاته التى يصدر عنها فى كل أموره ، ومن بينها الحكمة ، وحسن التقدير ، وفهم النفوس ، واللباقة فى معالجة المشاكل والتغلب على الصعوبات .

ولهذا عند ما نمر من الإلياذة إلى الأودسا نلمح فى شخصية أوليس تطوراً لا ريب أنه قد مائى تطور العقلية اليونانية كلها ، بحيث نجد فى تصور هوميروس له حقيقة الروح الإغريقية . والذى لا شك فيه أن الأدب وبخاصة أدب شاعر واقعى كهوميروس أدل على عقلية الشعوب من أى تراث روحى آخر . فالفلاسفة كأفلاطون أو الرواقيين قد يحدثننا عن المثل الأعلى فى الأخلاق ؛ فيراه أفلاطون فى أن نعيش وفقاً لطبيعتنا البشرية ، فلا تقاوم غرائزنا ولا نحاول قتلها ، بل نتركها تنمو غوراً طبيعياً حتى لا نفسد حياتنا بكنهها ، مكتفين بأن نتخذ العقل رقيباً يحد من إسرافها ويلازم بين تنافرها . ولقد يدعوننا الرواقيون إلى ألا نتأثر بالأحداث ، فلا نتخلع قلوبنا للحزن ، ولا تخف أحلامنا للطرب . ولكن هذه كلها مثل عليا ، والمثل الأعلى موضع رغبة ، ونحن لا نرغب إلا فيما يعوزنا .

والأدب ليس كذلك ، ففيه نجد حقيقة العقلية اليونانية كما كانت . وعند هوميروس ما يعيننا على فهمها ، فن بين أبطاله النيف الانفعال القاسى القلب فى نبيل وإياه كأخيل ؛

ومهم الشجاع في روية ، الناهية عن ذكاء فاذ كاوليس .

والذي لا ريب فيه أن أوليس لم يفقد شيئاً من صفاته التي عرفناها عنه في الإلياذة ، ولكن الأمر أمر نسب وتطور . والذي يبدو لنا في الأودسا هو أن زمن البطولة الأولى كان قد ولى ، وكان اليونان قد أنكبوا ما في خلق أبطالهم من إسرار ، فأصبح البطل كاوليس أقرب إلى البشر منه إلى الآلهة ، أقرب إلى الحياة منه إلى المثل الأعلى .

لم يعد أوليس البطل المقدم الذي يقامر في حرب مثالية يبنى منها أن يستنقذ هيلانة ربحاً للجمال الكامل ، بل ذلك الناهية الحصب الذكاء ، ذلك السامح الطليعة الذي يجوب آفاق البحر الأبيض ليرى بعيني رأسه ويعلم عن بحيرة ، فلا يعود إلى وطنه إلا وقد ملأ ناظره بحال ما شاهد ، وأغنى ذاكرته بما سمع من قصص . وليس من شك في أن أزم الصفات لرجل يسي إلى ما كان يسمى إليه أوليس هي القدرة على التمييز عن فطنة ومهارة ، حتى يستطيع أن يتدبر لكل حالة حلاً موفقاً ، ولكل مأزق مخرجاً سرياً .

نعم إنه لا زال يحتفظ في الأودسا بصفاته الطبيعية وأخصها الشجاعة والضبر ، عقواه الجسمية لا زال سليمة ، وإرادته القوية ما رحت في قبضة يده يتصرف فيها كيفما شاء . ولكننا نحس أن قواه قد ازدادت خضوعاً لحكيمته ودهائه ، بل ومكره ، فهو لم يعد بطلاً خارقاً بل بشراً كسائر البشر .

انظر إلى وصف لأوداموس Laodamos أحد أشراف الفيايين Phéaciens له عندما ألقاه البحر بينهم : « أيها الأصقباء ! دعونا نسأل هذه الأجنى عما خاض من تلك المارك المحيطة التي قوم فيها جسمه . وفي منظره ما يبنى بقوة الأبطال ما أقوى جوانحه ! وما أصلب أرجله ! وما أعرض صدره ! إن في منأ كيه صلاية ، وبأذرعه أعصاب تنبض . إن الشباب لم يفارقه وإن كانت الحزن قد هنت من كيانه » .

وما إن وطئت قدماه أرض ليتاكا وطنه حتى بدا له أن يتنكر في ملابس شحاذكي لا يتكشف أمره وهو لا يعلم بعد إلا ما سار ملكه ، أو انتهى الأمر زوجته النبيلة بتلويب وابنه الشجاع تليماك ؛ ومع ذلك فمن خلف الأسمال كانت عضلاته تطالع الناظر . وهو يصف نفسه فيقول : « لقد صرت إلى خروف الحياة ، ولكن أليس في قوة التقش ما يبنىء بنوع الحصاد » .

وفي حرص هوميروس على أن يحتفظ لهذا الشيخ بقواه الجسمية ومظاهرها التي يصف في دقة ، ما يدل على اتجاه مطرد عند اليونان ؛ فهم شبع كان يرى دائماً في قوة الجسم إشارة

تقوى ، وذلك لافى عصور بداوتهم الأولى فحسب بل فى كل مراحل تاريخهم ، وآية ذلك جزهم المستمر على الرياضة البدنية . السينا تذكر أن أفلاطون نفسه قد خسر فيها . هي واليوسيقى والعالم الرياضى مواد الترية بجمهوريته . والترية عندهم لم تكن تحصيلاً أو إعداداً للمهنة ، بل تكويناً للملكات جسمية كانت أروحية . ثم هل أدل على فطنتهم لصحة الجسم وبجالة وقوته من أن ترى سقراط نفسه ، سقراط الشيخ ، يحرص على أن يتعلم الرقص ليقلل من قبح جسمه المتبعج ويقوى من ضعفه ، فيقول لأصدقائه وتلاميذه وقد اجتمعوا يوماً بمنزل أحدهم حول غلام يعلم الرقص : « أنضحكون منى لأنى أريد رياضة جسمى أن أنمهد بى ، فأعجب بأكل هنى ونوم سليم ؟ ! أنضحكون لأنىكم تمنقون أن شيئاً مثلى لن يصاحب مدرباً رياضياً إلى الغلاء فيمرى جسمه أمام الجماهير ، بل سيقنع بغرفة طعام كهذه التى يكتفى بها هذا الغلام ؟ ! أنضحكون لأنى سأتمرن فى الشتاء تحت السقف ، وفى الصيف تحت الظلال إذا اشتدت حرارة الشمس ؟ أم أنضحكون لأنى رحت يبطن كبير إلى جدي ما ، فأردت أن أردّه إلى جحى منقول ؟ » . وفى هذا يقول شاعرهم أنا كركون : « عند ما يرقص الشيخ لا ترى فيه مجوزاً غيز شعره ، وأما روحه فلا ترى فيه : » .

وفى كل هذا ما لا يدع مجالاً للشك فى أن أوليس كما يصوره هوميروس يمثل تامة جسمه بهيئة كان اليونان يحرصون عليها . كل الحرص . والكثير من شعوب أوروبا لا زالون إلى اليوم يرون ما كان يراه اليونان ، عن أن قوة الجسم فضيلة لا تقل أهمية عن الفضائل الروحية ، ولأنه الحق أن محترفيها أو ترى فيها أمراً ثانوياً .

ومع ذلك فقوة جسم أوليس لم تعد شيئاً إلى جوار قوة إرادته ونفاذ ذكائه . ولهم من حمة أوشك الموت أن يتلقفه . لولا ملكة لنفسه . ونحن لا نعرف ملاحاً سواه من مضيق ميسينا وسمع من أعلى الصخور نداء السيرين *Sirènes* الساحرات الصوت ثم صيد الإغرائهن . قالوا لانه أمر رجلاه فشدوا وثاقه إلى شراع السفينة على أن يزيدوه شيئاً كلما طلب إليهم أن يحبوه ، وما الوثاق إلا غر لسيطرة على أهوائه . وهكذا مررت سفينته دون أن تتحطم بالصخور كما تحطمت من قبلها ومن بعدها ستن أخذ ربابها بمنوبة الصوت فذنوا ليلقوا حتفهم . وبفضل تلك السيطرة أيضاً قاوم كاليبسو *Calipso* الإلهية الجمال ، عند ما أرادت أن تثبتيه فى كهفها بإحدى الجزر زوجاً لها ؟ كما انتصر على ترسنيه *Cercé* وعلى السكلوب الخفيف ، ثم على بوزيدون نفسه إله البحر القابض ، أوليس أقوى من أنصاف الإله بل ومن الإله ، لأنه قابض على زمام أمره ، وقد انقذ عزمه على أن يعود إلى مملكته

حيث زوجته الوفية بنلوب Penelope التي كانت تنتظره في صبر منذ سنين ، والتي لم تكن تقل عنه دهاء ، وقد رأت خطابها الكثيرين وخشيت بأسهم فوعدهم أن تختار لنفسها من بينهم زوجاً بعد الفراغ من ثوب كانت تطرزه ، ولكنها أخنت تنقض بالليل ما عمله في النهار ، وبذلك لم تنته حتى عاد زوجها فأخذها .

ثم أية مقدرة على كبت مشاعره وإخفاء ما يثور بنفسه من انفعال ! انظر إليه وقد عاد متكرراً إلى بيته وزوجته تجهل حقيقته ، فتحدث عن أوليس الغائب أرق الحديث : « وعند ما رأى بكاء زوجته المر استشعر بأعماق قلبه رحمة قوية ، ولكن عيناه لم تتحرك منهما حدقة ببغيفيه الساكنين كأنهما من صخر أو حديد . ذلك لأنه يخفق فن التصنع إلى حد يستطيع معه أن يحبس دموعه » .

وما هي إلا لحظة حتى أوشك أن ينفجر من جديد إذ رأى نفسه بقصره شحاذاً مزدري يتلقى قلب جريح من عشاق زوجته كل أهانة ، ويرى ما يلحقونه ببيته من أذى ، « اهتز قلبه بين أضلعه ، وكما ترسل الكلبة الجارحة نباها القوى وتحرق لاقتال إذا دنا غريب من أبنائها وهي تسير بينهم لحايتهم ، كذلك زار قلب البطل وقد أنهكه تحمل ما يرى من هوان . ولكنه لم يلبث أن ضرب على صدره ليلزم الصمت وثبات قلبه الفتى . هدوء أيها القلب ! لقد تحملت فوق ما ترى اليوم من محن . لقد رأيت ببني رأسك ذلك السكوب الذي لا يقهر يفترس وفاقك الشجيمان فثبت حتى استطعت بمحكتك أن تنجو من مفارقة حيث كان الهلاك محققاً . هكذا زجر قلبه فسكن وكأنه قد أوثق فغمدت فيه كل نامة » .

وتجلى بطلنا مشركاً معه ابنه تلياك ، وقد عاد من رحلة قام بها بحثاً عن أبيه ، وأخذ يعد لمولاء المشاق الوقحين وسائل الهلاك في دهاء محكم ، قال لولده : « إنني أرى كل شيء وما يفلت مني شيء » . وتلك هي رؤية الممكن وحدوده لا يعدها عند وضع الخطط . وما إن علم بوفرة أعدائه حتى لزم التنكر . وهو في ذلك مثل الكثير من قادة اليونان ؛ وكلنا يذكر بلا ريب فيليب المقدوني الذي عرف كيف يكسو الأسد جلد الثعلب .

ولكن دهاء أوليس لم يصبح بعد خسة ، ومصدره فهم لنفوس البشر واستغلال لشهواتهم ، ولئن نصب شراكاً فهو لم ينصبها إلا للحق . ومن الواضح أن هذا الدهاء هو الصفة التي تملكت الأودسا يظهاها . وفي أحد مواضعها تجربنا هيلانة أصل البلاء ، « أنه قد بلغ بأوليس الدهاء أن دخل طروادة متكرراً في ثياب شحاذ (شفتنة قديعة ! !) فرأى كل شيء قبل أن يظن إليه أحد ، ثم قتل نقرأ من رؤساء المدينة وولى » . ونحن نعلم من

مصدر آخر أن سقوط طروادة كان بحيلة من حيله ، إذ أمر بصنع حصان كبير من الخشب كن يبطنه هو وقر من الجند ، ثم تظاهر اليونان بالانسحاب تخلفين الحصان وراءهم ، فأتى أهل طروادة ظانين أنه غنيمة باردة ، ولما كانت أسوار المدينة وأبوابها لا تسمح بدخوله فقد هدموا جانباً منها وأدخلوه . وما إن أحس أوليس وأصحابه أنهم قد صاروا في قلب المدينة حتى وثبوا من الحصان وقتلوا الحراس ، وكر اليونان ، فاحتصموا على المدو مأواه ، وبذا سقطت طروادة ، وأصبح « حصانها » مضرب الأمثال للخديعة .

وهذا الدماء هو نفسه الذى مكن لأوليس من رقب الخُطَّاب ، فإنه لم يزل يمدالمة ، ويستوثق من الوسائل ، حتى تهيأت له كل ملايسات النجاح ، فأغلق باب القصر وقتك بأعدائه أشد فتك . وما إن تم له النصر حتى ظهرت قسوته كما عهدناها فى الإلياذة . وأوضح ما نلح من تلك القسوة هو شقته للقوادات بسقف منزله ، فذلك منظر شابت لهولة النواصي . قالوا كنت تراهن يومئذ وقد « علّقن كالمصافير تهر أرجلها برهة ثم تقارق الحياة » .

ولكننا رغم هذه القسوة ورغم ذلك الدماء الماكر لا نستطيع أن نرى فى أوليس خلقاً ذمياً ، قسوته لما ما يبررها ، ودهاؤه لم يستخدمه إلا فى الحرب أو دفاعاً عن شرفه ، ورداً لحق البشر وأدام . بل نحن لا نستطيع إلا أن نمجّب لرقته فى حديثه له بإحدى الجزر التى مر بها حيث اتى نوزيكا Nausica بنت الملك ، وكانت فتاة جميلة وديعة ، فعرف كيف يلاطفها ويحببها ويلين لها القول على نحو أشبه بأخلاق الفروسيّة التى عرفناها فى القرون الوسطى منها بأخلاق البدواة الإغريقية التى كانت سائدة فى ذلك الحين .

ثم إنه كان يحبّ وطنه ، وهذا خلق بلا ريب بالغ النبيل . استمع إليه يتحدث وقد سئل عن ذلك الوطن : « بلدى إيتاكا الشهيرة التى تنظر إليها الشمس وقت الغروب . فيها ترّف الأوراق الكثيفة على سطح النيرت Neiret عند الظهيرة ، وأما النجر فيترّ حولها عدداً وفيراً من الجزر الخصبة : دوليكيم Dulicheum وساميه Samé وزا كانت Zacintae الخضراء ؛ بلدى تقع على مقربة من أرض اليونان ، جزيرة قطعها الصخور ولكنها متبنة فنية بوسائل . لا ! ليس فى الأرض مكان أحب إلى قلبى منها . عبثاً حاولت كالمسو أن تستبقينى بكهفها لتخصنى بشرف الزواج بها . عبثاً حاولت سر سبيّة العالمة بكل ما يعرف السحر من حيل أن تمرض على المرض نفسه فتحفظ بى موقفاً بمجائيل الزواج . لقد تبذرت جهودهن هباء ، فمجنون عن إمالة قلبى ، وذلك لأن أرض الوطن وما تمل من أهل وهبونا الحياة ،

واتصلت قلوبنا بقلوبهم ، قد أوحى إلى بحب رقيق لا يستطيع كل ما فى الأرض من مجد وخيرات أن يصرفنى عنه .

ونحن نعلم أنه لم يكديطاً أرض الوطن حتى قبّل ترابه ورفع بصره إلى ربات اليم شاكرًا أن قدنه إليه .

ذلك هو أوليس الأودسا : بقية من صحة الجسم وشجاعة القلب ، ثم عقل كبير ودهاء خصب ؛ قسوة حيث تنمطر القسوة ، ولين ورقة قلب حيث تهز النفس ويثور الفؤاد . ولكنه بلا رب لم يعد أوليس الإلياذة ؛ وأكبر دليل على ذلك أن زراه يوماً يستمع إلى شاعر متجول يأخذى الجزر فينصت ، وإذا بالشاعر يتغنى بحرب طروادة فيغنى بطلنا المغوار رأسه ويأخذ فى البكاء . ونحن على ثقة من أنه لو رآه زملاؤه أبطال الإلياذة فى ذلك اليوم لأنكروه .

لا . إن أوليس لم يعد من الصلابة بحيث كان ، وقد أخذ التفكير يتقلب فى نفسه على خشونة البداوة . أخذ الهاء يسيطر على الشجاعة ، أخذت الرقة تنفذ إلى صلابة قلبه . أخذ يتحضر . وهذا أمر لا عيب فيه ، ولكن طريق الحضارة طريق زلق سوف ترآه فى الحديث الآتى ينتهى برجلنا كما انتهى بالشعب اليونانى كله إلى بوادر انحلال خلقى . ستكون إحدى مظاهره ذلك الخبيث القبيح الذى يصدر عنه أوليس « فيلوكتيت » Philoctète مسرحية سوفوكليس الروائى العظيم .

(٣)

فى فيلوكتيت

تركنا أوليس وقد أصبح فى الأوديسا أقدر على الهاء مما عهدناه من قبل . وهما نحن نلقاه اليوم فى فيلوكتيت Philoctète مسرحية سوفوكليس الشاعر العظيم ؛ فإذا بنا فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ وإذا بنا فى أثينا حيث ظهر الفلاسفة ، وكثر الخطباء ، وتعددت السوفسطائيون فأخذت بوادر الانحلال تدب فى الأخلاق . وتلك ظاهرة لها أشباهها فى تاريخ كل الشعوب ، فالتفكير ملكة خبيثة كثيراً ما تنتهى بالإنسان إلى تدمير كل الوسائل ، والتمسك كافة السبل لما نعى إليه من أهداف ، فيسكت صوت الضمير ، ويحتفى من النفس معانى النبل التى تتوافر عادة فى البداوة .

وهنا ما كان من أمر أوليس رضى الشعب اليونانى كله ، فهو لم يمد الداهية الشجاع ، بل الخيث الجبان الذى لا يتورع عن شئ ، ولا يقيم لمبادئ الخلق أى وزن . ولا أدل على ذلك من أن ننظر فى موقفه من فيلوكتت أحد أبطال تساليا الخالى الذكر .

« فيلوكتت » بطل أبى النفس ببعد المهمة . لاقاه يوماً هرقل فأنخذ منه رقيقاً ، صاحبه فى كثير من أعمال بطولته التى خللت ذكره ، إلى أن حم القضاء فأت هرقل برءاء مسموم أعطته إياه زوجته « ديجانير » خطأ ، فى قصة طويلة مؤثرة . ولما كان هرقل يحب « فيلوكتت » ، فقد أعطاه عند احتضاره قوسه الشهيرة وأسهمه النافذة ، وأوصاه أن يقوم بنفسه على إحراق جثته كما جرت عادة القدماء .

وعند ما م اليونان بالانتقام « لمينيلاس » ، ونادوا بإعداد السفن والرجال للإبحار إلى آسيا الصغرى ، لم يتخلف فيلوكتت ، بل قدم ست سفن كبيرة زودها بالجند ، وأبحر هو على رأسهم ، ولكن بحن الأيام شامت إلا أن تلذغه حية بإحدى الجزر التى أرسوا بها أثناء رحلتهم الطويلة . لبغته فى رجله ، ففزع الجرح واشتدت رائحته الكريهة . فتشاور الرؤساء فى أمره . ومن عجب أن ترى « أوليس » يدعوهم إلى تركه بجزيرة « لنوس » تخلصاً منه إذ لم يمد صالحاً لشئ . وفى هذا ما يحزن . فقد سبق أن رأينا أوليس نفسه فى الإلياذة يحرص على ألا يتخلى عن زميله « ديوميد » عندما جرح فى الغزوة التى اشتركا فيها ، وقد أحاط بهما العدو والليل حالك الظلام . وهو ميروس يحدثنا أنه قد أظهر عندئذ نبلا وشجاعة لحد لجلالهما ، إذ ضمد جراح رفيقه وعاد به سالماً . ولكن الزمن كما قلنا لم يمد زمن البطولة الكريمة ، بل زمن النفع المباشر الذى يستطيع كل فرد أن يجنيه من زميله .

ترك اليونان إذن « فيلوكتت » تزولا على إرادة أوليس الذى تولى بنفسه تنفيذ الجريئة . ووصلت الحملة إلى طروادة ، وكان ما كان من حصار المدينة عشر سنوات دون التمكن من أخذها ، حتى مل الجند وطلبوا إلى رؤسائهم أن يستشيروا عرافاً لعله يدهم على سر أو ينبئهم بوسيلة . وقال العراف : « إن طروادة لن تسقط إلا على يد من يملك قوس هرقل وأسهمه » فسقط فى يد الجميع وحارت الأبواب ؛ إذ من يستطيع أن يعود إلى جزيرة لنوس بعد عشر سنين ليطلب إلى فيلوكتت أن يعطيهم أسلحته أو أن يخف إلى نجبتهم ؟

وساءت الأمور ، فأخيل نفسه قد قتل ، وأعجب ما فى الأمر أن تكون وفاته بسهم يطلقه « باريس » حلس النساء فيصيب كعبه ، ويتسائل الناس جميعاً : كيف يموت بطل

— لم تر الأرض مثله — يا صابرة في كعبه ، وستنكرون موتاً كهذا . ولكنهم يقتنعون بإرادة القضاء ، إذ يبحثون فيعلمون أن أخيل كان منيع الجسم كله ، وأنه لم يكن فيه موضع ضعف غير كعبه ؛ وذلك لأن « زس » كان قد أوصى « تيتيس » ، ربة البحار وأم البطل ، أن تلمس ولدها عند ميلاده في الماء عدة مرات حتى يتبل جسمه كله فيصبح في مناعة تامة . ولكن الأم المسكينة نسيت أن تبلل الكعب أيضاً ، إذ كانت يدها تغطيه وهي تنكس ولدها في البحر . وفي الحق إنها إرادة الآلهة ، فالخلود لم يكتب لأحد . وإلى اليوم لا يزال « كعب أخيل » مضرّب الأمثال لموضع الضعف في كل رجل مهما كانت قوته ومهما علا مجده . مات إذن أخيل ، ولكنه خلف ولداً لا يقل عن أبيه شجاعة . خلف « نيوپتولم » Neoptolème أى « القائد الحديث » ، وقد رزقه من إحدى أميرات جزيرة سر كوس Syrcos ، حيث قاده إرادة الآلهة قبل نشوب الحرب . وكان أوليس يعلم بوجود هذا الشبل ويؤمن بأنه سيكون خير عوض عن أبيه . ونظر فرأى أنه لن يستطيع أحد أن يقترب من فيلوكتت الثائر المتألم الحامى الحفيظة غير هذا الطفل القدام ، الساذج الشجاع . فاقترح أن يسير هو إليه في جزيرة سر كوس ، وأن يخبره نبأ وفاة أبيه ، ثم يطلب إليه أن يصاحبه إلى جزيرة « لنوس » ، حيث فيلوكتت الذى لم يكن بد من إحضاره لكي تتحقق نبوءة العراف .

وصل أوليس إلى سر كوس ، وهناك وجد نيوپتولم ، فأخذ يصطنع كل الحيل ليقنعه بما يريد . من ذلك أنه أعطاه أسلحة أخيل أبيه . ونحن نذكر أن اليونان كانوا قد آثروا أوليس — لهاته — بتلك الأسلحة دون « أياكس » الذى جن لهذه الإهانة وانتهى به الأمر إلى الانتحار ، مما زاد في مصاعب الجيش اليونانى وقد أخذ يفقد خبرة أبطاله الواحد بعد الآخر ، فهوّن ذلك على أوليس كل تضحية في سبيل النصر ، بله النجاة . ومن حيله الأخرى لإغراء نيوپتولم أن حرك فيه كبرياء الطفل ، ولوّح له برأيات المجد . قال : « إن طروادة ستسقط على يديك إذا استطعت أن تحضر فيلوكتت ومعه أسلحة هرقل التى ورثها عند موت ذلك البطل الشهير ، فيلوكتت الذى قضت إرادة الآلهة أن يكون موت باريس قاتل أياك على يديه ، وهو الذى سيساعدك على دخول طروادة » .

ولم يزل أوليس نيوپتولم حتى أقنعه بالسير معه إلى لنوس . وهنا تبدأ مسرحية سوفوكليس ، وقد وصل هذا الداهية الخبيث إلى الجزيرة ومعه طفلنا الشهم ، وجاء دور العمل ، فرأينا أوليس الساكر الجبان يظل في الخلف لينفع نيوپتولم إلى المخاطرة ، وهو يعلم أن فيلوكتت

دجل أزلت به الخيانة أشد المحن ، فعرفت نفسه المارة ، وقد قضى بتلك الجزيرة — التي يأبى الشاعر إلا أن يجعل منها أرضاً جديداً موحشة — عشرين وذكريات مجده الذي ضاع ، ووطنه الذي حرم منه تلح على قلبه فيثور ويحرق للانتقام ؛ ثم إنه يملك قوساً وأسلحة لا تزال حتى اليوم خالصة الشهرة . والتي لا شك فيه أنه كان يحقد على كل اليونان ، وينتظر يوماً يستطيع فيه أن يسيل دماءهم جزاء وفاقاً لندرم به . ومع ذلك فلننظر بأى خبت يدفع أوليس طفلنا إلى الهلاك :

« يجب أن تخلب لب فيلوكتت بقول خادع . عند ما يسألك من أنت ومن أين أنت ، قل له إنك ابن أخيل . وهذا حق لا مواربة فيه ! تظاهر أنك عائد إلى وطنك بعد أن تركت أسطول اليونان موضع بضائك المميح ! أنت الذي استدرجوك بأوضاع التوسلات عند ما لم يكن لهم غنى عنك لأخذ طروادة ، ثم لم يروك أهلاً لأن تراث أسلحة أخيل فأعطوها لأوليس ، مع أنك أحق بها من كل إنسان ! وهنا تستطيع أن تشبعني سباباً . وأنت إذ تقبل ذلك لن تسيء إلى شيء ، في حين أنك لو اتخذت سبيلاً آخر لسيئت لليونان كافة أقسى المحن . ثم إنك لن تستطيع هدم سياج طروادة ما لم تستول على ما يملك هذا الرجل من قوس وأسمه . ولو أنني ذهبت بنفسى لحديثه لما كان في ذلك شيء من الاطمئنان أو ضمان السلامة ، بينما تستطيع أنت ذلك دون أية مجازفة . ولو أنه أحس بوجودى وقوسه بيده لضمت ولضمت مى كرفيق سفى . يجب عليك أن تحتال لسرقة سلاحه . »

ويطرق « نيويتولم » ، ويحس أوليس بما دار في نفسه ، فيبادره بقوله المسئول الذي ينفث السم : « لست أجهل يا ولدى أن طبعك لا يسمح لك بأن تقوه بكلمات خادعة ، أو أن تأتى بأعمال ملتوية ، ومع ذلك ما أحل أن تقوز بالنصر ! الجرأة إذن الجرأة ! حتى تقوز بما نبغى . وبعد ذلك لدينا متسع لتكون أمانة صادقين . عليك الآن أن تضحي بصدقك وأمانتك مدى جزء صغير من يومنا هذا ، وبعد ذلك لك أن تكون أبداً السنين أشرف الرجال . »

وهذا موضع الانحلال . داء عضال كم نخر في عظام الإنسانية منذ أقدم العصور ، إلى أن جاء ميكافلي ، الفكر الإيطالي المعروف ، فأقامه منهجاً معبراً عنه في كتابه « الأمير » يجملته السفة : « الناية تبرر الوسائل » . وتلك نغمة لم نسمعها من أوليس الإلياذة ، بل ولا من أوليس الأودسا . ولكنها بوادر الفساد التي أخذت تنتشر في القرن الخامس عند ما ظهرت الفلسفة وامتدت بسفسطها إلى الأخلاق التقليدية ، تلقى الشك في قيمها ، وتلتهم للخروج عليها تأويل باطلة .

ورفض نيوتولم عرض أوليس . رفضه لأنه ابن أخيل . ولقد كان أبوه يفضل الموت على أن يفكر في شيء ويفعل غيره . نيوتولم شاب كريم الطبع نبيل الخلق ، فكيف يستطيع أن يكذب ويفتر وينافق في جبن ؟ ! وهل هناك غاية مهما جلت أو نبلت تستطيع أن تبرر العيوب الخلقية ؟ ومع ذلك لا يئأس أوليس من إغرائه : .
« وأما أيضاً . — يا ابن البطل الثوار — عندما كنت شاباً كنت أطول ذراعاً من لسان . وأما اليوم وقد حنكتني التجارب فقد أصبحت أعتقد أن الأحياء يسيطر عليهم اللسان أكثر مما يسيطر الذراع » .

وهذه سفسة جورجياس . يعنيها . ويصيح نيوتولم مقضياً من دعوة أوليس له إلى الكذب . ولكن هذا الأخير يجيبه في برود : « إنه ليس في الكذب عار ما دام فيه منجاة لنا ، بل ما دام فيه نفع لنا » !
ولا غرابة في ذلك ، فأوليس لم يمد يدعوا « بالاس » إلا إلهة النبيلة غنيمبا يحزه أمره ، بل هرمس إله التجار والصوفس والمنفعة . لقد تنكر أوليس لألهته القدماء ومنه الشعب اليوناني كله ، وهو طبياً يرفض ما يصفه به أعداؤه من انحطاط ، ويحاول أن يرفع كذبه إلى مستوى الفلسفة فيحصل منه مذهباً نظرياً . ألم يقل عند ما سمع سباب فيلوكتت له : « باستطاعتي أن أرد عليه رداً طويلاً ، ولكن الوقت لا يسمح لي بذلك اليوم . وأما الآن فليس لدى إلا شيء واحد أجيب به ، وهو : أنني كما يقتضى كل ظرف . فحثت طلب الاستقامة والعدل لا ترى أعدل مني ولا أقوم ؟ ومع ذلك فقد أملت على طبيعتي شهوة الطموح إلى النصر دائماً » . وهنا يلحق سوفوكليس بالمؤرخ توسيديد عند ما يصف لنا أخلاق اليونان إبان الحرب البليونية .

ولقد كان الأمر يهون لو أن الفساد لم ينته بأن يمتد إلى نيوتولم نفسه ؟ فأوليس لم يزل به يفره بالجد والنصر حتى سخره لما أراد . وذوو النظر يجمعون على أن الصفة التي وقعت في نفس الطفل عند تعلق أوليس له لم تكن الصفة التقليدية : « أيها الشاب الجميل الخير » بل : « أيها الشاب الحكيم الخير » ، وفي استبدال أوليس للفظ « الجميل » بلفظة « الحكيم » ما يلخص تطور الروح اليونانية كلها ، فهم لم يعودوا يقدرون جمال الجسم وقوته وشجاعته تقديرهم للذكاء والدهاء والمكر التي أصبحوا يسمونها حكمة .

وهكذا ترى نيوتولم يسير إلى فيلوكتت ويخذه بالكذب ، فيدعي أنه سيمود إلى سيركوس ، وأنه لا يعرف محدثه ، ولا سبب محنته ، كما يتظاهر بأنه هو الآخر فريسة لظلم

اليونان ، وهو يسرف في ذم أوليس وغيره من الأبطال ويتهممهم بالسرقة والخيانة : سرقة أسلحة آية — مع أن أوليس كان قد أعادها إليه — ثم خيانة بعضهم بمضاً . وهكذا يرى ابن أخيل نفسه يقلب الحقائق ، ولكنه أحد إغريق القرن الخامس ، ولكن أستاذه هو أوليس .

وانتهى به الأمر إلى أخذ الأسلحة من فيلوكت ، وقاد الرجل المسكين إلى الشاطئ ليبحر وأجمعاً . وهنا عاودت نيويتولم بقية من نبل طبيعته الأصل ، فاعترف بالحقيقة ظاناً أن فيلوكت سيعفو عما كان . ولكن فيلوكت كان على الخلق القديم ، كان لا يزال صلب المناد قوي النفس ، وكأني به ينتشر الخزي كلما ذكر تلك اللحظة المشؤمة التي فصح فيها عينيه وهو ملقى على الشاطئ ، فرأى السفن تبحث في الأفق بعد أن خلفته منبؤاً للجراح الدامية . نعم لقد مضى على ذلك عشر سنوات ، ولكن الألم لم يبرح ، والجرح لم يلتئم . فأى غرابة في أن يثور عند ما يجبره نيويتولم بهذه الخيانة الجديدة ! أى غرابة في أن يصيح طالباً أسلحته ليقتضى على نفسه ويقطع أوصاله غيظاً ، إذ عاد فوقع فريسة هيئة للفرد والاحتياط ، وقد أصبح لا يريد شفاء ولا نجاة . بل يرى المجد والشفاء في أن ينتقم لنفسه ، وأن يرى هلاك اليونان بعد عجزهم عن الاستيلاء على طروادة التي أفتت أبطلهم وأرتهنهم من الحزن بالوفاة عشر سنوات .

وحار أوليس ونيويتولم في الأمر ، وقد نفدت منهما الحيل ، ولم يبق إلا أن يطلبوا عون الآلهة . وهذا ما كان . فقد رفق زيس فأرسل شبح هرقل إلى فيلوكت ، يطلب إليه أن يسيّر إلى طروادة حيث يجد الشفاء وينيب المجد يقتل باريس قاتل أخيل أكبر أبطال اليونان ، ثم للمساهمة في أخذ طروادة . وأطاع فيلوكت وقد هبأت نفسه ، فودع لنوس مقر محنته ، كما ودع البحر الصاحب من حوله أجل الوداع ، ووصل إلى طروادة حيث تحققت نبوءات المراف وإرادة الآلهة . وبعد أن تم له ما أصاب من مجد عاد إلى وطنه في رحلة لم تستغرق غير سنة واحدة . وأما أوليس فقد ظل يتخبط بالبحار عشر سنوات كما رأينا في الأودسا . عاد فيلوكت إلى وطنه قبل أوليس بتسع سنوات ، ولعل في ذلك بعض العوض عما أنزلت به الأقدار من محن .

أوليس لم يمد إذن كما عهدناه ، ومع ذلك فتحن لا تزال في عصر سوفوكليس ، فما بالك عند ما يتراخي الزمن قليلاً إلى عصر أوريبيدس الذي يجيل إلينا أن بينه وبين سوفوكليس قروناً . ولكن الزمن لا يقاض بالسنين بل بما فيه من أحداث . ولقد كانت الحياة الفكرية

في ذلك الحين مستمرة التقدم ، ويتقدمها أخذت الأخلاق تنحل ، حتى رأينا رجلا كألسياد الزعيم الآتينى الشهير لا يتحرج أن ينضم إلى الأعداء ضد وطنه مرة ومرة ، ما دام يرى في ذلك تحقيقاً لمطامحه المرفقة .

أوليس سوفكليس يمثل مرحلة في تاريخ اليونان . وهو مهما كانت عيوبه لم يصل بعد إلى ما نراه في تاريخهم المتأخر عندما يفتتح بهم الأمر إلى السقوط في يد المقدونيين ثم الرومان ومن تبهمهم ، إذ ظلوا مستعبدين ولم يستطيعوا استرداد استقلالهم إلا أخيراً في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ولكن أوليس لم يفن بفنائهم ، بل ظل خلافاً يوحى إلى الشعراء والكتاب شقى الممانى ، وذلك لأنه وليد المبقرية ، وهذه لا سلطان للزمن عليها .

(٤)

في الآداب الحديثة

لم يمض أوليس بموت الشعب اليونانى وسقوطه في قبضة الاستعمار قروناً طويلة . فأوليس كما قلنا من خلق المبقرية ، وهذه لا سلطان للبشر عليها بل ولا للزمن ، فقد عادت الإنسانية أيام البعث الملى تنقب عن ذلك التراث الجليل الذى لم يكن من الممكن أن تلمس الأيام معالاه إلى غير رجعة .

عادت الإنسانية إلى تراث اليونان تماود فيه البصر التماساً لوحى جديد ، وكان أوليس ممن استوقف الناظرين ، وذلك لما اجتمعت إليه من صفات وتركزت فيه من رموز . فهو لم يكن أعوزج الشعب الإغريق في صراحه التاريخية المختلفة فحسب ، بل أعوزجاً بشرياً فيه الكثير من نواحيها الإنسانية التى يمتلكها أو نود أن يمتلكها : فيه الحنين إلى الوطن والاهلة إلى العودة إليه مهما كان في ذلك من مخاطرات ، فيه روح المناصرة التى تدفعنا إلى الضرب فى الأرض والبحار لنفيد تجارب ونترى بما نشاهد من صور . فيه حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة التى لا تسدل بالثهم شيئاً ولا يرداه عن ذلك شيء . فيه كل هذا وفوق هذا من الممانى التى ما زلنا نحرص عليها أو نقف دونها .

أوليس شخصية غنية . نظرها كل شاعر وكاتب فوجد ما يريد . فدانتى يأبى إلا أن يعدثنا عما صار إليه بطلنا من مصير وهو يبيننا أنه قد لقيه في « الحميم » وتسقط حديثه فإذا به يقول : عند ما طردت سيرسنيه التى احتفظت بى مخبئاً أكثر من عام لم تستطع صورة

والى العزى ولا يرى بالى الشيخ بل ولا الحب الذى كان مصدر سعادة لينلوي . لم يستطع شيء من كل هذا أن يهزم فى نفسى الالهة إلى معرفة العالم . لقد رأيت كل الشواطىء ، حتى إسبانيا وصرا كش وجزيرة سردينيا وغيرها من الجزر التى يطلها البحر . لقد كنت أتا ورفاق شيوخا مثقلين عندما وصلنا إلى ذلك المضيق الضيق الذى وضع هرقل عنده الحدود لينذر الرجال أن لا يعدوه . وكنت قد خلفت أشييلة عن عيني وكانت سبتا قد خلفتني عن اليسار . عندئذ قلت : أيها الإخوان الذين وصلوا إلى المغرب خلال آلاف المخاطر ! اتبعوا الشمس ولا تحجموا عن النفاذ ، بما بقى لكم من حواس ، إلى ذلك العالم الذى لا يسكنه أحد والذى تولى الشمس عنا لتضيئه . أذكروا من أنتم ، أذكروا أنكم لم تولوا لتعيشوا كالابواب بل لتعيشوا عن الفضيلة والمعرفة . بهذه الأقوال الموجزة أثرت رفاقى ليستمروا فى طريقهم حتى لقد وجدت بعد ذلك مشقة فى أن أتتهم . أدركنا مؤخر السفينة نحو الشرق واتخذنا من الجاديف أجنحة نعلير بها فى جنون متجهين باستمرار نحو اليسار ، ووصلنا إلى حيث أصبحت أرى فى الليل نجوم القطب الآخر كلها . وأما قطبنا فكان من المهبوط بحيث لا يرتفع فوق أمواج البحر . وأشعل القمر قبسه خمس مرات وأطفأه خمس مرات منذ دخلنا إلى جوف البحر ، وإذا يجبل يظهر ممبا لبسدا عنه ، وإن لاح لى أعلى من كل ما رأيت من جبال ، ففرحنا ، ولكن فرحنا لم يلبث أن انقلب دموعا ، إذ أتتنا « دوامة » من الأرض الجليدية صدمت مقدم السفينة ودارت بها مع اللوح ثلاث دورات وفى الرابعة رفعت مؤخرها إلى أعلا وغرست مقدمها إلى أسفل ، وظلنا هكذا إلى أن اجتمعنا البحر .

هذا هو المصير الذى تصوره دانتي لأوليس ، ودانتي من رجال البعث الذين لم يكونوا يمدلون بالمعرفة شيئا . فلا غرابة إذن فى أن نراه ينتهى بأوليس إلى هذا الموت المجيد ، وقد هفت نفسه إلى استطلاع ما خلف مغرب الشمس من عوالم ، وعجزت كل روابطة بذويه عن أن تنثني عن السير للبحث عن تلك المعرفة .

وأما الشاعر الفرنسى الرقيق دى بللى Du Bellay أحد كبار شعراء فرنسا فى القرن السادس عشر فلم ير فى أوليس إلا رمزا لمن يسعد الحظ فيقوم برحلة جميلة فيفيد منها تجارب وحكمة ثم يعود إلى أهله فرحا راضيا . أوليس عنده حنين إلى الوطن . ولقد كان شاعرنا ملتحقا بالسلك السياسى بروما ، وهو من مقاطعة « أنجو » الجميلة بفرنسا ، ولهذا المقاطعة شهرة واسعة لا نعرف لها سيبا خاصا اللهم إلا أن تكون أشعار دى بللى هى التى خلقت حولها ذلك الجو الشعرى الجميل . قال الشاعر وقد برحت به الغربة :

« سعيد من يقوم برحلة جميلة كأوليس ، أو كذلك الذى استولى على الجزة الذهبية (يقصد جازون) ، ثم يعود ليمش بين أهله بقية حياته وقد امتلأ خبرة وحكمة .

وأسفاه ! متى سأعود إلى رؤية مدفأة قريتنا الصغيرة ترسل دخلها . فى أى فصل سأعود إلى رؤية حديقة منزلنا المسكين الذى يعدل عندى مقاطعة بأكلها بل أكثر من ذلك المأزى الذى بناه أجدادى أحلى عندى من قصور الرومان الجسورة الجباه . أردواز ستوقفتنا المرهف أحلى من الرخام الصلب .

« لواركا » — نهر الغال — أحلى من « التير » اللاتينى . « أليريه » الصغير أجمل من جبل « ألبتان » وعذوبة « أنجو » أرق من هواء البحر .

وفى إنجلترا فى القرن التاسع عشر مثل أوليس عند الشاعر الذائع الصيت الفريد تنيسون روح الناصرة وزاء البحار . وتلك صفة يشارك فيها الإنجليز الشعب اليونانى القديم . باي شتات يتحدث عن هذا البطل الذى لم يمد يطيع البقاء قابلاً بمقداره وقد ملها بعد المؤدة إليها . قال الشاعر فى قصيدته الرائعة « أوليس » :

« فم البقاء بتلك التيار الهامدة بين عارى الصخور الى جوار زوج عجوز . ملك عاقل يقيم عدلاً موتوراً بين قوم جفاة لا م لهم إلا حيازة المال وملء البطون والقط فى النوم . إلى غريب عنهم ولا يدلى من الرحيل .

لكم أمنت فى السررات وأمنت فى الأحزان . أنفرد بها حيناً وأشرك من أحببت حيناً وقد استوى فى ذلك أرض وم ما أرسيت إلى شاطئ أو أثرت زبداء تغطى به عرائس اليم الباكية ظلمة البحار .

لقد أصبحت إسماً يذكر ، وجبت الآفاق بقلب نهم ، فرأيت الكثير وفهمت الكثير : مدناً أكهة وعادات وأجواء ومجالس وحكومات . رأيت نفسى وفهمت نفسى غير متخلفة وقد انقعد لها احترام الجميع .

لكم جرعت من نشوة المارك إلى جوار أندادى بسهول طروادة ، حيث تقصف الرياح وتترد الأصدا ، وقد خلفت بعضاً من نفسى بكل ما لقيت . لكنّها الحياة ، قباب ممتدة لمج خلالها بقاعاً فسيحة لم نجها ، وآفاقها أبداً مترامية كلما حاولنا منها دنوا . ما أقبح أن تقف . ما أقبح أن تنتهى ، والسيف يصدده التمد ويجلوه الطمن ، وما الحياة بأنفاس ترددها . ما أقل أن تجتمع حياة إلى حياة ، فكيف بى وما لى غير واحدة نفدت فلم يبق لى منها إلا القليل ، ولكننى استنقذتها من الصمت الأبلى ساعة فساعة فأثرى وأفيد جديداً . ما أقبح

أن تحتبس النفس أعواماً وقد هربت تلهبها الرغبة في التماس المعرفة كما يلتبس نجم يهوى خلف ما تمتد إليه عقول البشر . ها هو ولدى تلك . سأترك له جزيرتي ووصولاني وقد حبوته عجبتي ، وعهدى به بصيراً بالحكم ، قادراً على أن يروض بحكمته نباح هذا الشعب العنيف ، وأن يحمله بلا رفق على القفلة إلى ما فيه الخير والنفع . وما به من عيب . وأنه لآخذ نفسه بالترام واجبه . وأنه لأعف من أن يوق فروض المحبة أو أن يترأخى في تبجيل آلهتنا عندما تشتط بنا النوى . ليكن له هذا ، وليكن لى ما خلقت له .

ها هو الرقا . ها هي السفن تنشر الرياح قلاعها . ها هي البحار الشاسعة للظلمة يتم ضياؤها ، وأنتم رفاق اليم ! كم جهدتم وكم فكرتم إلى جوارى والابتسام لا تنادى شفاهاكم ، ثارت عاصفة أو أشرقت شمس ، تلقونها جميعاً بقلب طليق . لقد تقدمت لي وبكم السنون ، ولكن للكبر عجده وجدته إلى أن يختم الموت الحياة . وما تزال لدينا بجلال من الأمور تليق برجال مثلنا نازلوا الآلهة .

ها هي الأضواء تنبث من أعلى الصنوخ ، وها هو النهار ينصرم وقد أخذ القمر يسمو بالأفق وأعماق البحار تنم متعددة الأنعام . هيا أيها الرفاق ، فما زال لدينا متسع للبحث عن عوالم جديدة . ادفعوا السفن . استقروا بأمكنتكم والظمووا المسابح الصاخبة . ولكن غايقتنا إلى ما خلف مهد الشمس ومسارب نجوم القرب ، حتى يقضى الله فينا قضاءه ، فإما ابتلعتنا صهاوى اليم ، ولما أرسينا بجزر الخيرات ، حيث ترى بطلنا أخيل ، كما عهدناه . لأن كان قد فنى منا الكثير قد بقى الكثير ، وما زلنا كما كنا ، وإن لم نعد في تلك القوة التي اهتزت لها الأرض والسماء . ما زالت قلوبنا عاصفة بالبطولة الصادقة المدن . ثم لقد أضعفنا الزمن وإزادة القضاء ، ولكننا لا تزال أقوياء لنكسج ونجد ونجد ونأى المخطوع .

وهذا هو أوليس المكافح الصاب المود . يناصر رغم شيخوخته وكله ثقة وتحرق إلى المجهول ، فإما النصر والسيطرة على الوجود ، وإما الفناء وسط الجهاد . وتلك صفات نجدها عن الإنجليز الذين استطاعوا أن يثبتوا لصدمات الدهر .

وكرت السنون وإذا بنا ترى أوليس آخر في القرن العشرين . هو أوليس الكاتب الإنجليزى المعاصر جيمس جويس James Joyce الذى أنفق جانباً كبيراً من حياته يبارس ، تلك المدينة الصاخبة المتمدة مظاهر النشاط الإنسانى ، ساميه وحقيقه . ولقد نفذ جويس إلى كل ما يجرى فيها من مجد وإسفاف ، وود لو سجل خلاصة تجاربه العديدة فلم يجد غير أوليس رمزاً لتلك الحياة الخافتة . فكاتب ما يقرب من ثمانمائة صفحة يقص فيها مفاخرات

بطله الذى لم يترك شيئاً إلا فعله ولا وسطاً إلا تغافل فيه ، فهو رمز المعرفة الشاملة . تلك التى لا تسدل بالتجربة شيئاً ولا تردّها عنها مبادئ خلق أو مواضع اجتماعية . إن فى أوليس جويس ما لا يجزئ الرء أن يعترف به حتى بينه وبين نفسه ، وتلك بلا ريب مقدرة قد محمد للكتاب ، ولكنتنا فى الحق لا نكاد نعلم إلى تقع زراه فيها أو ضرورة ملجئة إليها ، فعلى لا تريدنا معرفة إلا بالجانب المظلم من نواحى الإنسان ونحن فى حاجة إلى ضياء . وفى الحق إننا لا ندرى كيف تطور أوليس حتى انتهى إلى جويس ، وإن يكن فى عشرات القرون التى عبرها ما قد يميننا على الفهم وبخاصة إذا ذكرنا ذلك التطور الواضح الذى تطوره الأخلاق فى القرن العشرين .

والذى لا شك فيه هو أن أوليس اليونان لم يعد كما قلنا أنموذجاً بشرياً بل مجموعة من الرموز يأخذ منها الشعراء والكتاب ، كل ما يحلو له للمبارة عما فى نفسه من إحساس أو فى عقله من فكر ، ونحن مع ذلك ننظر فى كل ما خلق المحدثون فى هذا فلا نجد أن أحداً منهم قد أضاف إلى البطل قسمة جديدة ، وإنما هى سمات من الصورة التى رسمها له الإغريق القدماء وبخاصة هوميروس فجاءت كاملة منذ أن خلقت .

لقد رأينا أوليس فى الإلياذة يمثل الشجاعة والحكمة ، ورأيناه فى الأودسا وقد أخذت الحكمة تسيطر فى نفسه شيئاً فشيئاً على الشجاعة ، ورأيناه عند سوفكليس وقد صار خبيثاً وذلك مدمراً ، وكان هذا نذيراً بفنائه وفناء الشعب الذى يمثل .

ومرت القرون فماد أوليس إلى الظهور ، وإذا علاجه تعود فتضع بفضل أقلام جديدة . أهو البعث ؟ أهو خلق جديد ؟ ذلك ما لا يميننا الآن ؟ وإنما أردنا أن ندل بمثل ناطق على ما فى تراث اليونان من خصب وقدرة على الإبداع . قدرة لا يمكن أن تنفد ، لأنها من قدرة الحياة التى أمسكت بها عبقرتهم فسجنتها فى صور ونماذج لن تقى . وفى هذا ما يفسر حرص الدول الأوروبية على الثقافات اليونانية واللاتينية واعتبارها الوسائل الأولى فى تربية الشباب وذلك على الرغم من أن معظم المؤلفات التى كتبت بهاتين اللغتين قد ترجمت إلى جميع اللغات الحية أكثر من مرة . ودراسة تلك اللغات فى ذاتها رياضة عقلية لا مثيل لها ، كما أن الكتب التى ألقت فيها يرجع جانب كبير من قيمتها إلى جمال صياغتها ، ومن الثابت أن أية ترجمة لا يمكن أن تحفظ بهذا الجمال .

العبيط

(١)

مع ماري والأطفال

لقد قص ديستوفسكي الكاتب الروسي الشهير أحداثاً كثيرة وقعت لأمر روسي هو موتشكين Muichkine الذي وصفه الكاتب لأمر سنراه فيما بعد بالعبيط ، وأودع تلك الأحداث رواية تقع فيما يقرب من ألف صفحة بعنوان « العبيط »^(١) .

ونحن لا نزيد اليوم أن نزلق إلى مناقشات فلسفية حول العبيط ، فمن الناس من يدعى الحكمة ، وما أكثر اللعawy ، فيرى في تصرفات هذا الرجل لا عبطاً فحسب ، بل واختلالاً في الإدراك ؛ ومنهم من لم يزل يسلط عقله على عقله يتبين حدوده ويناقش مقدرة على الجزم عن يقين حتى أصبح يرى في ضوئه ذاته شيئاً من الاضطراب يكاد يحيله ضوءاً كاذباً ، إن لم يكن ظلمة ، ولهذا يحذر أن يصف غيره بالعبيط ، فلربما كان هو العبيط .

الأمر موتشكين في السابعة والعشرين من عمره الآن ، فهو إذن رجل بحكم سنه ، ولكنه مع ذلك يستريح إلى معاينة الأطفال ، ويضيق بالأشخاص الكبار ، لأنه إذا وُجِدَ معهم لا يدرى ماذا يقول لهم . وهذا أمر غريب يدعونا إلى أن نرى في الرجل شذوذاً ؛ ونبحث في نشأته محاولين الكشف عن ذلك الشذوذ فلا نهتدي إلى شيء كثير ؛ فالرجل قدماء أبوه وهو في سن مبكرة ، فتمهده صديق خبير من أصدقاء والده . وكل ما لاح عليه من أمارات غير عادية لا يمدو مرض التشنج العصبي . ونحن لا نستطيع أن نقرر أن هذا المرض يؤدي إلى العبيط ، فقد كان ديستوفسكي نفسه مريضاً به ، وقد مرض به أيضاً فلوير الكاتب الفرنسي الكبير ، كما مرض به غيرها ممن لا يبرؤ أحد من عقلائنا أن يصقهم بالعبيط .

وفي الحق أننا لا نرى داعياً للبحث عن تحليل حكم لم تثق بعد من صحته ، فوتشكين لم يكن عبيطاً ، بل ربما كان في وصفه بهذه الصفة أكبر سخرية استطاعها ديستوفسكي من عقاية البشر . يجيل إلينا أن هذا الكاتب العبقري لم يكن يظن العبيط بأمره ، بل بنا نحن .

وها هي قصة هذا السبيط مع ماري والأطفال توضح سوء ظن المؤلف باللايين الذين قرأوا روايته . ستقرأوها فلا تملك إلا أن تدهش لقدرة هذا السبيط على فهم جوانب الضعف في النفس البشرية ، وإذا بك تتور على ما في طبائع الناس من شر أصيل ، وقد أخذت بنبل الرجل ونفاذ حسه .

من المعلوم أنه عند ما اشتد بموتشكين المرض أرسله القائم على تربيته إلى طبيب بسويسرا ليعالجه بمصحته ، ولقد وجد المريض في جو سويسرا مساعداً على الشفاء ، فأقام هناك أربع سنوات ، دفع مربيته في السنتين الأوليين أجر علاجه وإقامته ؛ ثم مات هذا المحسن الكبير فلم يبق للأمر معيل ، ومع ذلك فقد أمسكه الطبيب الكريم سنتين أخريين ، ولكن السبيط ضاق بالإقامة وقد انقطع عنه كل مدد من روسيا ، فقرر العودة إلى بترسبورج لياتمس له عملاً يعيش به . وتذكر عبيطنا أن أسرته العريقة قد بقيت منها أميرة هي الآن زوجة لجنرال بالجيش ، فقرر أن ينزل بدارها ليتعرف إليها وإلى زوجها ، ثم ينظر ماذا هو فاعل .

نزل العبيط عند الجنرال إپانتشين Epantchine ، واستطاع أن يحمل مضيغه على أن يقدمه إلى الأميرة . وغادر الجنرال المنزل لأمر يشغله ، فلم يتناول وجبة الغذاء مع أسرته ، وظل الضيف مع الأميرة وبناتها الثلاث ، وتناولوا الغذاء سوياً ، ثم جلسوا للحديث ؛ وأبى حب الاستطلاع الأصيل في النساء إلا أن يسوق الضيف إلى قصص حياته في الخارج ، وأربمتن يحسن به الببط ، إذ كان الجنرال قد بصّرهن بهذه الحقيقة قبل أن يفادر المنزل ، وإن يكن حديث الضيف لم يلبث أن زعزع عند بعضهن هذا اليقين ، وقد كان من بينهن من تمتع بملكه الحكم الشخصي .

قصة السبيط مع ماري والأطفال كانت من بين ما قص بطلنا في ذلك اليوم ، فقد وقعت له أحداثها بالقرية السويسرية حيث كانت المصحة التي أقام بها .

قال : « في أول الأمر لم يكن الأطفال يحبوني . لقد رأوني كبيراً وقد كنت دائماً قليل (الاحلحة) ، ثم إنني أعلم أني دميم ، وأخيراً باعد بيني وبينهم أنني كنت أجنبيّاً في قريتهم . لقد كانوا في البدء يتضاحكون مني ، بل أخذوا يرموني بالحجارة عندما فاجأوني أقبّل ماري ، لأنني لم أقبلها غير مرة واحدة ... لا ، لا تضحك ، فإن الحب لم يكن له دخل في الموضوع . ولو أنك رأيت هذه الخلقة البائسة بأفْسكن لأخذتكن بها الشفقة كما أخذتني . كانت فتاة من القرية تسكن مع أمها كوخاً صغيراً تضئته نافذتان ، وكانت الأم العجوز تبيع أربطة الأحذية والغليط والتبغ والصابون ، ويأذن من السلطات كانت تعرض بضاعتها على لوح من

الخشب مثبت أمام إحدى النافذتين . وكانت هذه التجارة تأتيها بقليل من النقود الصغيرة تمشي بها ؛ وكانت مريضة متورمة الأرجل ، مما اضطرها إلى أن تظل جالسة ؛ وكانت ماري في الشرب من عمرها ، نحيفة ضعيفة البنية ، وإن لم يكن مرض السل قد ظهر عندها ، إلا أنها بالرغم من ذلك كانت تعمل باليومية في المنازل ، حيث تقوم بالأعمال الخشنة : فتمسح البلاط ، وتغسل الملابس ، وتكنس الأحواش ، وتقدم للحوانات علفها .. وفي أحد الأيام أغواها قومسينجي فرنسي وأخذها معه ، ولكنه بعد أسبوع واحد غرمها حيث انتهى به السير ثم ولى ؛ فوجدت نفسها وحيدة بمرض الطريق ، فمادت إلى قريبها وهي تستجدي طول رحلتها ، ووصلت فترة مهلهلة الأسماك ، ممزقة الحذاء تزيقاً تاماً . لقد سارت ثمانية أيام : تمام في المراء ، وهامى لقعة البرد ؛ لقد دميت قدميها ، وتقطعت يداها بالشف والشقوق . وهي حتى قبل ذلك لم تكن جميلة ، لم يكن لها غير عينين وديمتين تملؤها الطيبة والبراءة . لقد كان صمتها خارقاً ، فقد اتفق مرة — قبل أن تحدث لها تلك الحادثة — أن أخذت تنفي لجأة ، وهي تعمل ، فأحدث هذا الفناء في أذكر دهشة عامة ، « لقد غنت ماري ... آه ... ماري تنفي ! » ، هكذا قال الناس وهم يضحكون ، وخجلت ماري منذ ذلك الحين ، فانطوت في صمت عنيد . وكانوا يماولونها عندئذ بشيء من العطف ، ولكنها عندما مرضت وأخذت أطرافها تدي لم يظهر لها أحد أقل شفقة . ما أغلظ الناس في مثل هذه الحالة ! بأي قسوة يحكمون على هذه الأشياء ؟ ! وكان أولهم في ذلك الأم المجوز ، فقد تلقت بنها في غضب واحتقار . « الآن قد لومت شرفي » ، هذا ما قالت ؛ ثم كانت أسبق الجميع في تريض ابنتها لسباب الجمهور . وعند ما علموا في القرية بعودة ماري أسرعوا جميعاً شيوخاً وأطفالاً ونساء وفتيات ليروها . لقد غزا السكان جميعاً كوخ المجوز ، وهناك كانت ترقد ماري على الأرض عند قدمي أمها باكية وهي تموت جوعاً ولا تغطيها غير الأسماك ، وبينما يتقاطر الزائرون كانت تحاول أن تحتفي عن أبصارهم بأن تتخذ من شعرها المنتشر نقاباً يغطي وجهها ، ثم تظاير رأسها إلى الأرض . لقد تلف الجمهور حولها في دائرة وأخذوا ينظرون إليها كحشرة ؛ فالشيوخ يمنفونها تنفيلاً لاهوادة فيه ، والشبان يكشرون لها عن ألبابهم ، والنساء يكنن لها السباب ، وقد أظهرن من الاستمزاز مثل ما يظهرن عندما يرين عنكبوتاً ، والأم جالسة في حجرتها تشجهم بالصوت والإشارة ، بدلا من أن تردعن ابنتها شيئاً من عدوانهم . ولقد كانت في ذلك الحين شديدة المرض ، في حالة احتضار تقريباً . وفي الواقع لقد ماتت بعد ذلك بشهرين ، ومع ذلك فإنها رغم إحسانها

بقرب أجلها قد رفضت إلى آخر لحظة أن تتصافى مع ابنتها . إنها لم تخاطبها قط بكلمة واحدة ، وكانت ترسلها إلى الدهليز لتنام به ، بل تركتها بنير غذاء تقريباً ؛ ولقد كانت مضطرة إلى أن تضع مراراً قدميها الرقيصتين في الماء الساخن ، فكانت ماري تفلسهما لها ، وتقدم إليهما كل أنواع الرعاية ، فتقبلها المعجوز دون أن تقابلها بأية عبارة رقيقة . ولقد كانت الفتاة تتحمل كل ذلك في استسلام .

وعند ما تعرفت إليها فيما بعد ، لاحظت أنها نفسها كانت تبرر كل ما ينزل بها من إهانات إذ كانت تعتبر نفسها أخطأ كائنات الأرض . ولم تمد المعجوز تناول غير اللبن ، فأخذ نساء القرية يفدن إليها ليتناولن رعايتها وفقاً للعادات المريعة بالريف . وعندئذ أمسكوا إطلاقاً عن إطعام ماري ، فكان كل الريفيين ينحونها عن مداخل منازلهم ، بل إن أحداً منهم لم يقبل أن يبعد إليها بعمل ما كما كانوا يفعلون من قبل . لقد كان كل واحد منهم يلقاها ببصقة تقريباً ، فالرجال لم يعودوا ينظرون إليها كأمراء ، وكانوا يوجهون إليها أقذع الألفاظ ، وأحياناً ، وفي النادر الذي لا يذكر ، كانوا إذا أخذهم الخُمار يوم الأحد يرمون إليها بقليل من النقود سخيرة منها ، وكانت ماري تجمعها في صمت . ثم أخذت منذ ذلك الحين تبصق الدم ، وانتهت أفعالها بأن أصبحت من القذارة بحيث لم تعد تجرؤ أن تظهر بالقرية . ومنذ عودتها كانت تسير عارية القدمين ، وكان أطفال المدرسة ، وهم أكثر من أربعين ، يحولهم بنوع خاص أن يؤذوها ويرموها بالطين . وطلبت إلى أحد الفلاحين أن يسمح لها بحراسة البقر ولكنه رفض ، فألحقت هي نفسها بهذا العمل ، فكانت تصحب المواشي عند خروجها من الحظيرة ولا تتركها طول النهار . ورأى الفلاح أنها تؤدي إليه خدمات عديدة فلم يطردها ، بل كان يعطيها أحياناً بعضاً من فضلات غذائه : قليلاً من الخبز والخبز . ولقد رأى في عمله هذا طيبة كبيرة منه . وعند ما ماتت الأم لم ينجح القسيس أن يلعن ماري على مسمع من الجميع في وسط الكنيسة ، وأما هي فقد كانت بأسمائها القنطرة راحة إلى جوار التابوت وهي تبكي ، وكان حب الاستطلاع قد أتى بكثير من الناس إلى الجنازة ؛ كانوا يريدون أن يروا كيف تبكي الفتاة ، وكيف تسير خلف التابوت . وكان القسيس — الذي لا يزال شاباً — لا يطمع إلا إلى أن يكون واعظاً كبيراً ، فأجبه إلى الجمهور ، وأشار إلى ماري ثم قال : « ها هي تلك التي سببت موت هذه السيدة الجليلة » ، (هذا غير صحيح ، فقد كانت المعجوز مريضة منذ سنتين) ، « ها هي أمامكم وهي لا تجسر أن ترفع عينها ، لأنها قد وسعت بأصبع الله ... ها هي طرية القدمين منطاة بالأشمال ؛ مثلاً يتمظ به كل أولئك اللاتي قد يفرهن سوء

السلوك . . . ومن هي ؟ . . . إنها ابنتها . . . الخ » .

ولنتصور أن هذا الجين قد سر جميع الحاضرين ؛ ولكن . . . حدث عندئذ حدث .
 فقد أخذ الأطفال جانب البائسة ؛ وذلك لأنهم كانوا قد انضموا إلى « وابتدأوا يحبون ماري ،
 وما هو تفصيل ما حدث :

لقد أردت أن أسدى إلى الفتاة بمض المون ؛ فقد كانت في حاجة إلى النقود ، ولكنني
 طول إقامتي بسويسرا لم أكن أملك درهما واحداً تحت تصرفي . وكان عندي دوس من
 اللباس قيمته لأحد التجار الذين يذهبون من قرية إلى أخرى للتجار في الملابس القديمة ؛ ولقد
 أعطاني ثمنها ثمانية فرنكات ، مع أنه كان يساوي أربعين بلارب . ولزمن طويل لم أستطع
 أن أصل إلى حديث خاص مع ماري . وفي النهاية تقابلنا خارج القرية في إحدى طرق الجبل
 خلف شجرة ، وهناك أعطيتها الثمانية فرنكات ، وأوصيتها أن تحرص عليها ، لأنني لن
 أستطيع في المستقبل أن أسدها بمون آخر . ثم قبلتها قائلاً : لا تقلى بي أي قصد سيئ ،
 فإذا كنت قد قبلتلك فليس ذلك لأنني مفرم بك ، ولكن لأنك توحين إلى « بشقة عميقة ؛
 وفي الواقع لقد رأيت فيك دائماً ومنذ البدء فتاة بائسة لا فتاة مجرمة .

لقد أردت في حرارة أن أعزّيها وأن أقنعها بأنها كانت على خطأ في أن تعتبر نفسها دون
 الآخرين ، ولكنني لم ألبث أن أدركت أنها لا تفهم قولي ، أدركت هذا من موقعها ، وذلك
 لأنها لم تفه بكلمة واحدة تقريباً ، بل ظلت طول الوقت واقفة أمامي مسدلة جفونها كشخص
 يتقله الغم . وعند ما انتهيت قبلت يدي ، فأمسكت يدي ، وأردت أن أقبلها ،
 ولكنها سحبتها للحظها . وبغاة لاحظنا الأطفال وقد اجتمعت هناك جماعتهم ، ولقد عرفت
 فيما بعد أنهم كانوا يرصدون حركاتي منذ حين ، وأخذوا يضحكون ويصفرون ويضربون
 أيديهم يداً على يد . فأسرعت ماري إلى الهرب ؛ وفي نفس اليوم علمت القرية كلها بالخبر ،
 فزاد سوء الظن بماري ، وتكالب الاعتداء ، بل لقد سمعت أنهم قد فكروا في عقابها ،
 ولكن بفضل من الله لم يحدث من ذلك شيء ؛ ومع هذا فإن الأطفال لم يتركوا لفرستهم
 راحة ، بل ضاعفوا من عداوتهم لها ، وأخذوا بطاردونها ويقذفونها بالطين . وكانت المسكينة
 عند ما تحس بهم في أعقابها تجري ، وهي السلولة ، حتى تنقطع أنفاسها ، لكي تفلت من
 أذاهم ، وهم يتدنون من خلفها صائحين بالشتائم . ولقد حدث ذات يوم أن كدت أشتبك
 معهم . وفيما بعد أخذت أردم إلى العقل ، فكنت أتحدث إليهم كل يوم كلما استطعت ذلك .
 ولقد كانوا يقفون أحياناً ويستمعون إلي ، ولكنهم استمروا رغم ذلك في إيذاءهم لماري .

وشرحت لهم كيف أنها بائسة ، فأنهوا بأن أمسكوا عن شتمها ، وأخذوا يمرون بها دون أن يقولوا لها شيئاً . وبالتدريج أخذت أحداث معهم أحداث طويلاً ، ولم أكنم عنهم شيئاً ، بل قصصت عليهم كل شيء . وكانوا ينصتون إلى باهتمام ، ولم يلبثوا أن أخذتهم الشفقة على الفتاة ، فأصبح الكثيرون منهم يحبونني بحمة عابرة إذا مروا بها .

يخيل إلى أن ماري قد دهشت لهذا التغير في معاملتهم لها . ولقد حدث مرة أن بنتين صغيرتين حملتا إليها شيئاً من طعامهما ، ثم حضرتا ليخبراني بما فعلتا ؛ قالتا : إن ماري قد بكت ، وإنهما قد أصبحتا الآن محباتنا كثيراً . ولم يلبث جميع الأطفال أن أحبوها ، كما شعروا بنحوى أيضاً بحجة غائبة ، فكانوا كثيراً ما يأتون إلى ويطلبون دائماً أن أقص عليهم شيئاً ، ولا بد أنني كنت أجيد القصص لأنهم كانوا يحرصون على حكاياتي . ولقد أخذت نفسي بعد ذلك بالقراءة والدرس لا لشيء غير أن أحل إليهم ما أجد في الكتب . ولقد استمرت على هذه الحال طوال الثلاث سنوات التالية . وعند ما أخذ الطبيب وغيره من الناس يلوموني لأنني أتحدث إلى الأطفال كأنهم رجال فاضجون ، ولا أكنم عنهم شيئاً ، أجبته بأنه من العار أن نكذبهم ، وأضفت أنهم مهما اتخذوا من احتياطات لن يمنحوا الأطفال من أن يعرفوا دائماً ما يريدون هم أن يظنوا جاهلين به ؛ بل إنهم سيعرفونه على نحو يدنس خيالهم ، بينما هم لن يترضوا مني لهذا الخطر ، وما على كل منا إلا أن يعود إلى ذكريات طفولته ليتحقق من صحة ما أقول . ولكن هذا الرأي لم يقنع أحداً . . .

لقد كانت قبلي لماري قبل وفاة أمها بخمسة عشر يوماً ، وعندما أتى القسيس موعظته كان جميع الأطفال في جانبي ، فأخبرتهم بالمحجوم المحزى الذي سمح القسيس لنفسه به ، ووصفت هذا المحجوم بما يستحق من ألقاظ ، فثاروا جميعاً ، وبلغ الغضب بالكثيرين منهم أن حطموا بالحجارة نوافذ القسيس ، ولقد أفهمتهم أنهم مخطئون في تصرفهم هذا ؛ ومع ذلك فقد ذاع في القرية أنني كنت المحرض لهم على هذا العمل . ومنذ ذلك اليوم اتهمني الجميع بإفساد أخلاق تلاميذ المدارس . واكتشف الجميع بعد ذلك أن هؤلاء الأطفال يحبون ماري ، فسبب هذا الاكتشاف قلقاً بالغاً ، ولكن الفتاة كانت سعيدة . وحاول الآباء عيشاً أن يحفظوا على أطفالهم غناطها ؛ ولكنهم كانوا يذهبون سرّاً للقائها ، حيث ترعى البقر في مكان بعيد بما يقرب من نصف فرسخ عن القرية . وكانوا يحملون لها الهدايا ، بل إن الكثيرين منهم كانوا يذهبون ليضموها فقط إلى صدورهم ويقبلوها قائلين : ماري ! إني أحبك ! ثم يعودون مسرعين إلى بيوتهم وهم يعدون ملء أرجلهم . ولا شك أن سعادة

كهذه كانت خليفة أن تذهب بصواب ماري ، فهي لم تكن تتصور هذا حتى في الأحلام . ولقد أحسّت بمزيج من الفرح والاضطراب . وكان الأطفال وبخاصة البنات يحرسون على النهاب إليها ليخبروها أتى أحبها ، وأنتى آتحت عنها كثيراً . وقالوا لها : لقد قص علينا قصتك ، والآن نحن نحبك ونزى لك ، وسنستمر كذلك دائماً . ثم يسرعون إلى بأوجهم الصغيرة المرحه ليخبروني في اهتمام شديد أنهم قد رأوا ماري ، وأنها ترسل إلى نحياتها .

وفي المساء كنت أذهب إلى الشلال ، وهناك كان يوجد مكان مغلق عن القرية إغلاقاتاً تاماً ، وشجر السرو يحيطه من جميع النواحي . في ذلك المكان كنت أستقبل الأطفال في المساء ، بل إن الكثيرين منهم كان يأتي سرا ؛ وأنا أعتقد أنهم قد وجدوا سروراً كبيراً في حي ماري ، وهذه هي المسألة الوحيدة التي كذبهم فيها طول إقامتي بينهم . لقد تركهم يعتقدون أنني مغرم بماري ، وإن كنت لم أشعر بنحوها بنير الشفقة ، ولكنني عندما رأيت أنهم ينسبون إلي إحساساً آخر ، وأن هذه الفكرة تسرم ، حرصت على ألا أكذب ظنهم ، وتظاهرت بأنهم قد كشفوا دخيلة نفسي . أى طيبة لطيفة في هذه القلوب الصغيرة ! ولا أكتف في ذلك بمثل واحد : فقد عزم عليهم أن يروا صديقهم ليون يجب ماري ، ومارى رثة الثياب ، بل ويموزها الحذاء ؟ تصوّر أنهم حصلوا لها على حذاء وجورب وملابس داخلية ، بل وبعض الثياب . كيف ؟ وبأى حيل عبقريّة نجحوا في الحصول على كل هذا ؟ ذلك ما لا أنهمه ! ولكن المدرسة كلها قد اشتركت في هذا العمل . وعند ماسألتهم عن الموضوع كان الجواب الوحيد ضحكة مرحة ؛ وقد أخذت البنات الصغيرات يضربن أيديهن يداً فوق يد ويقبلنني . وأحياناً كنت أذهب لرؤية ماري خفية .

ثم اشتد بها المرض ، فأصبحت قهرياً عاجزة عن المشي ؛ وأخيراً انقطعت عن العمل بالمزرعة انقطاعاً تاماً ، ولكنها استمرت تهود المواشي إلى الحقل كل صباح . هناك كانت تستند إلى صخرة عموية على الأرض ، وتظل كذلك بلا حراك حتى يحين موعد العودة بالبقر إلى الحظيرة . وأنها السلس ، واهبطت أنفاسها ؛ فكانت تظل يومها كله في حالة تشبه النوم ، مغلفة العينين ، مسندة رأسها إلى الصخرة ، وكان وجهها شاحباً كاللينة اليتية ، والعرق يبلل جبينها وعارضها . كنت أجدّها دائماً في هذه الحالة ، ولم أكن أتى إلا لبرهة قصيرة ، لأنني أيضاً لم أكن أريد أن أرى . وبمجرد ظهوري كانت ماري تنتفض فتفتح عينها وتسرع إلى تقبيل يدي ؛ وكنت أتركها تفعل ذلك لأنها كانت تجد فيها سعادتها . وطول مدة زيارتي كانت ترتعد وتسكب الدموع ، وأحياناً كانت تتكلم ، ولكن حديثها

كان في الحقيقة من الصعب فهمه . لقد كانت تشبه المجنونة بشدة انفعالها ولهاقتها ؛ وأحياناً كان الأطفال يقبلون مى ، وفي مثل هذه الحالة كانوا يقفون على مسافة منا ، ليلاحظوا الطريق ، حتى لا يفاجئنى أحد وأنا أتحدث مع ماري ، وكان « دور الحراس » هذا يسهل كثيراً . وبعد عودتنا كانت ماري تعود إلى وحدتها ، فتظل من جديد بلا حراك ، مغمضة عينيها ، مسندة رأسها إلى الصخرة ، ربما كانت تحلم بشيء .

وفي ذات صباح لم تستطع الخروج كالمادة لتتود القطيع إلى المرعى ، وبقيت في منزلها الصغير الخالي ، ولم يلبث الأطفال أن علموا بذلك ، فأثوا كلهم تقريباً لزيارتها عدة مرات في ذلك اليوم وهي طريحة الفراش لا يقوم بخدمتها أحد . ولدة يومين كان الأطفال وحدهم هم الذين يقومون بأمرها ، وقد أخذوا يتناوبون مهمة تريضها ؛ ولكنه عندما علم أهل القرية بعد ذلك أن ماري تحتضر أتت الفلاحة المجائر كل واحدة بدورها للقيام بجوابها ، وقد لاح في القرية أنهم أخذوا يشفقون على الفتاة ، فهم على الأقل قد ابتدأوا يتركون للأطفال حريتهم في أن يدنوا منها ، ولم يعودوا ينهرونهم عن ذلك كما كانوا يفعلون من قبل . وكانت المريضة دائماً في حالة حشجة ، فنومها مضطرب ، وسعالها نحيف ؛ وكانت النساء المجائر بمنمن الأطفال من الدخول إلى الغرفة ، ولكنهم كانوا يسرعون إلى النافذة ، وأحياناً لا يبقون هناك إلا لحظة واحدة ليقولوا : صباح الخير ماري العزيزة ! وأما هي فبمجرد رؤيتها لهم أو سماعها لصوتهم كانت تنتمش ، وللاحتظا كانت تصم أذنها عن ملاحظات ممرضاتها ، فترفع نفسها في مشقة فوق الفراش لترسل برأسها إشارة إلى أصدقائها الصغار ، شكرًا لهم . واستمر الأطفال على حمل الهدايا إليها ، ولكنها لم تمدنا كل شيئاً ، وبفضلهم — أؤكد لكن — ماتت سعيدة تقريباً ؛ بفضلهم نسيت محنتها وقد تلقت منهم الصفع على نحو ما ، وذلك لأنها حتى النهاية كانت تعتبر نفسها عاصية . لقد كانوا كالطير يضربون كل صباح نافذتها بأجنحتهم ويصيحون : ماري ! إننا نحبك !

لقد ماتت بسرعة ، وكنت أعتقد أنها ستعيش طويلاً ؛ ففي اليوم السابق لموتها ذهبت أراها قبل غروب الشمس ، فلاح لي أنها تعرفني ، ولقد صاغتها للمرة الأخيرة . كم كانت تلك اليد عارية عن كل لحم ! وفي الصباح المبكر أتوا فجأة ليخبروني أن ماري قد ماتت ؛ وفي هذه المرة خرج الأطفال على كافة الأوامر ، فدخلوا المنزل وغطوا الميتة بالزهور ، ووضعوا على رأسها تاجاً منها ؛ وفي الكنيسة احترم القسيس على الأقل ذكرى تلك التي سبها وهي حية ، ثم إن الحضور لم يكونوا غير قليل ممن أتى بهم حب الاستطلاع . وعند رفع الجسد

أراد جميع الأطفال أن يحملوا التابوت ، ولكنه لما كانت قوتهم لا تكفى لذلك فإن رغبتهم لم تجب . وساروا جميعاً في الجنازة باكين . ومنذ ذلك الحين وم يجلون قبر مارى ، ففى كل عام زينونه بالأزهار ، كما أنهم زرعوا حوله أشجار الورد .

(٢)

العبيط فى الحياة الاجتماعية

وأنا الأمير موتشكين — عبيط ديستوفسكى — يصاحب الأطفال ويفضاهم على الكبار ، ولم نستطع إلا أن نقره على سلوكه . فقد تصافر مع أصدقائه فى رحمة فتاة بائسة . نعم إن الفتاة كانت قد سقطت سقطه أخلاقية لم يكن بد للهيئة الاجتماعية من أن تتور لها . ونحن ندع جانباً منبع تلك الثورة . هبها غريزة تناهض ما فى ملكة التفكير من تدمير لحياة الفرد وتقويض لحياة الجماعة إذا أطلقنا لتلك الملكة عنان التبرير المثلل . ثم انظر ألم تكفر الفتاة عن إثمها ألم التكفير ؟ ألم قبل كل ما أنزل بها من تشكيل بنفس صاغرة باخمة ؟ وعندما ينزل القضاء أو ما ترى رحمة الله لا بد من رسالة هديها إلى من تختار من أرواح تحمل إلى البائسين نسمة من تلك الرحمة ؟ ومن يدرينا لعل الأطفال والمبطاء هم تلك الأرواح المختارة . نستطيع إذن أن نتردد فى الحكم على موتشكين بالعبيط لمصادقته الأطفال ومسحه دموع مارى ؟ بل قد نجرؤ فنرى أن الهيئة الاجتماعية التى تصف الأمير بهذه الصفة هى على الأهل العبيطة إن لم تكن الفليضة الحقاء . وما الهيئة الاجتماعية إلا نحن — العاديون من الناس — الذين نتحكم فيهم اللواضعات فتجعل منهم أحياناً وحوشاً لا نرى ما تفعل .

وها نحن اليوم نواجه العبيط فى الحياة الاجتماعية ، ها نحن ننادر أدب النفس إلى أدب الجماعة . ننادر ونحى الضمير إلى عادات المجتمع . ولا تحسبن أننا ننقل بذلك من مجال صارم إلى مجال هين . فنحن فى الحق أكثر استمباتاً للعرف منا للخلق . وذلك لأمر بئى هو أننا جيفاً — إلا من عصم ربى — أشد حرصاً على حركاتنا الظاهرة منا على حقائق نفوسنا . وإذا تعارض ظاهر لنا بباطن كم نحن نرى جولاك يستجيبون لنداء الضمير ؟

عاد الأمير موتشكين من سويسرا حيث كان يستطب من التشنج العصبي إلى بتسبورج ولما كان يعلم أن أسرته العريقة قد اقترضت ولم يبق منها غير سيده واحدة زوجة لجنرال كبير بالجيش ، فقد رأى أن يذهب إلى تلك السيدة ليتعرف إليها ويستشيرها فيما يفعل وهو الوحيد المنقطع .

« كانت الساعة غير بعيدة من الحادية عشرة صباحا عند ما دق الأمير الجرس بيوت الجنرال ، وهو في الدور الثاني . مسكن في حدود البساطة التي تسمح بها مكانة صاحبه الاجتماعية . وفتح الباب خادم في بذلة الحشم . وكانت مناقشات طويلة بين الأمير وذلك الرجل الذي نظر إليه هو وحقية ملابسه الصغيرة نظرة ملؤها الريبة . وفي النهاية ، وبعد أن أعلن إليه عدة مرات أنه حقيقة الأمير موتشكين وأنه في حاجة ماسة إلى رؤية الجنرال لأمر هام ، أدخله الخادم إلى غرفة صغيرة مجاورة لفرقة الانتظار ثم انسحب تاركا الضيف بين يدي خادم آخر . رجل في الأربعين من عمره يرتدي بذلة رسمية وعمله إخبار صاحب السعادة بأسماء الزائرين . وكان في ملاعبه المهمة ما يدل على مبلغ شعوره بأهمية وظيفته .

قال للضيف : تفضل . أدخل الصالون برهة ودع حقيتك هنا . قال هذا وهو يجلس في مقعد ضخم برزانة مصطنعة ونظرت له المدهوشة القاسية تفحص الأمير الذي لم يتخل عن متاعه المتواضع ، وأخذ كرسيًا وجلس إلى جواره قائلا : سأنتظر هنا — إذا سمحت — في صحبتك . ماذا أفعل هناك وحيداً ؟

— ولكنك ، ما دمت قد أتيت لزيارة ، لا تستطيع أن تبقى في هذه الغرفة . إنك تريد أن تحدث الجنرال نفسه . أليس كذلك ؟ . وفي الواقع إن الخادم لم يكن يخطر بباله أن يدخل زائراً كهذا على الجنرال ؛ ولذلك كرر سؤاله الأخير . فأجاب الأمير : نعم إن لى مسألة . . . — أنا لا أسألك عن شيء . فمضى هو أن أعلن قدمك فقط ، ولكنني كما أخبرتك مضطر إلى أن أرى السكرتير أولاً .

لقد أخذ الخادم يزداد ريبة . فالأمير كان شديد الاختلاف عن الزائرين العاديين . والجنرال — لا ريب — لم تكن مقابلته قاصرة على الوجهاء بل كان يأتيه أيضاً أفراد من كافة الطبقات لمصالح مختلفة ، وكان الخادم يعرف ذلك جيداً ولديه أوامر بأن لا يتشدد مع الزائرين ، ومع ذلك فإنه في هذه الحالة بالذات لم يجرؤ أن يتحمل المسؤولية ورأى أن خير حل هو أن يستعين بالسكرتير .

وأخيراً سأل الأمير وكأنه يوجه سؤاله مكرهاً : أحقا أنك . . . أتيت من الخارج ؟ ولقد أعوزته الشجاعة فلم يستطع أن يوجه السؤال الحقيقي ، وهو : أحقا أنك الأمير موتشكين ؟ وأجاب الأمير ؟ نعم ، إنني قادم من المحطة مباشرة . ولقد أردت فيما أعتقد أن تسألني هل أنا حقيقة الأمير موتشكين ، ولكن اللياقة منعتك من توجيه هذا السؤال . « هه ! ... » هكذا تم الخادم مدهوشاً .

— أوكد لك أننى لا أكذبك ، وأنتك لن تتحمل بسببى أية مسئولية . وإذا كنت ترائى فى هذا الزى حاملا هذه الحقبة الصغيرة فليس فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة . خالى الآن ليست على ما يرام .

— هه ؟ ... فى الحقيقة ليس هذا ما يخيفنى . إننى هنا لكى أعلن الزائر . وبعد هنية سيخرج السكرتير . وإذا كنت ... هل لى أن أعرف أنك لم تأت إلى الجنرال كرجل محتاج لتطلب مساعدة .

— آه ! لا . من هذه الناحية كنى مطمئنا كل الاطمئنان . إننى لم آت من أجل هذا . — معذرة . لقد خطرت لى هذه الفكرة وأنا أتأمل ملابسك . انتظر السكرتير . فالجنرال مشغول الآن مع أحد الضباط ، ولكنك سترى السكرتير قادمًا ... سكرتير الشركة .

— إذا كنت سأنتظر زمنا طويلا ، فإنى أسألك أن تسمح لى بالتدخين فى جهة ما ، فلى البية والدخان .

فصاح الخادم فى استنكار وهو لا يصدق أذنيه : بالتدخين ؟ ! ... بالتدخين ؟ ! ... أبداً . إنك لا تستطيع أن تدخن هنا ، بل وما كان يجوز أن يخطر هذا ببالك . آه ! هذا شيء عجيب !

أوه ! إننى لم أقصد التدخين فى هذه الغرفة ، فأنا أعلم جيدا أنه غير مسموح به ، وإنما أردت أن أرجوك لتدلى على مكان أشمل فيه يبيتى . وذلك لأننى معتاد التدخين ، وما قد مضت على ثلاث ساعات دون أن أدخن . ومع ذلك فليكن ما تريد . وأنت تعلم أن هناك مثلا يقول : فى الدبر الأجنبي ...

وغنم الخادم مكرها : ولكن كيف أعلن قدمك وأنت فى هذه الحالة ؟ مكانك كزائر ليس هنا ، بل فى الصالون . وبيقاتك فى هذه الغرفة ستمرضنى للتقرع ، ثم أضاف ، وهو يلقي بنظرة جانبية إلى الحقبة الصغيرة التى كانت لا تزال بيد الأمير ، وقد شملت الخادم طول الوقت ... ولكنك تنوى أن تقيم عندها . أليس كذلك ؟

— لا . هنا لم يخطر ببالى . وحتى لو اقترحوا على ذلك لن أقبل البقاء . وغايبى الوحيدة من هذه الزيارة هى أن أتعرف إلى أصحاب المنزل . ولا شيء أكبر من ذلك . ولاح هذا الجواب للخادم الظنين داعيا إلى الزبية فصاح مندهشا : إله ! أن تعرف إليهم ؟ ! ولكنك ابتدأت بأن أخبرتنى أنك أتيت لسألة ما .

— ربما أكون قد بالغت عند ما تحدثت عن « مسألة ». ومع ذلك فليكن مجبىً إلى هنا ، إذا أردت ، لمسألة ، بمعنى أنني أريد أن أخذ نصيحة . وإن كنت أود قبل كل شيء أن أقدم إلى الجنرال اينتشتين ، وذلك لأن زوجته من أسرة موشكين ، أسرتى . وهى وأنا آخر عضوين فيها .

وقد بالغت الكلمات الأخيرة من قلق الخادم فصاح ذاهلاً : وإذن فأنت من الأقرباء أيضاً ؟ !!

— تقريباً . لا شك أن هذه القرابة قائمة ، ولكنها بعيدة إلى حد أن تستطيع اعتبارها منعدمة . وعند ما كنت فى الخارج كتبت مرة إلى زوجة الجنرال ، ولكنها لم ترد . ومع ذلك فقد رأيت عند عودتى أن من الواجب تذكريها بى . ولقد استطردت إلى كل هذه التفاصيل لكي أبعد شكوكك ، وذلك لأننى أراك دائم الغلق . أعلن قدوم الأمير موشكين وبمجرد أن يسمعو اسمى سيمرفون سبب زيارتى . وعندئذ سيستقبلونى أو يرفضون استقبالى . فإن فعلوا كان خيراً وإن رفضوا ربما كان أخيراً . وإن كنت أعتقد أنهم لا يستطيعون أن يرفضوا ، فالسيدة لا شك تود أن ترى الممثل الوحيد الباقى من أسرتهما . وأنا أعلم أنها تمتاز بأصلها اعترافاً كبيراً .

وكان الأمير كلما ازداد تبسطاً فى حديثه واسترسالاً بريئاً ازداد إساءة إلى نفسه فى نظر الخادم . فهذا الحديث الذى لا غبار عليه إذا جرى بين أناس من طبقة اجتماعية واحدة ، لم يكن الخادم ليستطيع أن يفهم إلا أنه نابٍ عن موضعه . نبواً شديداً عند ما يدور بين زائر وخادم . ولما كان الخدم أقل غباوة مما يظن أسيادهم عادة فإن خادمنا قد افترض أحد أمرين : إما أن يكون الأمير شحاذاً أتى يستجدى الجنرال صدقه ، وإما أن يكون بكل بساطة رجلاً مخلولاً . وذلك لأن أميراً نبياً لا يمكن أن يبق فى هذه الترفة الجائنية ولا أن يقص أموره على خادم . وفى كلتا الحالتين هل كان يستطيع أن يعلن قدوم شخص كهذا ؟ .

وأما أعنى القارئ من بقية الحوار وأطمئنه إلى أن الأمير موشكين قد انتهى بالدخول والتعرف إلى الجنرال وزوجته وأبنتهما ، بل كانت له حادثة غرام مع إحدى بنات الجنرال ، والسكرتير طبياً هو الذى أدخله .

والآن ماذا يرى القارئ ؟ أهو عيبط حقاً ؟ ولك أن تراجع كل أقواله فلن ترى فيها غير الصدق . قد تقول ولكن الرجل عيبط عيبط ما فى ذلك ريب . فهو لا يعرف أين يضع نفسه ولا يقدر نفسه من مخاطبه ولا يظن إلى ما فى ردود الخادم من وقاحة متصاعدة ،

وهو أخيراً لا يعرف أن ما كل حق يقال ، وإذا قيل فما ينبغي أن يقال لكل إنسان ، وما إلى ذلك من حكمة الثمينة . قد قول هذا وخيراً من كل هذا وأما أنا فأعتقد أن عقولنا نحن هي الفاسدة وأن حياتنا الاجتماعية قد خربت نفوسنا . لقد كانت من القسوة بحيث خلقت أرواح عبید وأرواح سادة . وكانت من الالتواء بحيث جعلت من حياتنا كلها نفاقاً متصلاً واتخذت من هذا النفاق قانوناً صارماً يصيبنا من عدم احترامه أكبر الأذى ، فأصبحنا جميعاً نتساءل عن سر عبث هذا الأمير العجيب بدلاً من أن نتساءل عن سر فسادنا نحن خدماً وسادة .

(٣)

العيث والاعدام

من المعلوم أن ديستوفسكى خالق « المبيط » قد حكم عليه بالإعدام هو وعشرة من رفاقه الذين كانوا يميلون إلى الحرية المدنية والعدل الاجتماعى فى عهد القيصر نيقولا الأول . وبينما هم فى السجن أيقظهم الحراس فى الصباح المبكر وقادتهم العربات إلى حيث لا يعلمون ، وإذا بهم فى ساحة الإعدام حيث يتلى عليهم الحكم ويشد ثلاثة منهم إلى أعمدة الموت معصوبى الأعين وقصائل الجند من أمامهم لإطلاق الرصاص وديستوفسكى ذاهل ينتظر دوره . وعرت بالرجل دقائق سترها أصداها عما قريب . وفى اللحظة الأخيرة لم تطلق النيران إذ عفا القيصر عن المتهمين واستبدل بالحكم السجن أربعة أعوام فى سيبيريا ثم النفى أوعاماً أخرى بنفس تلك البلاد السحيقة المهلكة .

وإذا ذكرنا طبيعة ديستوفسكى المرضية وشدة إحساسه استطعنا أن ندرك كيف أن هذه الحنة الخاطفة قد تركت فى نفسه أعمق الآثار . ولقد خلفت بها مثل وقع السيف السموم ما إن تنكأ حتى ينزف .

ومن عجب أن يجرى الكاتب على لسان المبيط أنفذ ما أوحى إليه تلك اللحظات من إحساس ، ولكن ألم تقل من قبل أن الأمير موتشكين لم يكن من المبيط بحيث نطن ؟ لا . موتشكين ليس بسييط . ولديستوفسكى أن يسخر من القول كما يشاء . استمع إلى عبيطنا يحلل ما فى الحكم بالإعدام من فظاعة « تصور مثلاً رجلاً يسند . جسمه مغطى بالجراح . إن الألم الجسمى لن يلبث أن يذهله عن الألم النفسى حتى إن جراحه لتصبح إلى أن يموت عذابه الوحيد . ولكن أفسى أنواع العذاب وأعظمها ليس ما تولده الجراح وإنما هو اليقين من أنك بعد ساعة ثم بعد عشر دقائق ثم بعد نصف دقيقة ثم بعد برهة واحدة ستطير

روحك من جسدك وأنتك لن تعود إنساناً وأن كل هذا شيء مؤكد . هذا اليقين هو أشنع العذاب ... ليس هناك أى تناسب بين الإعدام وبين القتل الذى تكفر عنه تلك العقوبة . فأحدهما أظنع من الآخر فظاعة لا نهاية لها . فالرجل الذى يذبحه الصوص أو ينحرونه بالليل ، فى غابة ، أو على أى نحو كان ، يحتفظ إلى اللحظة الأخيرة بالأمل فى أن ينجو بالحياة . ولقد رأينا أناساً ، بنحورهم السكين ، ومع ذلك يأملون ويمدون ويتضرعون . وأما هنا فهذه البقية من الأمل التى تلتطف من الموت عشرات المرات ، تراهم يحرمونك منها حرماناً تاماً . هناك حكم . واليقين من أنك لن تفلت هو فى ذاته العذاب الذى ليس فى العالم ما هو أظنع منه . ضع جندياً أمام فوهة مدفع فى معركة وأطلق المدفع تر أنه لا يزال يأمل ، ولكن اقرأ على نفس الجندى الحكم عليه بالإعدام تراه إما أن يصيبه الجنون وإما أن يأخذ فى البكاء . من قال إن الطبيعة البشرية تحتل هذا دون أن تحرق فى الجنون ؟ لِمَ هذه القسوة التى لا فائدة فيها ؟ ربما كان هناك إنسان قرئ عليه الحكم بإعدامه ثم ترك برهة فريسة للرعب ليقال له بعد ذلك : إذهب ! فقد عفى عنك . آه ! هذا الرجل يستطيع أن يقص أحاسيسه . لقد تحدث المسيح نفسه عن هذا العذاب الأليم . لا . إنه لا يجوز أن نسمح بأن يؤخذ كائن بشري بمعذاب كهذا ؟ »

يحدثنا المييط عن رجل مرت به تلك المحنة فاستطاع أن يقص أحاسيسه . ولكن ديستوفسكى كان أبعد خيالاً وأغنى نفساً من أن يقف عند ما ابتلى . لقد عاد فى موضع آخر تحدثنا بلسان المييط أيضاً عن تنفيذ الحكم بالإعدام فعلا وسار به إلى آخر مراحل على نحو لا نظير أن أخذاً قد دأبه فيه .

« كان السجين يقدر أن الإجراءات العادية ستراعى ، ولذلك اعتقد أن أمامه على الأقل ثمانية أيام . ولكن لأمر ما اختصرت المدة . فى الساعة الخامسة صباحاً كان نائماً وكنا فى أواخر أكتوبر ، ولذلك فقد كان الجو فى تلك الساعة لا يزال بارداً والنهار لم يشرق بعد . دخل مدير السجن ومعه أحد الحراس ، فى غير جلبه ، ووضع يده على كتف السجين فهض جالماً وسأل وقد رأى الضوء : ماذا حدث ؟

— اليوم بين التاسعة والعاشر ستنفذ العقوبة .

ولم يستطع السجين الذى كان النوم لا يزال بينيه أن يصدق هذا الخبر ، فقد كان يزعم أن أمر التنفيذ لن يصل إلا بعد ثمانية أيام ، ولكنه عند ما كل صحوه أمسك عن المناقشة . ولزم الصمت . هذه هى التفاصيل التى ذكروها . ثم قال بعد ذلك : فليكن ! بنته ... على

هذا النحو؟! إنه لأمر مؤلم! ثم لزم الصمت من جديد ولم يرد أن يفوه بكلمة. ونحن نعلم كيف تمر الثلاث أو الأربع ساعات التاليات : زيارة القسيس ، الفطور : لحم ونيذ وقهوة (آه! يا لها من سخرية قاسية! ولكن هؤلاء الناس لا يقصدون إلى شر ، فهم يتقنون في سداجة أنهم يتصرفهم هذا يأتون عملا إنسانيا). ثم عملية التسيل والتجميل (وأنت تعلم ما هي هذه العملية بالنسبة للحكوم عليه بالإعدام). وأخيرا يحملونه في عربة ويقودونه إلى القفلة. ولا شك أنه — فيما أعتقد — كان يتخيل أثناء نقله أنه لا يزال أمامه في الحياة وقت لا نهاية له. «لا تزال أمامي ثلاثة شوارع أعيشها. إنه زمن طويل ، عند ما أصل إلى نهاية هذا الشارع ، سيظل أمامي شارع آخر أتابعه ، ثم ثالث حيث يوجد إلى اليمين مخبز — وسيمر وقت آخر قبل أن نصل إلى هذا المخبز». وحول العربة جمهور صاحب عشرة آلاف رأس. عشرة آلاف زوج من الأعين ، وعليه أن يحتمل هل هذا ، وبنوع خاص هذه الفكرة : هاهم أولاء عشرة آلاف ، ولكنهم لن يعدموا أجداً منهم بل أنا الذى سأموت. هذا عن القدمات. سلم يقود إلى القفلة ، أمام هذا السلم أخذ الرجل في البكاء ، وكان رجلا قويا ذا خلق شديد. قالوا إنه كان مجرما كبيرا. والقسيس الذى ركب إلى جواره في العربة لم يتركه برهة واحدة ، وكان يحادثه باستمرار ، ولكننى أظن أن للسكين لم يكن يستمع إليه ؛ ربما يكون قد حاول أن يصنى ولكنه بعد الكلمة الثالثة لم يعد يفهم شيئا. وفي النهاية أخذ يصعد السلم والقيود التى تقل قلمييه تضطره أن يخطو خطوات صغيرة. وأمسك القسيس — الذى كان بلا ريب رجلا ذكيا — عن عظامه مكتفيا بأن يقدم إليه باستمرار الصليب ليقبله.

لقد كان المجرم شاحيا عند أسفل السلم ، وأما الآن وقد وصل إلى القفلة فإن وجهه صار أبيض كالصحيفة ، لا شك أن أرجله أخذت تتداعى تحته وأن قلبه أخذ في اللثيان. وكان شيئا قد خنقه فانتشر في جسمه إحساس بالحر. هذه ظاهرة يولتها الرعب في تلك اللحظات المروعة التى يظل فيها العقل كاملا ولكنه يفقد كل ماله من سيطرة. إذا كان هلاكك مثلا محققا وكنت في منزل سينهار فوقك فإنك تشعر بجأة برغبة لا تقهر فى أن تجلس وتنمض عينيك وتنتظر. ولكن ما يكون ورأه القسيس فى هذه الحالة من الضعف فأدنى من شفثيه — فى صمت وحركة سريعة — الصليب ، صليب لاتينى من القصة. وكرر ذلك عدة مرات ، وعند ما أحس به الرجل لاح أنه قد عاد إلى نفسه لعدة ثوان ففتح عينيه ومشى .

لقد كان يقبل الصليب بنهم وهو فى لهفة قلقة كالمسافر الذى يخشى أن ينسى شيئا سيحتاج إليه

في رحلته وإن يكن من الراجح أن كل عاطفة دنيوية كانت بعيدة عن ضميره . تلك كانت حاله إلى أن شد على اللوح وأنه لمن الغريب أن الإغماء لا يحدث في هذه الثواني الأخيرة إلا نادراً . وعلى العكس من ذلك تحتفظ الرأس بحياة غزيرة ، وتعمل بلا ريب بقوة كبيرة وكأنها آلة تسيّر . يخيّل إلى أن ألواناً من الأفكار تطن عندئذ في الجمجمة . أشباح من الأفكار قد تكون مضحكة وهي لاشك في غير موضعها مثل : آه ! هذا المتفرج بمجهته « حسنة » . الجلاد بينذله زرار صدى . ومع ذلك تعرف كل شيء وتذكر كل شيء . وهناك مسألة لا يمكن أن ننساها وهي أنك لا تستطيع الإغماء . وحول هذه المسألة يدور كل شيء . ولنتصور أن هذه الحالة تستمر حتى آخر ربيع ثانية . وعند ما تمر الرأس من الطوق وتنتظر وتعلم ثم فجأة تسمع السكين تنزلق فوقها ؟؟ لاشك أنها تُسمع . ولو أنني كنت شخصياً ممدداً على الخشبة لأرهفت أذني ولسمعت الصوت ! وهو ربما لا يصدر إلا لعشر من البرهة ولكننا لا يمكن ألا نسمعه . ولنتصوروا أننا لا نزال إلى اليوم نود أن نعرف : هل الرأس لا تدرك — في الثانية الأولى بمد قطعها — أنها قد انفصلت عن الجسم ؟ .

لست أدري أسبق البيط في قصصه أم لم يصدق ، فتحن لا نعلم — كما قال شكسبير — أن ميتاً قد عاد ليخبرنا بما رأى ، ولا أن محكوماً عليه بالإعدام قد وصف لحظاته الأخيرة ، بما في ذلك برهة قطع الرأس والثانية التي تليها ، ولكنني أستطيع أن أتخيل أوضح الخيال ما يحدثني به هذا الرجل العجيب . تأمل قليلاً تلك الرأس التي تحتفظ بحياة غزيرة ومع ذلك لا تفكر إلا في « حسنة » بمجهة متفرج ، أو زرار بينذلة الجلاد . أو ما تحس أنها قد وصلت إلى غاية الجهد فلم يبق فيها إلا ما يخلف هذا الجهد من حرارة تشبه الحياة وهي بحمي اليأس أشبه . إن في قفاهة ما يدور بها لوحياً رعب الخيال . ثم أي مهارة في فن هذا البيط . كم من تفاصيل صغيرة تفرز النفس في تدرج ما كر ، وكم من حيل يصطنعها ليليل منا ما يريد . وحيله بمد من صميم حياتنا القريبة . لهفته في تقبيل الصليب هي لهفتنا جميعاً عند ما نخشى أن ننسى شيئاً سنحتاج إليه في سفر ، وشموه شعور رجل حم به القضاء وأخذ البيت ينهار فوقه فلم يستطع إلا أن يجلس ويغمض عينيه وينتظر إرادة الله . ثم صوت السكين . بأى حرص يريد الكاتب أن تقف عند هذه البرهة أو عشر البرهة لنحققها بخيالنا . لقد خشي أن نغربها سراعاً ، فأوقفنا لتناقشها . هل سيُسمع انزلاقها ، وهل السكين سيصنئ لصوتها . وبأى دهاء وضع الكاتب نفسه في هذا الموضع ليخبرنا أنه لا بد من نصت عندئذ لتلك الصوت الروع ولا بد مدركه . وما فعله الكاتب هناك أمل ضمني في أن يفعله غيره . وهذه هي

سناجدة أهل الفن الماكرة الساحرة وأخيراً هل أنا بحاجة إلى أن أذل القارئ على مافى السؤال الأخير (إدراك الرأس فى الثانية التى تلى قطعها أنها انفصلت عن الجسم) من رهبة تقشعر لها الجلود .

وبعد فقد اقتتل علماء القانون حول عقوبة الأعدام ، وكتبوا فى ذلك المجلدات الضخام ، فخنهم المؤيد ، ومنهم المناهض ، ولكنى لا أذكر أن أحدا منهم قد فطن إلى معنى الصدالة النفسية التى صورها ديستوفسكى هذا التصوير الرائع . إن فى تحليله لدمم التناسب بين القتل والأعدام لحقا لا يدفع . فهذا اليقين الذى يلقى الموت بالنفس وهى حية عذاب لا مثيل لفظاعته . ثم تلك الهممة الحائرة التى أخذ عليها اليأس كل مسلك ، قراها تمد مافى لها فى الحياة بالشوارع التى ستعبرها ، ومع ذلك يستقر فى ضميرها يقين بالفناء ، أو مآثرى فيها أشنع العذاب ؟! وإذا صدق مايقول هذا الكاتب العظيم أو ما يكون من العدل أن تقدر هذه العقوبة بوقعها النفس وتكافؤ هذا الوقع مع ما ارتكب من جرم ، وألا نكتفى فى مناقشتها بما يتوقع من صونها لحياة الجماعة .

(٤)

العبيط والنساء

رأينا العبيط فى عدة مواقف ، رأيناه مع ماري والأطفال ، ورأيناه مع خادم وسط الحياة الاجتماعية ، واستمنا إليه يتحدث عن عقوبة الإعدام ويصف تنفيذ تلك العقوبة الشنيعة ، ونستطيع أن نستخلص من كل ذلك أنه كان رجلا عاطفيا تهوده مشاعره أكثر مما يقوده عقله ؛ فهو يحنو على ماري ويصادق الأطفال لا حرصا على مبادئ أخلاق يؤمن بها بل بحارة للدافع قلبى ، ودوافع القلب قل أن تتفق مع مواضع الحياة الاجتماعية . وهو رجل ذو فلسفة خاصة فى الحياة ، فلسفة شعورية أيضا لأنها لا تتلقى شيئا من الخارج ومن ثم لا تنصت إلى عرف ولا تقطن إلى لياقة ، ولهذا نراه لا يرى عيبا فى أن يجالس الخادم وأن يتبرف إليه بأمره الخاصة إيمانا منه بأن الناس سواء وأنه لن يضره فى شيء أن يقص على ذلك الخادم ما يريد ، وهو لا يستقد أن هناك ما يستحق الكتمان ولا يقيس الأمور بنتائجها الخارجية ولا يدرك النفس البشرية كما صاغها أوضاع الحياة بل يراها دائما فى طبيعتها القطرية حتى لنحسبه عاجزا عن أن يقدر ما قد يصيبه من ضرر عندما يأخذ الناس بهذا النوع من المعاملة ، وإن كان من الذكاء بحيث يدرك الحقيقة النفسية لن يحاطبه ويفض غلافها دون

أن يأبه لهذه الحقيقة أو يقيم وزناً لما قد يصدر عنها من نتائج ضارة به . وهو أخيراً حار الخيال واسعه حتى لراه يتصور من التفاصيل المروعة ما تمجّب كيف يخطر لخيال بشرى ، وفي وصفه للإعدام وإبرازه لمواجس من نفذ فيه ذلك الحكم من الدقة والاستقصاء ما يشهد بأنه قد بلغ من الحساسية حداً يقرب من المرض .

كل هذه مواقف تساعدنا على تخطيط صورة المبيط كما تصوره ديستوفسكى ، ولكن الصورة لا يمكن أن تكمل ما لم نمرض لملاقته بالنساء ، وموقفه منهن ، فذلك محك عظيم الخطر في حياة الرجال .

ولقد أحب المبيط فتاتين ، أحبهما معا ، وكان حبه عفيفا متقدا ، أشبه ما يكون بحب القروسية . ولقد لعبت طبيعة الفتاتين في هذا الحب الدور الحاسم . كانت إحداهما : نستازيا امرأة عنيفة عنيدة مجروحة الكبرياء أثّرة على أخلاق الرجال . وكانت الأخرى أجلاييه بنت الجنرال إيتشين فتاة مرفهة في غطرسة شديدة الثقة بنفسها واحتقار من عداها .

ولقد بلغ من سذاجة هذا المبيط أن ظن أن في استطاعته أن يوفق بين الفتاتين وأن يحمل كلا منهما على محبة الأخرى أو مصافحتها على الأقل . ولقد جرى بينه وبين أحد الشخصيات الثانوية في الرواية حوار يكشف عن تفكيره أوضح الكشف .

سأله محدثه وقد هم بالزواج من نستازيا : تريد أن تزوج من نستازيا مع أنك تؤكّد لأجلاييه أنك تحبها ؟ — آه ! نعم نعم أحبها . — آه ، إذن أنت تحب الاثنين معا ؟ — نعم أحبهما — يا لله ! فكر قليلا أيها الأمير ، فكر فيما تقول — آه بدون أجلاييه ، لأننى . . . لا بد لى من رؤيتها . . . لأننى . ساموت دائما . لقد خيل لى وأنا نائم فى الليلة الماضية أننى أحضر . آه ، ليت أجلاييه تعلم كل شيء . آه لو علمت . . . يجب أن تعلم كل شيء . هذا هو المهم . ولماذا لا تعلم كل شيء عن الغير عندما يكون ذلك الغير جانبا . هنا شيء لا أستطيع تفسيره . لأننى لا أجد اللفظ المبرر ولكن أجلاييه ستفهمنى ، آه ! لقد آمنت دائما بأن أجلاييه ستفهمنى . — أيها الأمير إنها لن تفهم شيئا . لقد أحبتك أجلاييه كما تحب المرأة الرجل لا الفكرة المجردة . أو ما ظن أنها الأمير المسكين أنك على الأرجح لا تحب هذه ولا تلك ؟

لقد كانت نستازيا يتيمة تلقاها أحد الأرباب وهى فى الخامسة من عمرها ونشأها بضياعه ، حتى إذا بلغت الثانية عشرة وبدت عليها ملامح الخفة والذكاء والجمال تعهد الرجل تريدها بدور العلم ، وبعد أن أتمت دراستها اتخذ منها عشيقه له ، ولكن العشق لم يدم طويلا إذ فكر

في الزواج من غيرها وعندئذ أظهرت الفتاة من الحزم وقوة العزم ما حير العقول ، إذ أتت إلى بطرسبرج حيث أخبرت عشيقها أنها تناهت في زواجه وإن لم تشر نحوه بغير التفرض والاحتقار . ولم ير المشيق مغرجاً غير أن يحتال فيزوجها من سكرتير صديقه الجنرال إينشتين ، ونستازيا تسخر من محاولته . وهي موضع رغبة الكثيرين من الأثرياء حتى لقد أتاهم ليلة أحد هؤلاء المترفين العريدين حاملات آلاف الجنيئات وكان المبيط حاضراً وعرض المريد ماله ولكن المبيط حرص أن يتلف عليه أمره فعرض على نستازيا الزواج منه . ولكن نستازيا أخذت المال وألقت به إلى نار المدفأة والتفت إلى سكرتير الأمير خطيبها المزعوم ، وقد كان حاضراً هو أيضاً ، وطلبت إليه أن يستقذ المال من النار ، وهو لا ريب لم يدفعه إليها غير ما وعده به مرربها وعشيقتها من ثراء . ولكن الخطيب يرفض أن يعد يده إلى هذا المال ، وإن انتهى به الأمر فقطن إلى ما في موقف نستازيا منه من سخرية فمدل عن خطبته . وتملقت الفتاة بالمبيط لسذاجته وشذوذ أطواره ، تلك السذاجة وذلك الشذوذ اللذان لا يخلوان من شهامة حقيقية ، وكان شعورها نحوه مركباً عجيباً من دوافع القلب وغرائر الحياة . لقد وجدت فيه شيئاً جديداً في الوسط الذي تعيش بينه — تصرفاته تلقائية ، وحركات نفسه لا يدخلها تقدير ولا حساب ، وفي سذاجته من السحر ما يغرى نفساً يقظة كثيرة الحنايا كنفسها المرة العميقة ، لقد كان بينهما من التجاذب مثل ما بين الضياء والظلمة .

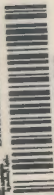
وأما أجلايه بنت الجنرال فقد تغير موقفها منه ، فبعد أن كانت لا تستمع إليه إلا ساخرة متعالية ، لم تلبث صراحتة وبساطة نفسه أن حطمت في نفسها الكبرياء ، فإذا بها تتعلق به وترى سعادتها في أن تقوم على رعايته . ولعلها وجدت في تلك الرعاية ما يشبع الكبرياء القديم . وهذه حقيقة قد تفسرها غرزة الأمومة في النساء من جهة ، ونزعة الكبرياء من جهة أخرى . وبقدر ما في نفس تلك الفتاة من تعالي كان ألماً من أن تنافسها نستازيا . واكتفى متوسكين بنار الاثنين يمدبته من العذاب . وهو المؤمن بأنه لا محل لهذه العداوة . وكان يوم التقت فيه الفتاتان بحضوره ، وإذا بالبغض الذي طال كبتهما له ينفجر . وأخذ الرجل ما يشبه الدهول ، فصرع إلى أجلايه أن تصافي نستازيا : « هذا لا يمكن ... أولاترين إلى أي حد بلغ بها الشقاء ؟ » ولكنه لم يكده يلفظ تلك الكلمات حتى ألزمتها الصمت نظرات أجلايه المروعة . لقد رأى في عينها ألماً وبغضاً لا حد لها ، وكان الوقت قد فلت ، فأجلايه لم تحتمل برهة التردد التي مرت به فصاحت صيحة غيظ ثم أجهت إلى الباب بسرعة . وعدا المبيط من خلفها ، ولكن نستازيا أمسكتة محدة في وجهها القطب الشاحب

وافترجت تشفتها الزرقاوان بقولها « أريد إذن أن تتبعها » ثم سقطت بين ذراعيه مغشياً عليها . حملها إلى غرفتها ووضعها في مقعد ووقف أمامها كالمتحجر . وخف أحد من في البيت يبلل وجهها بالماء . وبعد هنية فتحت عينها ولكنها لم تدرك شيئاً إلى أن أفاق ، فنظرت حولها ثم أرسلت صرخة وعدت نحو موشكين وهي تصيح : « أنت لي ! أنت لي ! لقد ولت تلك الفتاة المتكبرة ! ها ها ها . عجباً أنا التي كنت سأتركك لها ، لماذا ؟ لأى سبب ؟ لأننى مجنونة . مجنونة . » ولكي تنقم نستانزا من منافستها استيقظ الأمير بمنزلها واعتزمت الزواج منه ، ولكنها في يوم الزواج هربت مع ذلك الثرى الذى أحرقت ماله ، وتنتهى المأساة بما يفزع ، فقد قتل ثرىنا الفتاة ، واستفحل بموشكين مرضه فأصيب بالغبط المسرف . ولقد كان في النظر الأخير من هذه المأساة ما يربح الخيال ويلزمه ، فقد أمضى العبيط ومنافسه الثرى الليل قائم على جثة القتيلة مضرجة بالساء ، وكان بينهما حوار شاق طويل اجتمع فيه الحب إلى البغض في مزيج مركب من الشعور الإنساني الذى لن نسر غوره .

هذا هو موقف العبيط من الفتاتين . وموضع النظر هو إيمانه بإيمانا ساذجاً مؤثراً بأنه يستطيع أن يحب الفتاتين وأن يحملهما على التصاق إن لم يستطع حملهما على المحبة ، وفي هذا الإيمان ما يماشى فلسفة العامة التي تسلم بأن ما تستشعره النفس يجب أن يكون حقيقة واقعة وأن يقبله الجميع مادام صادقا تلقائياً ؟ وهو لا يدرك ما في نفوس الغير من صعوبات يجب أن يحسب لها حسابها . ولعله كان أصدق حساً من الفتاتين فأجلاييه لم يحتمل كبرياؤها ما لحته من تردده . بينها وبين منافستها فضحت بالحب في سبيل الكبرياء . ونستانزا نفس غامضة لم تلبث بعد أن تحقق لها النصر ووجدت الرضى — إذ هزمت بنت الجنرال — أن عادت إلى صحتها فهربت في يوم الزواج . ونحن في الحق لا نستطيع إلا أن نفضل الشعور المباشر على الشعور الملتوى . لقد أحب العبيط الفتاتين لنفسهما ، وإذا كانت هناك مشاعر أخرى قد اختلطت بذلك الحب ومهدت له ففى أقرب للإيثار والشهامة منها للأثرة المتكبرة . فنستانزا كان يريد أن يستخلصها من مغالب السوء ، وأجلايته كان فيها من توبئ الكاء وقوة الشخصية وجمال الروح ما يفري بالحب . ومن هنا ترانا نساءل كما نساءلنا من قبل : أحقاً كان موشكين من الغفلة بحيث يستحق أن يوصف بالعبيط أم هى الحياة الاجتماعية لم نكتف بأن أفسدت بمواضعاتها معاملتنا الخارجية بل امتدت إلى داخل النفوس حيث ألبست مشاعرنا الطبيعية أثواباً من التنكر لا تلبث أن تتبدد فتكون خيبة الآمال .

ol.
3
4

Bibliotheca Alexandrina



0410585